

"قس بن ساعدة"



kalemat


نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ

أدهم شرقاوي

« قِس بن سَاعِدة»

دار كلمات للنشر والتوزيع

بريد إلكتروني:

Dar_Kalemat@hotmail.com

الموقع الإلكتروني:

www. kalemat.com

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ

أدهم شرقاوي

«قِس بن سَاعِدة»

2023

kalemat

الإهداء

إلى كُلِّ الذينَ قرأُوا أسماءَ الآخرين

في إهداءاتِ الكُتب

فتمنّوا أن يُهديهم أحدٌ كتاباً

هذا الكتاب لكم!

1

كان اللغويُّ البارعُ «ابن جنيٍّ» أعورَ،
وحين ترجمَ له ياقوتُ الحموي قال: كان مُمَتَّعاً بإحدى عينيه!
يولدُ المعنى في الذِّهنِ عارياً، ونُلبسُه نحن حُلَّة الكلمات!
أَخيطوا لأفكاركم ثياباً جميلة من المفردات،
«زركِشوها» لتكون جذابة،
اجعلوا بعضها من الصوف ليجد الحزين فيها شيئاً من الدفء!
وبعضها من الحرير ليجد فيها المكسور شيئاً من اللين،
وبعضها اجعلوه سميكاً، سميكاً جداً،
ثمة فزع في الناس يحتاجون أن يتواروا منه!

2

روى الخطيبُ في تاريخ بغداد:
إنَّ عُبيد اللّه بن الحسن قاضي البصرة قال:
كانتْ لي جارية أعجميَّة من أجمل ما تكون النساء، وكنتُ بها معجباً،
وكانتْ ذات ليلةٍ نائمةً جنبي، فانتبهتُ فلم أجدها!
فقلتُ: شراً! فلما وجدتها، رأيتها ساجدة،
وهي تقول: بحبكَ لي اغفِرْ لي يا اللّه!
فقلتُ لها: لا تقولي هكذا!
قولي: بحبي لكَ اِغفِرْ لي!
فقالتْ: يا فقيه البصرة وقاضيها، حبُّه لي أخرجني من الشرك إلى الإسلام،
وبحبه لي أيقظ عيني لأقوم له، وأنامَ عينيكَ!
فقلتُ لها: اذهبي، فأنتِ حُرَّة لوجه اللّه!

كلما أدّيتَ طاعةً تذكر أنكَ ما أدّيتها بقوَّتك ولا إصراركَ،
وإنما هو كرم اللّه عليكَ أن أَذِن لكَ أن تعبده،
حبُّه لكَ، تخيَّل روعة الكلمة، وسحرها،
أنتَ الذي تكاد مجهولاً لدى العالمين، فلا يعرفكَ إلا أهل بيتك وحارتك،
يعرفكَ جبَّارُ السماوات والأرض، باسمك ورسمك،
ينظرُ إلى قلبكَ فيجدُ فيه خيراً،

ويطلع على خفايا صدرك فيجد لذاته العلية فيه موضعاً،
فيحبَّك، ومتى ما دخل العبدُ دائرة حُبِّ اللّهِ تعالى له فقد أَمِنَ،
ونجا!

إذا ما سمعتَ أذان الفجر يُرفع،
وقد سَهُلَ عليكَ أن ترفع عنك لحافكَ وتقوم إلى الصلاة،
فاعلمْ أنه حُب اللّه لكَ، واصطفاؤه إياك،
مليارات البشر غارقون في نومهم، وأنتَ من بين ثلة قليلة،
اِرْتضى اللّه سبحانه أن تضع جبهتكَ على الأرض له سجوداً،
وتردد بقلبك ولسانك سبحان ربيَ الأعلى!

إذا ما جاء رمضان، وعزمتَ على الصيام،
وقد رأيتَ أن كل شيءٍ للّه تركه لذيذ،
فخويت الأمعاء ابتغاء رضوانه، وظمئت الحناجر طلباً لرضاه،
فاعلم أنه حُب اللّهِ لكَ،
مليارات الناس لا يعرفون ما رمضان، ولا ما الصيام،
كلهم عما قريب على سفر إلى اللّه، وهم بلا زاد،
أما أنتَ فمصطفىً من كثرة، ومختاراً من جماعة، لتكون عبده الذي
يُحب!

وإذا ما شرحَ اللّهُ تعالى صدركِ للحجاب، وعلمتِ أنه أمر اللّه لكِ،
وأنَّ الأَمة لا تكون إلا في أمر سيدها،

فاعلمي أنَّ اللّه يُحبُّكِ وقد هداكِ إلى ما يُحبه،
انظري إلى السفور في هذا العالم،
انظري كيف صارت النساء سلعاً يظهرنَ حتى في إعلان زيوت السيارات!
انظري كيف صارت الكثيرات منهن مشاعاً للرائح والغادي،
يمشين في الطرقات وما ظهرَ منهن أكثر مما أُخفيَ!
أما أنتِ فدُرَّةٌ مُصانة، وجمال مخبوء لمن له الحقُّ فيه،
تمشين كالملكة بين الناس، لا يقربها أحد إلا ضمن «بروتوكولات» خاصة،
فاعلمي أنكِ مميزة بحب اللّه لكِ، وأنكِ تنعمين باصطفائه!

3

وُلِدَ الكاتب المناهض للعبودية «فريدريك دوغلاس»،
عبداً في «ماريلاند» عام 1817،
كان قد كتب في كتابه الشهير «عبوديتي وحريتي»:
العبودية منظومة مبنية على خلق مستويات عميقة من الخوف!
كان دوغلاس يسير دوماً عكس التيار!
علَّمَ نفسه القراءة والكتابة، رغم خطر العقوبة المشدد!
وحين جُلِدَ عقاباً على سلوكه المتمرد، هربَ إلى الولايات الشمالية في امريكا،
في سن العشرين دون أي أموال أو علاقات!
ولكنه سرعان ما صار قيادياً في حركة مناهضة العبودية،
يجوب الولايات الشمالية، سارداً على الجماهير عن شرور العبودية.
أراد منه مناهضو العبودية أن يظلَّ في دائرة محاضراته،
ليكرر نفس الحكايات مراراً وتكراراً، ولكنه أراد لنفسه أكثر من ذلك،
فتمرَّدَ مرَّةً أخرى، وأسس جريدته الخاصة المناهضة للعبودية،
وهو تصرف غير مسبوق من عبدٍ سابق!
وحققت الجريدة نجاحاً ساحقاً!

أحياناً على المرء أن يخطو خُطوةً أبعد،
لأن الخطوة الوحيدة المتاحة، أو التي يبدو أنها كذلك،
في الغالب لا تُؤدي إلى نتائج مرجُوَّة!
كان أمام دوغلاس أمران لا ثالث لهما،
أن يتحمل عذاب الجلد كل مرَّة، أو أن يهرب، فاختار أن يهرب!
لقد رأى أن المجهول الذي فيه حرية ومغامرة،
أفضل من العبودية المبنية على السلامة إن هو أطاع!
وبالمناسبة العبودية هي العبودية، ليس لها اسم آخر،
ومهما كان طول الحبل الذي يُربطُ به المرء!
المرءُ إما أن يكون حُراً أو يكون عبداً، لا يوجد منطقة وسطى!

الحياة في الغالب لمن يجرؤ فقط، ولمن يستطيع المواجهة،
ولمن يرفض أن يكون في عنقه سلسلة ولو كانت من ذهب،
ولكنها جرأة متعقلة، وإلا صار الأمر تهوراً،
وجرأة منبثقة من قيمة عليا ومبدأ، وإلا صار الأمر انحلالاً!

بلال بن رباح تخلَّد في التاريخ لأنه،
ثار على منظومة العبودية التي أرستها الجاهلية،
العبدُ ملكٌ لسيده، هكذا كانت تقول شريعتهم،
ليس له أن يختار ديناً، ولا رأياً، ولا حتى عاطفة بخلاف ما يأمر به السيد!
أما بلال فكان له مع كل هذا شأن آخر،
كانت أعلى أيامه في سلَّم الحرية حين رُبطَ على رمال مكة الملتهبة،
ووضعت الصخرة على صدره!

كان موثقاً في الظاهر طليقاً في حقيقة الأمر، لقد هزَّ منظومة العبودية كلها!

سعد بن أبي وقاص تخلَّد في التاريخ لأنه أخذ موقفاً مغايراً لما تعرفه مكة،
بل لما تعرفه العربُ جميعاً!
العقيدة أهم من العائلة! هذا كان عنوان ثورته،
وحين أقسمت أمه أن تقف في الشمس،
فلا تأكل ولا تشرب حتى يرجع عن دينه،
قال لها: يا أماه، لو كانت لك مئة نفس، خرجتْ نفساً نفساً ما تركتُ هذا الدين!

صهيب الرومي تخلَّد في التاريخ لأنه قلبَ مفهوم المُلكية!
المال صنو الروح، هذا ما تقوله العرب،
ولكنه عندما خرج مهاجراً يريدُ المدينة، لحقت به قريش تحاول إرجاعه،
فلما عجزتْ ساومته على ماله،
كيف تأتينا صعلوكاً لا مال لكَ وتريدُ أن تُغادرنا ثرياً؟!
هذا ما قالوه له!
ولكنه دلَّهم على موضع ماله، فأخذوه، ومضى هو إلى حيث حبيبه،
وفي المدينة تلقاه النبيُّ ﷺ بابتسامته العذبة،
وكان جبريلُ قد أطلعه على ما كان بين صهيبٍ وقريش،
فقال له: ربح البيعُ أبا يحيى!

4

بعد أن كان الممثل «روبن وليامز» ينتهي،
من تصوير مشاهد أفلامه التي أضحكت الملايين،
يخلو بنفسه ويبكي!
يقول صديقه المخرج «رالف»: كان روبن مصاباً باكتئابٍ حاد،
وبعد معاناة طويلة مع المرض وضع حداً لحياته،
تاركاً خلفه رسالة يقول فيها:
سامحوني، فالحياة لم تعُدّ تُطاق!
ثِقّ تماماً أن الصورة التي تراها أمامكَ،
ليست إلا جزءاً صغيراً من المشهد كله!
في داخل الناس أُناسٌ آخرون!
أنتَ ترى الضحكات، ولكنك لا ترى الجروح الغائرة،
ترى الهدوء، ولكنك لا تعلمُ شيئاً عن بركانٍ في القلب،
كل نعمة ظاهرة وراءها حرمان قاتل!
وكل عُرسٍ يحملُ في طياته مأتماً من زاوية ما،
هذه الحياة تئِدُ الناس بطريقة قاسية،
تهيل عليهم التراب بلا شفقة،
ترفَّقُوا في داخل كل إنسانٍ حيٍّ قبر!

5

روى الذهبي في سير أعلام النبلاء، والخطيب في تاريخ بغداد،
وابن الجوزي في صفة الصفوة:
أنَّ فروخاً والد ربيعة الرأي، خرج إلى الجهاد وربيعة جنين في بطن أمه،
وترك عند زوجته ثلاثين ألف دينار،
وعاد إلى المدينة بعد غياب سبعٍ وعشرين سنةً!
ثم جاء إلى بيته، ودفعَ الباب برمحه، فخرج له ربيعة،
وقال له: يا عدوَّ اللّه، أتهجم على منزلي؟
فقال له فروُّخ: هذا منزلي أنا يا عدو اللّه، وأنتَ دخلتَ على أهلي!
فتواثبا، وعلا الصياح، فخرجتْ سيدة الدار هلعةً، ثم لما رأت المشهد،
قالتْ: يا فروُّخ هذا ابنكَ ربيعة! ويا ربيعة: هذا أبوك!
فتعانقا، وتباكيا، وفعلا كما يفعل الأب والابن في أول لقاء.
ثم خلا فروخ بزوجته، وقال لها: هاتي المال الذي تركته عندكِ،
وهذه أربعة آلاف ضعيها معها!
فقالت له: لقد دفنتُ المال، وسأخرجه لك بعد أيام.
وخرجَ ربيعة إلى المسجد في اليوم التالي، ثم نُصبتْ له حلقته،
وجلس بين يديه تلاميذه، مالك بن أنس، والحسن بن زيد،
وغيرهم من فقهاء المدينة فيما بعد!
وقالت زوجة فروَّخ له: اِذهبْ، فصلِّ في المسجد، وسلِّمْ على رسول اللّه ﷺ!

فخرجَ، فإذا هو بحلقةِ ابنه، والناس بين يديه،
فلم يُصدِّق عينيه، فسأل الناس من هذا الفتى؟
فقالوا: هذا ربيعة بن فروخ!
فرجعَ إلى بيته سعيداً بما رأى، وقال لزوجته:
لقد رأيتُ ابنكِ في حالةِ ما رأيتُ أحداً من أهل العلم والفقه عليها!
فقالتْ له: أيما أحبُّ إليكَ، ثلاثون ألف دينار، أم هذا الذي رأيتَ؟
فقال: بل هذا الذي رأيتُ واللّهِ!
فقالتْ: فإني أنفقتُ المال كله عليه!
فقال لها: فواللّهِ ما ضيَّعتهِ!

إنَّ أجمل بناء نبنيه هو الإنسان!
وأبهى صرح نُشيِّده هو الإنسان!
وما أرسل اللّه تعالى الرُّسل، ولا أنزل الكتب، إلا لبناء الإنسان،
ليفهموا حقيقة أنفسهم، وحقيقة هذه الدنيا التي هم فيها،
وحقيقة هذا الخالق العظيم الذي أوجدهم،
فإذا ما استقام لهم هذا الفهم، صاروا بشراً حقاً!
وما دون ذلك إنسانية منقوصة، وضياع نفسي، وتشتت عقلي،
يجعل الإنسان يركض والدنيا تركض أمامه، يلحقُ بها فلا يدركها،
ولن يدرك أنه كان يركض في اتجاه خاطئ إلا عندما يرى وجه ملك الموت!

لا بأس أن يكون عندنا بيوت جميلة، هذا شيء مباح،
وبه عمارة الدنيا، ولمُّ شمل العائلة، ولكن الإنسان أولاً،
ما فائدة البيت الجميل إذا ما كانت النفوس خربة؟!
وما فائدة العمارات الشاهقة إذا ما كانت أرواح الناس تزحف على الأرض؟!
وما فائدة الجسور الواصلة بين المدن إذا كان بين الأرحام قطيعة!

استثمروا في أولادكم فهو استثمار يبقى، وفيه حسن أداء الأمانة،
وما الأولاد إلا أماناتٍ وضعها اللّه بين أيدينا!

6

أُعدِمَ الكاتب «راميرو دي مايثتو»،
في الحرب الأهلية الإسبانية عام 1936،
وكانتْ آخر كلماته للضابط الذي أمرَ بقتله:
أنتَ لا تعرفُ لماذا تقتلني،
لكني أعرفُ ما أموتُ من أجله:
حتى يكون أطفالُكَ أفضل منك!
للأسف هذا هو أحد قوانين الدنيا المُتعِبة،
أن يطفئَ شمعتكَ من تُحاولُ أن تنيرَ له الطريق،
أن يكسر مجاذيفك من تسُدُّ له بقلبكَ ثقب قاربه،
أن تُبكيك العينُ التي طالما مسحتَ دمعها،
وأن تطعنكَ اليد التي طالما قبلتها،
مُرٌّ هو الجحود، مُرٌّ جداً!

7

تناهى إلى مسامع سُقراط، أنَّ عرَّافةَ المدينة اعتبرته أعقل رجلٍ في العالم!

أربكَ هذا الأمر سُقراط، فهو لم يرَ نفسه مستحقاً لهذا التصنيف!

فقرر ببساطة أن يجولَ في أثينا للبحث عن رجل أعقل منه!

كان يعتقدُ أن الأمر سيسير على ما يُرام،

ويجد رجلاً أعقل منه، ويثبت خطأ العرَّافة!

انخرطَ في نقاشاتٍ عِدَّة مع ساسةٍ، وشعراء، وحرفيين، وزملاءٍ له في الفلسفة.

ولكنه أخيراً بدأ يدركُ أن العرَّافة مُحقَّة!

فكل الذين ناقشهم كانوا يملكون يقيناً حيال الأشياء،

ويدلون بآراء جامدة عن مواضيع لا خبرة لهم بها،

كانوا منفوخين بالهواء كبلالين!

وعندما كان يوجه لهم الأسئلة، كانوا عاجزين عن الإجابة!

أدركَ سقراط أن مكمن تفوقه في معرفته أنه يشك أصلاً في أنه يعرف،

وهذا ما يدفعه كي يقرأ، ويبحث، ويتعلم!

طبعاً على المرء أن لا يحقر نفسه،

وهذا مبدأ يجب التأكيد عليه قبل أن نخوض غمار الكلام!

ولكن بالمقابل فإن الرضى عن الذات مقتلة،

لأنه يدفع المرء إلى التجمد في مكانه!

ومن متناقضات الحياة الجميلة،
أن المرء لا يكتشف مساحة جهله إلا عندما يعرف!
فعلى سبيل المثال، إن قول الله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾،
تبدو لغير المتبحر في علم المواريث، آية محكمة ليس فيها للاجتهاد موضعاً،
ولا يمكن إضافة حرف في شرحها،
ولكن الحقيقة، في كتب فقهاء المواريث حالات كثيرة
ترثُ فيها المرأة أكثر من الرجل!
نحن ما دمنا لا نعرفُ عن الأمر إلا الآية، فسنعتَقد أننا من علماء المواريث،
ولكن بمجرد أن ندخل في التفريعات، ونخوض في الحيثيات،
سنعرف أننا لم نكن نعرف!

شخصياً، أكثر مرحلة من عمري كنتُ واثقاً أني أعرفُ فيها،
هي عندما كنتُ في الصف الأول الابتدائي،
كنتُ أعتقدُ أني أستطيع أن أشرح أي معضلة في الكون،
لأن الكون وقتها كان على مقاس معرفتي، أو بتعبير أدق على مساحة جهلي!
وأكثر مرحلة من مراحل عمري، اكتشفتُ فيها أني لا أعرفُ،
هي بعد مناقشة رسالتي في الدكتوراه!
كانت تلك أكثر مرة أبحثُ فيها، وأطلع،
وأرى الآراء، والاستنباطات، والمقاربات،
فعرفتُ أنه لا شيء يكشف عن بقعة الجهل إلا تسليط نور العلم عليه!

8

رأى إبراهيم بن أدهم رجلاً مهموماً، فقال له:

أسألُكَ عن ثلاثٍ وتجيبني؟

قال: نعم.

فقال له إبراهيم: أيجري في هذا الكون شيء لا يريده اللّه؟

قال: لا.

فقال له: أفينقصكَ أحدٌ من رزقٍ قدَّره اللّهُ لك؟

قال: لا.

فقال له: أينقصُ من أجلكَ لحظة كتبها اللّه في الحياة؟

قال: لا.

فقال له: فعلامَ الحزنُ إذن؟

وأنتَ أيضاً، فعلامَ الحُزن؟

صحِّحْ عقيدتكَ يطمئنَّ قلبُكَ،

كل ما خُلقَ لكَ لن يفوتكَ، وكل ما فاتكَ لم يُخلق لك أصلاً!

هذه الدنيا أقدار مكتوبة ولا سعادة إلا لقانع!

9

روى ابن كثير في البداية والنهاية، وابن عساكر في تاريخ دمشق، وابن الجوزي في صفة الصفوة:

إنَّ عبد الوهاب بن سعيد قال: حجَّ الحَجَّاجُ فنزلَ بين مكة والمدينة، ودعا بالغداء،

وقال لحاجبه: اُنظرْ من يتغدى معي، وأسألهُ عن بعض الأمر!

فنظر نحو الجبل، فرأى أعرابياً، فذهبَ إليه، وقال له: اِئْتِ الأمير.

فأتاه، فقال له الحجاج: اغسِلْ يديكَ وتغدَّ معي.

فقال: إنه قد دعاني من هو خير منكَ فأجبته!

قال: من هو؟

قال: اللّه تعالى، دعاني إلى صوم النافلة، فأجبته!

فقال له: في الحرَّ الشديد؟

فقال: صمتُ ليوم هو أشدُّ حراً من هذا اليوم!

فقال له: فأفطِرْ اليوم، وصُمْ غداً!

فقال: إن ضمنتَ لي البقاء إلى غد!

فقال له: ليس ذلكَ إليَّ.

فقال: فكيف تسألني عاجلاً بآجلٍ لا تقدِرُ عليه؟

فقال له الحجاج: إنه طعامٌ طيِّب!

فقال الأعرابي: لم طيّبته أنتَ ولا الطباخ، ولكن طيبَه العافية!

تأملوها بعمق: ولكن طيّبته العافية!

إن قيمة النعم تكمن في القدرة على الاستمتاع بها، وليس بمجرد امتلاكها فقط!

فكم من صاحب نعمة ينظرُ الناسُ إليه بعضهم بالغبطة، وبعضهم بالحسد،

وهو في الحقيقة محرومٌ!

كثير من الأغنياء يملكون مالاً يستطيعون به شراء طعام يكفي مدينةً،

ولكن أحدهم لمرضٍ نزلَ به لا يستطيع أن يأكل ما هو قادر على أن يشتريه!

كنتُ أستمع مرةً إلى محاضرة للدكتور محمد النابلسي،

وروى فيها عن غنيٍّ يعرفه، أنه لا يستطيع أن يأكل إلا الخضار المسلوقة،

ولو أكل شيئاً آخر لمات!

ما طابت لهذا ولأمثاله الدنيا وهي بين أيديهم، إلا لأنهم حُرموا العافية في البدن!

وكم من قصر منيف، ينظرُ إليه الناس من بعيد، ويتمنون أن يكونوا من أهله،

وما هو في الحقيقة إلا قبر دُفن فيه الأحياء،

فيه زوجة مهملة كأنها أثاث،

وأولاد شغلت أباءهم التجارة والدنيا عنهم،

حياة فيها ترف المظاهر وقسوة الواقع،

كجثة هامدة لامرأة حسناء، ينظرُ إليها الرائي ويحسبها نائمة

فيتمنى أنها له،

فإذا عرف أنها ميتة انصرف بكله عنها!

ذاك أنه بيت نُزعت منه عافية المودة والرحمة!

فإذا سألتم اللّه تعالى شيئاً فاسألوه أن يعطيكم إياه مع العافية،

فإنها متى نُزعتْ من شيء صار لا قيمة له!

10

في ربيع العام 1800، كان «نابليون» يستعِدُّ لقيادة جيشه إلى إيطاليا،
غير أنَّ جنرالات الجيش أخبروه، إن جبال الألب،
غير صالحة لعبورها في هذا التوقيت من العام، ونصحوه بالانتظار!
قال لهم نابليون: ولكن الانتظار سيقتل فرصة النجاح!
فقالوا له: وجبال الألب؟
فقال: لا وجود لجبال الألب أمام جيش يقوده نابليون!
واعتلى ظهر بغلته، وتقدَّم صفوف الجيش بنفسه،
مجتازاً تضاريس صعبة، وعوائق لا حصر لها!
وأخيراً وصل بالجيش إلى مبتغاه، وهاجم الجيشَ الإيطالي بغتةً،
وألحقَ به هزيمة ساحقة!

لا تكُنْ متوقَّعاً دوماً!
الشخص الذي يسهل معرفة خطوته اللاحقة،
لا يحقق في الغالب نتائج مرجُوَّة، لأن السِّر يكمن في امتلاكِ عنصر المفاجأة!
وفي كتب السيرة عشرات الأمثلة،
على عدم التصرف بنمطية يسهل اكتشافها،
فقد كان النبيُّ ﷺ يحرص على أن لا يكون مُتوقَّعاً،

لهذا كان دائماً يسبق الآخرين بخطوة،
ففي طريق هجرته لم يسلك الدرب المعتاد إلى المدينة!
وفي غزواته كان يُوَرِّي في مسيره،
فإذا أراد أن يغزو جعل له طريقاً التفافياً هو أطول في المسافة،
ولكنه يحوي في طياته عنصر المفاجأة،
وبهذا كان يحقق نصراً سهلاً بأقل الخسائر!

الأمرُ الذي لا ينسحب على الحرب والمعارك فقط، وإنما على الحياة برمتها كذلك!
يمكنكَ أن تُفاجئ زوجتكَ بهديةٍ لا تتوقعها،
ويمكنكِ أن تصنعي لزوجكِ أشياء جديدة تملكين بها قلبه،
النمطية تؤدي إلى الروتين، والروتين قاتل!

في طريقة إعلانك عن عملك وشركتكَ،
يمكنكَ أن تكون مختلفاً عن الآخرين،
أشياء صغيرة في الجِدَّة تُحدثُ فرقاً عظيماً، تجعل الناس يُقبلون عليكَ!
وحتى إن لم يتعلق الأمر بالمال وجذب الزبائن فقط.
وإنما تعلَّق أيضاً بالقيم والمبادئ، فإن الندرة مُلفتة!

أعرفُ داعيةً كلما صافح أحداً أخرج من جيبه قارورة عطرٍ صغيرة،
وعطَّر له يده، صار مميزاً بالطيب!
رأيتُ مرَّةً وصفة طبِّية لطبيب، كتبَ في أسفلها نصائح في العقيدة!

قال:

1. أنا مجرد سبب، والشافي هو اللّٰه!
2. خُذ دواءكَ حسب الوصفة وتذكرّ أن اللّٰه يشفي بالدواء وبغيره!
3. احتسِبْ وجعكَ، فحتى الشوكة يُشاكها المؤمن يُكفِّرُ اللّٰه بها من خطاياه!

أشياء نعرفها جميعاً، ولكنها مميزة، الندرة مُلفتة!

11

كان «جيروم آرفن» صحفياً يعطي نصائح،
لتلافي الأزمات القلبية،
قال مرَّةً: سأعيشُ مئة عام!
لكنه مات في السبعين من عمره بسكتة قلبية على الهواء مباشرة!
إنها آجال مكتوبة، لن يطيلها الحَذَرُ، وإن كنا قد أُمرنا به،
ولن ينقصها الإهمال، وإن كنا قد نُهينا عنه،
كثير من الموتى ماتوا بصحة جيدة! وكثير من المرضى عاشوا طويلاً،
كان الأمريكي «ستاماتيس» يبلغ من العمر 103 أعوام،
أُصيب بالسرطان، وأخبره الأطباء أنه لن يعيش أكثر من ستة أشهر،
عاد بعد عشر سنواتٍ ليخبرهم أنه بخير، فوجدهم قد ماتوا جميعاً!
سُئِلَ ابن عباس: كيف تفقّدَ سُليمان عليه السلام الهدهد من بين الطيور،
فقال: نزلَ منزلاً فلم يدْرِ أين الماء، وكان الهدهد يدُلُّه عليه،
فقالوا: كيف ذلك والهدهد يُنصبُ له الفخ، ويُلقى عليه التراب، فلا يراه؟
فقال: إذا وقعَ القدَرُ عَمِيَ البصر!

12

روى الغزاليُّ في إحياء علوم الدين:

إنَّ بكر بن عبد الله المُزني قال: كان رجلٌ يدخلُ على أحد الملوك، ويقفُ قريباً منه، ويقول:

أحسِنْ إلى المُحسِن بإحسانه، والمسيءُ ستكفيه مساوئه!

فحسده رجل على مكانته من الملك،

فقال للملك: إن هذا الرجل يزعمُ أن رائحة فمك كريهة!

فقال له الملكُ: وكيف أعرفُ صِدقكَ؟

فقال له: تدعوه ليقتربَ منكَ، فإنه سيضع يده على فمه كي لا يشمَّ رائحة فمك!

وقام الرجل فخرَج من عنده، ودعا بصاحب الملك، وأطعمه طعاماً فيه ثوم،

ثم قال له: إن الملك يدعوكَ!

فذهبَ، ووقف بعيداً عن الملك كي لا يشمَّ رائحة الثوم منه،

فطلب منه الملك أن يقترب، فوضع يده على أنفه وفمه،

فظنَّ الملكَ أن الرجل صادق في دعواه!

وكان الملكُ لا يكتب بخط يده إلا عقوبة أو مكافأة،

فكتب لصديقه كتاباً إلى أحد ولاته، يقول له فيه:

إذا جاءك صاحب هذا الكتاب، فاذبحه، واسلخه، واُحشُ جلده تبناً ثم ابعثْ به إليَّ!

فأخذ الكتاب وخرجَ، فلقيه الرجل الذي وشى به،

ولما علم بأمر الكتاب لم يشك أنه جائزة، فقال له: أعطني إياه

أعتني به!

فدفعه إليه، ومضى به، فلما قرأه الوالي، أخبره بحكم الملك،

فقال له: الكتاب ليس لي، وإن شئتَ فراجِعْ الملك!

فقال له: الملكُ لا يُراجع!

فأمر به فذُبح، وسُلخَ، وحشيَ جلده تبناً، وأُرسِلَ إلى الملك!

وجاء الرجل فدخل على الملك، فسأله عن الكتاب، فحدثه بالخبر!

فقال له الملك: ألستَ تزعمُ أني سيء رائحة الفم!

فحكى له قصة الثوم مع صاحبه، فعلم الملكُ أن المكر السيء قد أحاق بأهله،

فأدنى صاحبه، وقال له اِلزمْ ما كنتَ تقول!

دائماً يحيق المكر السيء بأهله، لعلها من سُنن اللّه تعالى في الكون،

أنَّ من أوقد ناراً للفتنة اكتوى بها،

ومن حفر حفرةً لإيقاع أحد فيها سيأتي اليوم الذي سيقع هو فيها،

إن اللّه سبحانه يُقلب الزمان بطريقة مذهلة،

ولا أحد في مأمن، وكل إنسان سيشربُ من الكأس التي ملأها،

إن خيراً فخير، وإن شراً فشر!

وكفى بالحاسد عقوبة أنه لا يهنأ بما في يديه، ولا يراه أساساً من النعم،

لأن عينيه دوماً على ما في أيدي الآخرين،

وكل إنسان يمكن لكَ أن تُرضيه إلا الحسود!

الغاضب تُهدِّئه، والطماع تعطيه أكثر، والبخيل لا تطلب منه،
والحسَّاس تراعيه،
أما الحسود فلا رضى له إلا بزوال النعمة عنكَ!

أشنعُ ما في الحسد ليس الجزء المتعلق بين الحسود والناس،
وإنما الجزء المتعلق بين الحسود وبين اللّٰه تعالى،
ذاك أنه في الحقيقة ساخط على اللّٰه لا على الناس،
فإن الذي أعطى غيره ومنعه هو اللّٰه سبحانه،
والحسود في قرارة نفسه يُريدُ أن يأخذ ما في أيدي الناس،
يرى أنهم لا يستحقون النعمة التي هم فيها!

13

الممثل الكوميدي «باستر كيتون»،
وقَّع عقداً من شركة «جي أم جي»،
يتضمَّنُ شرطاً يمنعه من الابتسام نهائياً في غير أفلام الشركة!
الكثير من العُقود تُشبه عقود الرِّق في الجاهلية،
شيء من النخاسة المُغلّفة ببريق الشُّهرة!
في كأس العالم عام 1970 رفض «يوهان كرويف» ارتداء قميص المنتخب،
والسبب أنه من صنع شركة «أديداس»،
الغريم التقليدي وقتها لشركة «بوما» الراعية الرسمية له،
وكحل للنزاع، اتفق كرويف مع الاتحاد الهولندي،
على نزع شريطة من الشرائط الثلاث المميزة للعلامة التجارية «لأديداس»،
حتى نحن الكُتَّاب تمنعنا دور النشر،
من نشر كتبنا «إلكترونياً» لأن هذا يؤثر على المبيعات!

14

بعد خروجه من السجن، كرَّسَ «مالكوم إكس» كل طاقاته،
لاستيعاب مشاكل السود في الولايات المتحدة الأمريكية.
قال في سيرته الذاتية: هذه البلاد تحبذ الإمعان في تلميع المظهر الخارجي،
والتحايل الهروبي، والتسطيح،
بدلاً من التعامل الصادق مع المشاكل المتجذرة!
لهذا قرر أن يحفر عميقاً!
وفي النهاية وصل إلى السبب الجذري: التواكل،
لم يستطِعْ الأمريكيون الأفارقة إنجاز أمورهم بأنفسهم،
فهم يعتمدون على الحكومة، وعلى الليبراليين، على قادتهم،
وعلى الجميع، إلا أنفسهم!
إذا تمكنوا من وضع حد لهذا التواكل، سيمتلكون القوة لقلب الأمور.
اغتيل مالكوم قبل أن يكمل مهمته،
ولكن منهجه ظلَّ صالحاً لكل الأمكنة والأزمنة،
فحين لا تصل إلى جذر مشكلة ما، فلن تستطيع حلَّها!

تفشلُ محاولات حل الكثير من المشكلات الاجتماعية،
لأن الذين يحاول حل هذه المشكلات إنما يُعالجون النتائج لا الأسباب!
ولتقريب المفهوم، وإيضاح الصورة،

عندما يُصاب الجسم بالتهابٍ، ترتفعُ حرارة المريض،
هُنا لا يُمكننا القول إن مرض هذا المريض هو ارتفاع الحرارة،
هذا تشخيص سطحي لا يرقى أن يكون طِباً أساساً،
الطِبُّ يقولُ: إن المرضَ هو التهاب نتجَ عنه ارتفاع في حرارة المريض!
صحيح أن الأطباء يعطون المريض خافضاً للحرارة،
ولكنهم لا يكتفون بهذا، إنهم يعالجون الالتهاب،
لأنهم يعرفون أنه إذا ما تمَّ علاجه،
فإن الحرارة سترجعُ إلى سابق عهدها بطبيعة الحال!
وهذه كتلك، عند علاج مشكلة ما، لا بأس بمعالجة ما نتجَ عنها،
ولكن هذا وحده لا يكفي،
لا بدَّ من علاج الأسباب التي أدتْ إلى نشوء هذه المشكلة،
وإلا بقيت كل الحلول عقيمة، ومجرد محاولات ترقيع ليس إلا!

تدخلتُ مرةً لحل خلاف زوجي بطلبٍ من أصحابه،
قيل لي: إن الزوجة تركت بيتها وذهبتْ إلى بيت أهلها،
وهذه ليست المرة الأولى، نريدُ أن تعود!
بدا واضحاً لي أنها ليست مشكلة عرضية،
ناشئة من خلاف زوجي عابر يحصل في بيوتنا جميعاً،
ثمة سبب يجعل هذه المشكلة تتكرر،
وإعادة المرأة إلى بيتها دون علاج السبب،
الذي يؤدي كل مرَّةٍ إلى نشوء هذه المشكلة،

هو مجرد إضاعة للوقت، ومحاولة لتغطية جرح قبل تنظيفه،
فلا يلبث أن يلتهبُ مجدداً، وتصبح المشكلة الآن أكبر من قبل!
الزوج لم يتخذ منزلاً مستقلاً لزوجته، فهو يسكن مع أهله،
فلا الأهل يَكُفُّونَ عن التدخل في كل صغيرة وكبيرة في حياتها كما قالتْ،
ولا هي تتيح لهم إدارة منزلهم على مزاجهم كما قالوا!
قلتُ لصاحب المشكلة: اِسمَعْ،
هذه المشكلة نتيجة، عليكَ أن تعالج السبب،
وهذا لن يتم إلا بإحدى ثلاث حالات،
الأول أن تصبر زوجتك على هذه الحال، وواضح أن صبرها نفدَ،
أو أن يُغيِّر أهلكَ من تعاملهم معها، وواضح أنهم ليسوا بهذا الصدد،
فلم يتبقَ أمامكَ إلا أن تستأجر لزوجتك بيتاً مستقلاً!
وبالفعل، هذا ما حدث، وهو الآن سعيد، وعلاقة أهله بزوجته طيبة!

يُعجبني قول علي عزت بيغوفيتش في هذا المجال:
لا تقتل البعوض، جَفِّف المستنقعات!

15

زيَّفَ اللورد «تيموتي دكستر» وفاته،
ليعرف من سيأتي إلى جنازته،
حضر إلى مراسم الدفن ثلاثة آلاف شخصٍ حزين،
زوجته فقط جاءت إلى الجنازة سعيدة،
فقام وضربها بالعصا على رأسها!
كثير من الوجوه ما هي في الحقيقة إلا أقنعة!
وكثير من الابتسامات تُخبئ خلفها خناجر مسمومة،
وكثير من العناق كان أصحابه يودون لو خنقوك،
في قلوب الناس يسكن شياطين وملائكة،
ولكن صورة الملاك تظهر على وجوه الجميع،
لأنها عُدَّة نصب رائجة!

16

روى الذهبيُّ في سير أعلام النبلاء، وابنُ حجر في الإصابة، والبيهقيُّ في شُعب الإيمان، وابنُ عساكر في تاريخ دمشق:
إنَّ ابن عباسٍ قال: أسرَتْ الرُّومُ عبد اللّه بن حُذافة السهميِّ، صاحبَ رسول اللّه ﷺ.
فقال له الطاغية ملكهم: تنصَّرْ وإلا ألقيتُكَ في قِدْرِ الزيت المغليِّ!
فقال: ما أنا بفاعل!
فدعا بالقِدْرِ، فملئتْ زيتاً، وأُغليتْ، ودعا رجلاً من المسلمين، فعرضَ عليه النصرانية، فأبى، فألقاه فيها، فإذا عظامه تلوح!
فقال لعبد اللّه: تنصَّرْ وإلا ألقيتُكَ فيها!
فقال: ما أنا بفاعل!
فأمرَ أن يُلقى فيها، فاقتادوه، فبكى!
فقال الملك: رُدُّوه!
فقال عبد اللّه: أتحسبُ أني بكيتُ جزعاً وخوفاً، لا واللّه، وإنما بكيتُ لأنه ليس لي إلا نفسٌ واحدة،
وكنتُ أُحبُّ لو أنَّ لي مئة نفس، وتموتُ كلها في سبيل اللّه!
فأُعجبَ به الملك، وقال له: تنصَّرْ، وأُزوجكَ ابنتي، وأقاسمكَ نصف مُلكي!
فقال له: ما أنا بفاعل!
فقال له: قبِّلْ رأسي، وأطلِقْ معكَ ثمانين من المسلمين!
فقال له: أما هذا فنعم!
فقبَّلَ رأسه، فأطلقه وثمانين من المسلمين!

فلما قدموا على عمر بن الخطاب قام إليه،
وقال: حقٌ على كل مسلم أن يُقبِّلَ رأس عبد اللّه، وأنا أبدأ!
فقبَّلَ عمر رأسه، وقام المسلمون إليه يُقبلونه!

المسلم عزيز لا ينحني رأسه إلا لخالقه،
والحياة نهايتها الموت مهما كان شكلها،
وإنما هو عمر واحد، وميتة واحدة، فلا تشتروا ذُلَّ الحياة هرباً من الموت،
فإن الأعمار قد كُتبتْ قبل أن نولد، وانَّ الأقلام قد رُفعتْ والصحف قد جفَّتْ!

إذا ما تعلق الأمر بالدنيا فكُنْ مَرناً،
حاول مرةً بعد مرَّة، وغيِّر وسائلك إن لم توصلكَ إلى غاياتك!
كُنْ ليّناً، فإن الإنسان يبلغُ باللين مقاماً لا يبلغه بالعنف والقسوة!
احمِل الرحمة في قلبك لكل الناس، المسلم والكافر على حد سواء،
كُن شامةً بين الناس، دافع عن أحلامك حتى الرمق الأخير،
واسعَ للتميز والنجاح!
ولكن إذا ما تعلَّقَ الأمر بالعقيدة فكُنْ جبلاً!
لا تنحنِ مهما كانت الظروف، فإن الأيام قد لا تُسعفكَ أن تنهض مرَّةً أخرى،

وإن رحلة التنازل تبدأ بخطوة، ثم يجد الإنسان نفسه قد ابتعد كثيراً،
ولم يعد ذاك الإنسان الذي كان عليه أول الأمر!

إن التاريخ لا يذكر بين صفحاته أولئك المتلونين الذين لا عقيدة عندهم ولا مبدأ،
وإنما يُخلد ذكر أصحاب العقائد والمبادئ،
ما عرفنا ماشطة ابنة فرعون إلا لأنها وقفت أمام فرعون كالجبل متمسكة بدينها،
وما عرفنا بلال بن رباح إلا من قول: أحد أحد!
في وجه أمية بن خلف!

17

في ولاية «نيفادا» الأمريكية جدار،
يقوم فيه الناس بتفريغ همومهم، وكتابة ما يخشونه،
ليتمَّ تنظيفه آخر كل يوم،
كإشارة أن الخوف والهم يمكن إزالتهما!
هذا هو أحد قوانين الحياة،
الأشياء التي تهربُ منها ستبقى تتبعُكَ،
إلى أن تُقرر في لحظة ما أن تستدير وتواجه!
وقتها ستكتشف أن الخوف كان قد منح الأشياء حجماً أكبر،
تماماً كالطفل الذي كان يخاف من ظلِّه،
ثم بعد أن فهمَ حقيقة الأشياء صار ظلُّه صاحبه!

18

حين كان «كورنيلوس فاندربلت» في سن الثانية عشرة،
أُجبرَ على العمل لصالح والده في مشروعه الصغير الخاص بالشَّحن،
كان عملاً شاقاً، لهذا كرهَهُ.
كان كورنيلوس طفلاً عنيداً وطموحاً، وعقد العزمَ في ذهنه على الآتي:
خلال أعوام معدودة، سيؤسسُ مشروعه الخاص للشحن.
هذا القرار البسيط غيَّرَ كل شيء.
وباتت هذه الوظيفة التي يكرهها تدريباً ممتازاً وضرورياً،
لقد تعلَّم سرَّ المهنة، وفهم قانون اللعبة!
في سن السادسة عشرة، اقترضَ مئة دولارٍ من والدته،
وهو مبلغ جيد في العام 1814، واستخدم المال لشراء قارب،
وبدأ في العبور بالمسافرين بين منهاتن وستاتن آيلاند.
واستطاعَ أن يعيد المبلغ إلى والدته خلال عام.
ومع بلوغه سن الحادية والعشرين، كوَّنَ ثروةً صغيرة،
وصار في طريقه لأن يصبح أغنى رجلٍ في زمانه!
من خبرته وضعَ شعاره الذي استمرَّ معه مدى الحياة:
لا تكن تابعاً أبداً، كُنْ مالكاً على الدَّوام!

قبل أن نفتح نافذة الكلام ونطلَّ منها على القصة،
لا بدَّ أن نؤكدَ على عدة مفاهيم أولاً!

1. الأرزاق مكتوبة، ونحن مأمورون بالسَّعي!
2. لو أمضى الإنسان عمره كله في السَّعي فلن ينال أكثر مما كُتبَ له!
3. التوقف عن السَّعي لتحصيل الرزق، بحجة أن الأرزاق مكتوبة، هو فهم سقيم، وليس فيه شيء من التوكل، وإنما هذا هو التواكل بعينه!
4. نحن مأمورون بالعمل لأننا نعرفُ أن العمل باب رزق، ولكننا ونحن نعمل لا ننسى أبداً أن الرازق في السماء!
5. سمة هذه الدنيا التفاوت، ولو كانت الأرزاق مقسمة بالتساوي، لما كان هناك عمل ولا سعي، فسبحان من قضى كل أمر لحكمة يعلمها!

لا شك أن الإصرار على تطوير الذات، والاستقلال بعمل خاص،
أمر محمود، ومضمار سباق محترم،
وكلما استقلَّ الإنسان مادياً كان أملكَ لنفسه!
على أنه في قصة نجاح ملهمة،
علينا أن لا ننسى أن الآلاف يقبعون في السجون،
لأنهم اقترضوا لأجل أن يكون لهم مشاريعهم الخاصة!
نعم هناك فرق بين ساع وآخر، وبين محترفٍ وهاوٍ،
ولكن ما منا من أحد إلا سيأخذ ما كُتبَ له!

الوظائف وإن كانت مضمونة الراتب نوعاً ما،
وتضفي على حياة الإنسان نوعاً من الاستقرار،
إلا أنها تحمل في طياتها نوعاً من أنواع الرِّق المغلف بالمدنية الحديثة،
ولن يفهم هذا المعنى إلا شخص كان له وظيفة، ثم صار له عمله الخاص،
ثمة شعور رائع في أن يملك المرءُ زمام نفسه!
على أني لستُ من دُعاة التهور، ولا ترك المضمون لأجل الممكن،
ولا مع المخاطرة بكل شيء لأجل شيء لن يكون،
أنا مع الجرأة المتعقلة، ولكن الأمر فعلاً يستحق!

19

عندما وصلَ خبرُ وفاة خالد بن الوليد إلى عمر بن الخطاب
انزوى بنفسه، وأخذ يبكي ويقول: ذهبوا وتركوني!
عمر هازم الإمبراطوريات
الذي يهربُ منه الشيطان إذا رآه
كسره موت خالد بن الوليد
تماماً كما كسره موت النبيُّ ﷺ من قبل،
فخرجَ يبحثُ عن مكانٍ يبكي فيه وحده!
يُهزم المرءُ بالأشياء التي يُحبُّها،
ألف عدو لا يفعلون بقلبك ما يفعله حبيب واحد!

20

روى ابن قُدامة في كتابه التوابين:
إنَّ ربيعة التميمي قال: كان رجلٌ مقبلٌ على المعاصي،
ثم أراد اللّه به خيراً وتوبة.
فقال لزوجته: إني ألتمسُ شفيعاً عند اللّه!
فخرجَ إلى الصحراء، وجعل يصيح: يا سماء اشفعي لي،
يا أرض اشفعي لي، يا ملائكة اشفعوا لي!
فأدركه التعب، فخرَّ مغشياً عليه، فبُعثَ إليه مَلكٌ، فأجلسَه،
ومسحَ له على رأسه، وقال له: أبشِرْ فقد قبلَ اللّه توبتكَ!
فقال له: رحمكَ اللّه، من كان شفيعي عند اللّه؟
فقال: خشيتُكَ شفعتْ لكَ عند اللّه!

الأصل في الخشية من اللّه سبحانه أن تكون هذه الخشية مقرونةً بالعمل،
فلو خشيَ العبدُ ربَّه حقاً لاستقامَ له كما يريدُ منه!
فهي عبادة صحيحة تُؤدى، وخُلق حسَنٌ يُعامل به الناس،
وإحلال الحلال، وتحريم الحرام،
ثم يمتلئ القلبُ خشيةً ألا يُقبل كل هذا من العبد!
وهذه يمكن تسميتها خشية العارفين باللّه!
ومخطئ من يعتقد أن خشية اللّه نابعة من معصيته،
إنها نابعة من معرفته أكثر سبحانه،

فمن عرفه حقاً عرف من يخشى، لهذا قال النبي ﷺ:
«مررتُ ليلة أُسريَ بي على الملأ الأعلى فإذا جبريل كالحلس/
الثوب البالي من خشية اللّه!»
جبريلُ أمين الوحي، المعصوم عن الخطأ كما كل الملائكة،
فلا ذنب له ولا جريرة، ومع ذلك هذه هي خشيته اللّه تعالى،
خشية نابعة من معرفته جلَّ وعلا!

ولكننا نهاية المطاف ناس، ولسنا جميعاً أبراراً،
بل المُشاهد عياناً أن العارفين باللّه حقاً هم قلة في الناس،
أما نحن فنسيرُ إلى اللّه عُرجاً ومكاسير،
مذنبين وغير قانطين من رحمته سبحانه،
وخشية العبد من عقاب اللّه على ذنوبه، لها جزاء عظيم عند اللّه
تعالى،
وفي الحديث الذي رواه الشيخان ما يُغني عن كثير كلام:
قال رسول اللّه ﷺ: أسرفَ رجلٌ على نفسه، فلما حضره الموت
أوصى بنيه فقال: إذا أنا متُّ، فأحرقوني، ثم اسحقوني،
ثم اذروني في الريح في البحر،
فواللّه لئن قدرَ عليَّ ربي ليعذبني عذاباً ما عذَّب به أحداً!
ففعلوا ذلك به، فقال اللّه تعالى للأرض: أدِّي ما أخذتِ!
فإذا هو قائم، فقال له ربه: ما حملكَ على ما صنعتَ؟
فقال: خشيتُكَ يا رب!
فغفرَ له بذلك!

وهذا الحديث لا يتنافى مع كلامنا الأول، بل يُكمله،
ففي نهاية المطاف أَمرُنا جميعاً إلى اللّه،
إنّ شاء عفا رحمةً منه، وإن شاء عذَّبَ عدلاً منه!
ولن يدخل الجنة أحد بعمله!
غير أن العمل جالب لرحمة اللّه سبحانه،
فاللّه أكرم وأعدل أن يرى عبده طائعاً له، مسارعاً في الخيرات،
يعملُ الحسنة ويرجو قبولها، ويعمل السيئة ويخشى أن تكون سبب هلكته،
ثم لا يدركه اللّه برحمته!

فالأصل إذا أن تكون الخشية دافعاً للعمل، وناهيةً عن الجرأة على اللّه سبحانه،
ولكن من منا يطيق كل هذه الاستقامة،
فنبقى على وجل وخوف من اللّه سبحانه،
نحاول الطاعة ما استطعنا، ونسرع بالتوبة إذا ما أذنبنا،
متوجين هذا كله بحسن ظننا بربنا!

21

بدأت حرب القوقاز عام 1817،
هربَ خلالها مئات آلاف «الشركس» عبر البحر،
وفي رحلة الهرب من الموت،
مات منهم الآلاف غرقاً بسبب قواربهم البدائية المتهالكة،
حرَّم الشركسُ الناجون على أنفسهم السمك مئة عام،
كي لا يأكلوا لحم إخوتهم الذين أكلتهم الأسماك!
شخصياً أعتقدُ أن «السينما» أعطت كل شيء نصيبه الكافي،
الحُب، المافيا، الكوميديا، المغامرات، العنف، والسجون،
وحدها الحرب كانت في الأفلام أقل وجعاً مما هي في الحياة،
في الحروب تؤدى المشاهد مرَّة واحدة ولا تُعاد،
تفنى أسرة كاملة دون أن يبقى منها أحد ليروي الحكاية،
يدفنُ حبيبٌ حبيبتَه، وحبيبةٌ حبيبها، ثم تخرس اللغة،
هذا الوجع لا يمكن أن يكون ناطقاً مهما حاولنا،
الحرقة في قلوب الأمهات تُعاش واقعاً فقط،
انكسار أرواح الآباء لا يُجسَّد،
الحرب وَحْش، لا أحد يستطيع أن يفهمه إلا من قابله وجهاً لوجه!

22

في العام 1933 تولى «فرانكلين روزفلت» رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية،
في ظروفٍ لا يُحسَدُ عليها، فقد بلغ الكساد الكبير ذروته!
ولكن ليس هذا هو الذي كان يزعج روزفلت،
وإنما الحالة المزاجية للشعب،
حيث بدا له أن الناس ليست خائفة أكثر من اللازم فقط،
وإنما مخاوفهم تصَعِّب عليهم التغلب على الأزمة.
وفي خطابه الافتتاحي إلى الشعب،
أعلن أنه لن يتجاهل هذا الواقع الصعب،
اعترفَ بانهيار الاقتصاد، وأقرَّ أنه لن يتحدث عن التفاؤل الساذج!
لكنه ناشد الأمريكيين أن يتذكروا أن الدولة واجهت أموراً أسوأ في الماضي،
وحقباً على شاكلة الحرب الأهلية، وأن ما أخرجهم من هذا كله،
هو عزمهم وإصرارهم.
قال للشعب: قبل كل شيءٍ، دعوني أُؤكدُ على إيماني الراسخ،
أنَّ الشيء الوحيد الذي يجب أن نخاف منه هو الخوف ذاته!
فهو رعب لا اسم له، وغير عقلاني، وغير مبرر،
يشُلُّ كل الجهود، ويقتل كل المحاولات!

أعطى هذا الخطاب ثماره،

وانعكس بشكل طيب على مزاج الناس، ومن ثم على عملهم،
رغم أن الموارد بقيت هي ذاتها لم تتغير، في الفترة الأولى على الأقل،
وإنما تغيَّرت الروح!

المشكلات في حياتنا، حجمها الحقيقي هو حجم نظرتنا لها،
ومدى استسلامنا، أو عزمنا على المواجهة،
كل شيء يأخذ حقيقته في داخلنا، الروح، الروح هي السِّر!
والروح لا أعني بها ذاك الشيء الغامض،
الذي بثه الخالق العظيم في أجسادنا،
فتحولت من جثث هامدة إلى أجسام تضج بالحياة!
وإنما أعني بها النفسيّة، الإيمان، النظرة، ومنظومة القيم التي نتبناها!

فقد الأحبة على سبيل المثال أليم، وما منا من أحدٍ إلا يوجعه فقد أحبابه،
الصالحون والطالحون على حد سواء، حتى الأنبياء وهم صفوة البشر،
إلا أنهم نهاية المطاف بشر!
وقد تألم نوحٌ عليه السَّلام لموت ابنه،
وبكى النبيُّ ﷺ خديجة بكاءً مُرّاً يوم ماتت،
كذلك فاضت دموعه يوم موت ابنه الرضيع إبراهيم!
ولكن الفرق بين المؤمن وغيره،

كامن في التسليم للّهِ بقدره إذا أراد أن يمضيه،
فتجد المؤمن يعرفُ أنها سُنة الحياة،
وأن الموت كأس دائرة سيشرب الكل منه،
وأن أقدار اللّه كلها خير وإن أوجعتنا،
وأن الحياة يجب أن تستمر،
أما من كان في قلبه نقص إيمان فيعيشُ في المصيبة ولا يطويها،
وهو قبل هذا متسخط متبرم،
فلا رضى المؤمن يعيد إليه أحبابه الذين ماتوا،
ولا سخط قليل الإيمان يعيدهم،
ولكن الروح هنا غير الروح هناك!

إذا أردتَ أن تحصل على فريق عمل ناجح،
فلا تهتم بالتعليمات وتُهمل النفسيات،
كثرة التعليمات تجعل الناس مجرد آلات،
أما الروح المُحِبَّة لما تقوم به تصنع الابداع!
يمكنك أن تطوِّع أولادكَ بالقوة،
وأن تجعل البيت كثكنة عسكرية، مبنية على الخوف،
تغيب إذا ما غابت الرقابة!
أما تطويع الناس بالحُب، يجعلك تملكهم حقاً من الداخل،
ومتى ما أحبّكَ الناس قدَّموا لكَ ما تُحب دون أن يشعروا أنهم مأمورون!

23

في كتاب «ترتيب المدارك» للفقيه المالكي القاضي عياض:

قال أبو بكر الأبهريّ:

دخلتُ مسجد طرطوس، وجلستُ عند ساريةٍ من سواريه،

فجاءني رجلٌ فقال لي:

إن كنتَ تقرأ فهذه حلقة قرآن،

وإن كنتَ مُقرئاً فاجلِسْ يُقرأُ عليكَ،

وإن كنتَ متفقهاً فهذه مجالس الفقه قُمْ إليها،

وإن كنتَ فقيهاً فاجعلْ لنفسكَ حلقةً وعلِّمْ الناس،

فلا أحد يجلسُ في مسجدنا دون شُغل!

هكذا كانت المساجد، مدارس في ظلال المحاريب،

وكُليَّات تحت جلال المنابر، وجامعات تحت هيبة القباب،

فقه، وحديث، وقرآن، ونحو، ولغة وأدب،

كل هذا في شموخ المآذن،

من المسجد الذي لم يكن فيه ضوء في المدينة المنورة خرج النور إلى العالم،

ومن تلك الحلقات عُقب الصلوات خرج الفاتحون وهزموا الإمبراطوريات،

مُذ صارت المساجد لا تُفتح إلا وقت الصلوات خسرنا الهدف من المسجد!

24

روى ابن عساكر في تاريخ دمشق، والمعافى بن زكريا في الجليس الصالح:

إن نُميراً المدنيِّ قال: جاء الخليفة المنصور إلى المدينة المنورة، ومحمد بن عمران قاضيها وأنا كاتبه،

فجاء رجال فاشتكوا الخليفةَ عنده!

فأمرني أن أكتب إليه كتاباً يأمره فيه بالحضور إلى مجلس القضاء، فقلتُ له: اِعفني من هذا، فإن أمير المؤمنين يعرفُ خطي!

فقال: اُكتبْ إليه! ثم احملها بنفسكَ إليه!

ففعلتُ، ومضيتُ إليه، وجعلتُ أعتذرُ من وزيره الربيع، وأشرح له موقفي، فقال: لا عليك، اُدخل بالكتاب على أمير المؤمنين!

فلما قرأ المنصور الرسالة فرحَ بها!

وقام من مجلسه، وأمر ألا يصحبه حرسٌ ولا شرطة،

وقال للربيع: إن رآني محمد بن عمران بهيئة الإمارة فلن يليَ لي القضاء بعد اليوم!

ولما دخلَ المنصور عليه، دعا بالخصوم،

وسمع من الخليفة، ثم قضى للخصوم على الخليفة.

فلما كان الليل، دعا المنصور بالقاضي ليحضر بين يديه،

فلما جاءه، ودخل عليه، سلَّم عليه بالإمارة.

فقال له المنصور: وعليكَ السلام ورحمة الله، جزاكَ اللهُ عن دينك، وعن نبيك، وعن خليفتك، وعن قضائك أحسن الجزاء!

ثم أمرَ له بعشرة آلاف دينار، فأخذها، ومضى من عنده!

بهذا الدِّين حكمنا البشرية قروناً، أقمناه في أنفسنا أولاً،
فأقامه اللّه تعالى في الأرض بنا!
لا شيء يقيم الدُّول كالعدل، ولا شيء يخربها كالظلم!
هذه قصة مليئة بالأبطال!
الرِّجال الذين جاؤوا يشتكون للخليفة أبطال لأنهم طالبوا بحقهم،
ولم يسكتوا عنه، والساكت عن الحق شيطان أخرس!
والقاضي الذي قبِلَ شكوى الرجال على الخليفة بطل،
لأنه قدَّم رضى اللّه على رضى الخليفة،
ولأنه أعملَ العدلَ، فساوى في القضاء بين الرَّعية والحاكم، ولم يُحابِ أو يتملق!
ووزيرُ الخليفة بطل، لأنه عندما علمَ مضمون الرسالة،
وأنها دعوى للمثول أمام القاضي، ولم يُعنِّف حاملها، ولم يحجبها عن الخليفة!
أما البطل الحقيقي فهو الخليفة!
لقد جاء إلى مجلس القضاءِ وهو مدَّعى عليه،
ولو رفضَ المجيء، أو عزلَ القاضي، ما استطاع أن يكلمه أحد!
وقد امتثلَ لحكم القاضي عندما أدانه، وعندما خلا بالقاضي أشاد به،
وكافأه على عمله، وبالنزول عند الحق يكبر الرجال!

إذا كان لأحدٍ حق عليكَ فليس عيباً أن تُؤديه، إن العيب الحقيقي ألا تفعل!

وإذا تبيَّن أنك مُخطئ، فمن مكارم الأخلاق أن ترجع للحق،

فما أهلكَ إبليس إلا الكِبر!

وإذا قامَ إنسان بعمله بضمير، فكُنْ معجباً بهذا العمل،

وأَشِدْ به ولو كان ضد مصلحتكَ الشخصيَّة!

الذي لم يقبل الواسطة التي جئتَ بها إنسان محترم، وليس يابس رأس!

والذي رفضَ أن يعطيكَ أكثر من حقك إنسان عادل،

وليس إنساناً لديه شيء شخصي ضدكَ!

قدِّرْ كل تصرفٍ نبيلٍ تراه، وكُنْ أصغرَ من الحقِّ إذا بانَ،

ومن أجمل ما قال الأوائل:

إننا لا نعرفُ الحقَّ بالرجال، وإنما نعرفُ الرجال بالحق!

25

في كتاب صياد الحكايات لإدواردو غليانو:
عندما احتلَّ الإنكليز أمريكا،
شخَّصوا أن نساء قبيلة «الإيروكيساس» من الهنود الحُمر،
يُثِرْنَ الرَّيبة بانحلالهنَّ الأخلاقي!
فقد كان لهنَّ آراءهُنَّ الخاصة، وممتلكاتهنَّ كذلكَ،
ويخترنَ أزواجهنَّ برضاهُنَّ، ولا يُجبرنَ على أحدٍ!
وكان لهُنَّ الحق في طلب الطلاق،
وكُنَّ يُمارسنَ التصويت في انتخابات القرية،
أما الغُزاة المتحضرون فكانوا يرون المرأة ملكية خاصة،
بعد مئات السنوات من هذه الحادثة،
صار ما كان يُسمى انحلالاً عند الهنود الحمر،
يُسمى ديمقراطية وحقوق الإنسان في أوروبا!
يبدو أن بعض الأشياء لا تتغير على ظهر هذا الكوكب البائس،
وأن أوروبا ستبقى دوماً هي أوروبا،
ما تراه وتعتقده، على العالم أن يراه ويعتقده، وما غير ذلك تخلف وانحلال،
منذ أربعين سنة، أربعين سنةٍ فقط، تخيلوا،
كان الشذوذ في أوروبا جريمة، وأدرجوه كذلك في قائمة الأمراض النفسية،
اليوم صار من يُعارض الشذوذ بنظرهم مريض يُعاني رهاب المثلية!

26

يُقال- ومن الحكمة عدم تصديق كل ما يُقال- إنه:
في العام 105 للميلاد اخترعَ «تساي لون» الورق،
بعد اختبارات كثيرة على لحاء شجر التوت،
نحن بفضل عبقريته نقرأ ونكتب بهذه السهولة،
ولكن في الصحيح عندنا أن إدريس عليه السلام هو أول من خطَّ بالقلم!
وقبل الميلاد بقرون طويلة كان الناس يكتبون على جدران الكهوف،
والكتابة المسمارية على ألواح الطين في بابل عميقة في الزمن،
وأوراق البردي في قبور الفراعنة تثبت أنه قد تم اختراع الورق قبل هذا بكثير،
وأياً يكن، فإن المعجزة ليست في جدران الكهوف،
ولا في ألواح الطين، وأوراق البردي، أو الجريد الذي كتبت عليه العرب،
الكتابة، الكتابة هي المعجزة!

27

في العام 1704، تقطعت السُّبل ببحار إسكتلندي يُدعى «ألكسندر سلكريك»،
على جزيرة مهجورة تبعد قرابة اربعمئة ميلٍ عند ساحل تشيلي.
كان كل ما بحوزته بندقية، وبعض البارود، وسكين، وبعض أدوات النجارة.
ومع استكشافه لدواخل الجزيرة،
لم يرَ سوى جَمّعٍ من الماعز الجبلي، والقطط، والجرذان،
وبعض الحيوانات التي لم يكن شاهدها من قبل!
قرر البقاء بمحاذاة الشاطئ، ونام داخل كهف،
ووجد من الطعام ما يكفيه باصطياد السمكَ،
واستسلم رويداً رويداً لاكتئاب عميق!
أدركَ أن البارود سينفد منه، وسكينه ستصدأ، وملابسه ستتمزق على ظهره!
لم يستطِع العيش على السمك فقط، وليس لديه ما يكفيه من المؤن،
والوحدة تسحقه، ليته جلبَ المزيد من الأغراض من سفينته!
وفجأة، غزت الفقمات الشاطئ، كان موسم تزاوجهم،
والآن أُجبرَ على الانسحاب إلى عمق الجزيرة.
هناك ليس بمقدوره صيد السمك بالرمح!
جلس يتأمل حاله، فاكتشفَ أنه يملك كل ما يحتاج،
إنه يحتاج خطة عمل لا أكثر!

بنى مجموعة أكواخٍ من الأشجار، وزرعَ فاكهة متنوعة،
وتعلم اصطياد الماعز، وجعل من القطط رفقة له،
وفكك بندقيته عديمة الفائدة، واستخرج منها أدواتٍ ينتفع بها،
وصنع ملابس من جلود الحيوانات،
بدا الأمر كأنه عاد إلى الحياة مرَّةً أخرى، وتخلص من الاكتئاب!

الفكرة أن الإنسان لا يحتاج أحياناً إلى موارد جديدة،
بقدر حاجته إلى عقلية جديدة، وخطة عمل جيدة!
ولنوسع الدائرة قليلاً، إن الفقر الذي تُعاني منه أغلب دولنا،
لا يعود إلى قلة الموارد، وإنما إلى سوء في الإدارة!
ويوسف عليه السلام لم يُجنِّب أهل مصر الموت جوعاً بموارد جديدة،
وإنما بإدارة جيدة للموارد المتاحة!

أعرفُ شخصاً يستدين المال دائماً،
والذين يستدين منهم رواتبهم أقل من راتبه!
ما استطاع أي من الدائنين توفير بعض المال،
إلا بحسن إدارة لمواردهم على قلتها،
وما غرق المدين تحت وطأة الدين إلا بسوء إدارته لموارده،
على كثرتها مقارنة بمواردهم!
كل كيان ليس فيه إدارة ينهار،
من البيت، إلى الشركة، إلى البلدية، إلى الوزارة، إلى الدولة!

كل كيان ناجحٍ في العالم وراءه إدارة ناجحة لا موارد كثيرة،
إفريقيا على سبيل المثال،
يُستخرج منها ما يزيد على تسعين بالمئة من ذهب هذا الكوكب،
ولكن بلدانها غارقة بالفقر،
بعض الذهب يسرقه المستعمرون، وبعضه يقتسمه الساسة الفاسدون!

28

في كتاب أبناء الأيام لغليانو:
كان أهالي «مونتيفيديو» يُخصصون أيام العطلة،
لنزهةٍ مفضلة لديهم،
كانوا يزورون السجن، ومستشفى المجانين،
كانوا بهذا يشعرون أنهم أحرار جداً، وعقلاء جداً!
إحدى مآسينا نحن البشر،
أننا لا نعرفُ قيمة النِّعم إلا بفقدها!
لا نُلقي للصحة بالاً، فإذا مرضنا فهمنا،
ننشغل عن الأحباء، فإذا فقدناهم بكينا،
في الخيام عرفنا معنى أن يكون للمرء بيت،
والغربة علمتنا أي شيءٍ مقدسٍ هو الوطن،
والذين أهالوا التراب على أمهاتهم،
تساءلوا صبيحة اليوم التالي: لماذا لم نكن نُقبل أياديهنَّ كل يوم؟!
فاللهُمَّ لا تُعلمنا قيمة النِّعم بفقدها!

29

روى الخطيب في تاريخ بغداد، والمزيُّ في تهذيب الكمال:
إن سهلَ بن محمدٍ السجستاني قال: وفدَ علينا عامل من أهلُ الكوفة،
لم أرَ في عُمَّال السلطان بالبصرة أبرع منه.
فدخلتُ عليه، فقال لي: من علماؤكم بالبصرة؟
قلتُ: الزياديُّ أعلمنا بعلم الأصمعيّ، والمازنيُّ أعلمنا بالنحو،
وهلال الرأي أفقهنا، والشاذوكيُّ أعلمنا بالحديث،
وأنا أُنسبُ إلى علم القرآن، وابن الكلبيِّ من أكتِبنا للشروط.
فقال لي: فإن كان الغد، فاجمعهم لي.
فلما اجتمعنا، قال: أيُّكم المازنيُّ؟
فقال: ها أنا.
فقال له: هل يجزي في كفارة الظِهار عتق عبدٍ أعور؟
فقال المازنيُّ: لست صاحب فقه، أنا صاحب نحو!
فقال: يا زياديُّ: كيف تكتب بين رجل وامرأةٍ خالعها على الثلث من مهرها؟
فقال: ليس هذا علمي، هذا علم هلال الرّأي.
فقال: يا هلال، كم أسندَ ابن عون عن الحسن البصريّ؟
فقال: هذا ليس علمي، هذا علم الشاذوكي!
فقال: يا شاذوكي، من قرأ ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾
فقال: هذا ليس علمي، هذا علم أبي حاتم!
فقال: يا أبا حاتم، كيف تكتب كتاباً إلى أمير المؤمنين تصِفُ

فيـه فقـر أهـل البصـرة،
وما أصابهم في ثمارهم هذا العام؟
فقال: لستُ صاحب بلاغة، أنا صاحب قرآن!
فقال لنا: ما أقبح الرجل يتعاطى العلم خمسين سنة لا يعرفُ إلا فناً واحداً،
حتى إذا سُئلَ عن غيره لم يعرف عنه شيئاً!
إنَّ عالمنا بالكوفة الكسائيَّ لو سُئلَ عن كل هذا لأجابَ!

لا يختلف اثنان أنه كلما تمكَّنَ المرءُ من أكثر من علم،
كان هذا أنفع له، وللناس الذين يتعاملُ معهم،
ولكن ليس كل الناس من يستطع هذا،
وليس فـي الأمـر سُبَّة أن يكـون المـرءُ ضليعـاً فـي مجـال واحـدٍ مـن العلـوم،
وعنده اطلاع ولو قليل على غيره،
لأن هذه الدنيا هي دار اختصاص بالدرجة الأول!

لماذا نريدُ من الجراح الناجح أن يكون عالماً بالمواريث؟
ولمـاذا نريـدُ مـن المتقـن للقـرارات العشـر أن يكـون حبـراً فـي علـم الحديـث،
ولماذا نريدُ من الميكانيكي الناجح أن يشرح لنا معلقة عنترة!
الناس منذُ وُلدوا يَحتاجُ بعضهم إلى بعض،
وأين المشكلة إذا كان المهندسُ لا يتقن الإعراب!

إن مختصاً واحداً في مجاله، أنفع للأمة من عشرات المطلعين على علوم شتى!

ثم إن العلوم والعقول أرزاق كالأموال تماماً،

وقد يفتحُ الله تعالى على عبدٍ في باب من العلوم، ويغلق عليه غيره،

والصحابة ما كانوا على مستوى واحدٍ من الفقه في كل المجالات،

أين المشكلة في أن يكون خالد بن الوليد رجل حرب لا يقرض الشعر،

ويكون حسان بن ثابت رجل شعِر ليس له في الحرب،

كل منهما خدم الإسلام في مجاله على أكمل وجه، ونال وساماً نبوياً رفيعاً!

هذا المعنى إنما علمنا إياه النبيُّ ﷺ حيث قال:

أرأف أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر،

وأصدقهم حياءً عثمان، وأقضاهم عليّ، وأفرضهم زين بن ثابت،

وأقرؤهم أبيٌّ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل،

ألا وإنَّ لكل أُمةٍ أميناً، وأمينُ هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح!

أين المشكلة في أن يكون أُبيٌّ أقرأ من زيد بن ثابت،

وأن يكون زيد بن ثابت أعلم بالفرائض من أُبيٍّ بن كعب؟!

هي مفتوحات وهبات،

وعمل المرء على تطوير نفسه في الموهبة التي أعطاه الله إياها،

هو أنفع له وللناس من أن يكون كحاطب ليل يجمع من هنا عصا من هناك عصا!

30

واجه الملاكم «جاك جونسون» أكبر عقبة في حياته،
عدم قدرته على كتمان غضبه!
كان أسود البشرة، وأمريكا في ثلاثينيات القرن العشرين مليئة بالعنصرية،
كان يستطيع هزيمة أي ملاكم أبيض بسهولة،
ولكن صراخ الجمهور لخصمه قائلين: اُقتلِ هذا الزنجي!
كان يصيبه بالجنون!
ثم قرر أن يضع حداً لكل هذا!
إنه لا يستطيع الانفعال داخل الحلبة لأن هذا قد يستفز الجمهور،
ويغذي الصورة النمطية عن الملاكم الأسود المنفلت!
وعلى الرغم من أن الملاكم يستمد طاقة من انفعالاته، ومن روحه القتالية،
قرر أن يهدأ!
لن يُظهرَ أي انفعالات داخل الحلبة،
وبعدما يغلب خصمه بالضربة القاضية، سيعود بهدوء إلى ركنه من الحلبة!
حاول الخصوم والجمهور أن يستفزوه كي ينفعل،
ولكنه قاوَم بنجاح، صنعَ قناعاً بارداً بملامح وجهه،
أخفى تحته كل هذا البركان بداخله،
حتى صار يُلقب بالرجل المحنط الذي ليس لديه أحاسيس!

العالم لن يتغيَّر في الخارج، على العالم في داخلك أنت أن يتغيَّر!
وشأن الناس دوماً أن يضغطوا عليكَ ليُخرجوا أسوأ ما فيكَ،
ثم يحاسبونكَ على ردة الفعل هذه، التي ما كان لها أن تكون لولا فعلهم،
ولكن ما دام ليس بإمكاننا أن نوقف استفزازهم لنا،
علينا أن نتوقف عن التفاعل مع هذه الاستفزازات،
لأن أغلب الأفعال في هذا العالم إنما تكتسبُ حجمها لا من مداها هي،
وإنما من مدى ردة الفعل عليها،
وللأسف الناس يستمتعون بردود الأفعال هذه، لهذا يقتلهم أن يتم تجاهلهم!

في المباراة النهائية لكأس العالم عام 2006، والتي جمعتْ فرنسا وإيطاليا،
حصلتْ فرنسا في بداية المباراة على ضربة جزاء،
وقف زين الدين زيدان ليسددها إلى المرمى الذي،
يحرسه أحد أفضل حراس المرمى على مرِّ التاريخ إنه العملاق «بوفون»،
ولكن زيدان فاجأ العالم كله بتلك الطريقة التي سدد بها ضربة الجزاء،
أرسلها بهدوء إلى سقف المرمى، مسجلاً أسبقية لفرنسا،
وضربة جزاء تُعَدُّ من أروع ضربات الجزاء في نهائيات كأس العالم!

في الدقائق التالية من المباراة كان «ماتيرازي» اللاعب الإيطالي الذي،

أوكل له المدرب «مارتشيلو ليبي» مراقبة زيدان،

يوجه إليه ألفاظاً عنصرية كلما سنحت له الفرصة بذلك،

وأخيراً طفح الكيل،

استدار زيدان نحوه وقام بنطحه في صدره، ليُطرد على الفور،

وتكمل فرنسا المباراة بدون أفضل لاعبيها على مر التاريخ،

ولتخسر بعدها البطولة بضربات الترجيح!

مقارنة بسيطة بين الفعلين،

تسديد ضربة جزاء بهذا الهدوء في مباراة نهائية لكأس العالم،

ونطح لاعب آخر بهذا الغضب،

يصعب التصديق أنهما صدرا من اللاعب ذاته، وفي مباراة واحدة!

ولكن في الحقيقة هذا ممكن الحدوث،

زيدان سدد ضربة الجزاء بهذا الهدوء،

لأن معركته كانت مع نفسه، لم يكن هناك أي عوامل خارجية،

باستثناء أهمية المباراة، والجمهور، وزيدان معتاد على هذا!

أما في موقف الطرد، فكانت معركة زيدان مع «ماتيرازي»،

وتلك معركة خسرها زيدان لأنه لم يتدرَّب على هذا الضغط العنصري،

لحظة واحدة من عدم السيطرة على النفس، أدَّت إلى خسارة اللقب!

كل ما كان يريده «ماتيرازي» هو أن يقوم زيدان بنطحه، ليتم طرده،
وللأسف أعطاه زيدان ما أراد!
كل الكلام العنصري الذي سمعه زيدان لم يكن له حجم،
ولكن ردة فعله هي التي جعلت للكلام حجماً وأثراً!

أعلمُ أننا نهاية المطاف بشر من لحم ودم،
وعندنا أعصاب قد تتلف تحت الضغط، وقدرة على التحمل قد نفقدها،
لا يستطيعُ المرءُ أن يكون لوح ثلج،
ولكن ردود الأفعال الغاضبة قد تكون وخيمة،
علينا أن نحاول السيطرة على أنفسنا!

31

في شهر أغسطس من العام 2004،
حدث حريق هائل في مركز تجاري،
في مدينة «أسونثيون» عاصمة الباراغوي،
ماتَ يومها ثلاثمئة وستةٌ وتسعون إنساناً،
كانت الأبواب مغلقة كي لا يهرب أحد دون أن يدفع الحساب!
هذا المال صار يُعبد وإن لم تُشيَّدْ له المعابد،
يُعبدُ في المستشفيات التي لا تُعالج إلا من يدفع،
ويُعبدُ في الجامعات التي لا تُدرّس إلا من يملك القسط،
ويُعبدُ في عادات الزواج، ومراسيم الموت!
العبادة ليست سجوداً فقط،
العبادة أحياناً تكون في أن تجعل شيئاً ما قبل وأهم من كل شيء!

32

يروي ابن القيِّم في كتابه القيِّم «مفتاح دار السعادة»،
إنَّ ابن عبَّاس قال: قالتْ الشياطين لإبليس:
ما لنا نراك تفرحُ بموتِ العَالِمِ ما لا تفرح بموتِ العَابِدِ؟
قال: انطلقوا معي!
فأتوا على عبدٍ في عبادته، فقالَ له إبليس: هل يقدرُ ربك أن يجعلَ الدُنيا في جوفِ بيضة؟
فقال: لا أدري!
فقالَ إبليس: أترونه كفرَ في ساعة؟!
ثم جاؤوا إلى عَالِمٍ في حلقته يُضاحكُ أصحابه ويُحدِّثهم.
فقالوا: إنا نريد أَنْ نسألكَ.
فقال: سلوا ما بدا لكم!
فقالَ له إبليس: هل يقدرُ ربك أن يجعلَ الدُنيا في جوفِ بيضة!
قال: نعم!
قالوا: كيف؟
قال: يقولُ لها كُوني فتكون!
فقالَ إبليس للشياطين: أترون، ذلك لا يعدو نفسه، وهذا يُفسِدُ عليَّ خلقاً كثيراً!

الأُمَّةُ محفوظةٌ بعلمائها، فَهُم درعها الحصين، وجبلها الراسخ،
خُذْ عندكَ مثلاً فتنة المعتزلة، وبدعتهم الشهيرة مسألة خلقِ القُرآن،

وما زادَ الطينَ بلةً أنَّ عقيدةَ الاعتزالِ وصلتْ إلى أهلِ الحُكم،
فكان المأمون والمُعتصم من دُعاتِها، وحملوا عليها النَّاس بالإكراه،
فقيَّدَ اللّٰهُ تعالى أحمد بن حنبلٍ ليحفظ به عقيدة المُسلمين!
ثبات رجلٍ واحدٍ، وقفَ في المناظرةِ كأنه جبل، واحتملَ الجلدَ بالسوط،
هو الذي حَمَى هذا الدِّين!

ليسَ تقليلاً من قيمةِ العِبادةِ والعُبَّاد، ولكن العابِد فرد والعالِم أُمَّة!
وصلاحُ الفردِ أو فساده لا يتعدَّى نفسه والدائرة الضيقة المُحيطة به،
أما صلاح العلماء وفسادهم فيترتبُ عليه صلاح الناسِ وفسادهم،
لأنَّ الناس إنَّما يقتدون بهم، وينظرون إلى ما يفعلون،
فإن أمسكوا، أمسكوا معهم، وإن خاضوا، خاضوا معهم!

عدلُ عمر بن عبدِ العزيز الذي نَعِمَ به المسلمون في ميزانِ عَالِمٍ هو رجاء بن حيوة،
أشارَ به على الخليفة، وثبَّتَه في الحُكم!
ورحيلُ التترِ عن بلادِ المُسلمين في ميزانِ عَالِمٍ هو العز بن عبد السلام،
وقفَ موقفَ حقٍّ، وقالَ كلمةَ حق!

33

تفاجأ الأوروبيون الذين اشتروا العبيد،
بظاهرة هروب هؤلاء العبيد منهم،
الطبيب الانكليزي «صاموئيل كارتوريت» تفرَّغ لدراسة هذه الظاهرة،
استنتج أخيراً أن هذا الهروب هو مرض خطير يعاني منه العبيد،
اسمه: هوس الهروب!
علم النفس رهيب في اختراع الأمراض،
تخيلوا أن القرف من الشذوذ اسمه «رُهاب المثلية»!
الإعجاب المفرط في الفن اسمه «متلازمة ستندال»،
الحُب من طرف واحد اسمه «الاضطراب الذهاني المشترك»،
تغير المشاعر بسرعة اسمه «متلازمة أليس في بلاد العجائب»،
عدم الإعجاب بمدينة باريس يسمى «متلازمة باريس»،
حُب اقتناء الكتب يُسمى مرض «ببلومانيا»،
الميل إلى العزلة وتجنب الناس يسمى «متلازمة ديوجانس»،
هذا العالم مجنون، يريدُ أن يأخذ الإنسان حراً ويبيعه عبداً،
فإذا ما هربَ كان مهووساً بالحرية،
ولستُ أدري من الذي يحتاج إلى علاج فعلاً،
الذي يستعبد الناس، أم الذي يرفض أن يكون عبداً؟!

34

في زمن شباب ليوناردو دافنشي، انحصرت المعرفة في أقسام جامدة،

فمن جهة سيطرتْ الفلسفة «السكولائية» التي،

تنطلق من معارف رسَّخها آباء الكنيسة، ومن مبادئ علم اللاهوت!

ومن جهةٍ أخرى كانت الفنون التي لا تُعتبر أكثر من حِرَفٍ بسيطة!

أما العلوم فلم تصل لدرجة مقبولة من التجريب،

وفي الهوامش وُجدتْ جميع أنواع المعارف المظلمة، أو فنون السحر!

كان دافنشي الابن غير الشرعي لكاتب عدل،

وبسبب هذا الوضع الاجتماعي القاتم، حُرِمَ من التعليم النظامي المعتاد،

وهو ما تحوَّل إلى نعمة عظيمة كامنة!

حيث تحرر عقله من كل التحيزات المسبقة،

وقوالب التفكير الجامدة المهيمنة وقتئذٍ.

وتدرَّبَ في مرسم الفنان الموهوب «فيركيو»،

وبمجرد شروعه تعلم حرفة الرسم، والتصوير الزيتي،

نشأتْ بذرة أدَّتْ إلى تشكل واحد من أعظم العقول في التاريخ!

إن التصورات المسبقة حول أمر من الأمور،

يضعنا في قالب قلما نستطيع الخروج منه،

العادات والتقاليد، الإعلام، القوانين، آراء الناس،
كلها أمور «تُقولبنا» من حيث لا ندري!
إنها تسلبنا الجرأة على التجريب إلا في الحد الذي تسمح به،
إنها جرأة المتاح والممكن فقط،
والإبداع متى ما كان مقيداً كان عاجزاً،
وأغلب المبدعين فكروا يوماً خارج الصندوق!

خلال عامه الأول في الجامعة، وصل «جورج دانتزيغ»،
مُتأخراً إلى الصف فوجد على السبورة مسألتين،
قام بنقلهما على دفتره وأخذهما إلى البيت مُعتقداً أنهما واجب منزلي،
وبعد عدة أيام قام جورج بالاعتذار من أستاذه لتأخره في إعادةِ الواجب،
الذي كان أصعب قليلاً من المعتاد!

أخذ المعلم الواجب من تلميذه دون أن يُعلِّق بكلمة واحدة حتى،
وبعد ستة أسابيع قام المعلم باستدعاء جورج إلى مكتبه،
وقال له: هذه المسائل لم تكن واجباً،
وإنما كتبتُها على السبورة كمثالٍ عن مسائل رياضية عجز العلماء عن حلها!
لقد اجتمعنا لمدة ستة أسابيع وناقشنا ما قمتَ به،
أهنئك يا بُني لقد قمتَ بحل المسائل حلاً صحيحاً!

بالإضافة إلى نبوغ جورج وذكائه،
برأيي أنّ هناك عاملاً مهماً جعله ينجح بحلِّ المسائل الرياضية المستعصية،
وهو انطلاقه من فكرة أن هناك حلاً لها!
أعتقد أنه لو وصل باكراً وسمِع أستاذه يقول هذه المسائل ليس لها حل،
لربما لم يكن لِيتحمّل عناء أن يُحاول حلها حتى!
ولكنه لما اعتقد أنها واجب، اعتقد أيضاً أن هناك حلاً بالضرورة، فأخذ يبحث عنه!

الفكرةُ من هذا، هو أن الاستعداد النفسيّ لفعل شيء ما،
هو عامل حاسم وهام في فعلِه،
لا يكفي أن نملك الاستعداد الجسدي فقط لفعل الأشياء!

والفكرة الأخرى أن جورج حاول حل المسائل دون علم مسبق أنه لا حلَّ لها،
كان في داخله يعرف أنه من الممكن حلها،
لهذا كان هو يحاول أن يجد حلاً يمشي في طريق الممكن،
ولكن لو كان في داخله قد عرف أنه يمشي في طريق المستحيل،
لما استطاع حلها، أو لعله لم يكن ليجرب حتى، لأنه سيكون ضمن قالب المستحيل!

35

في كتاب صفة الصفوة لابن الجوزي:
كان «فيض بن الخضر» مقبلاً على الغناء في أول حياته،
وقال: بينما أنا في غفلتي رأيتُ مريضاً مطروحاً في الطريق،
فدنوتُ منه، وقلتُ: هل تشتهي شيئاً؟
قال: نعم، أشتهي رُمَّاناً!
فجئته برمَّان ووضعته بين يديه،
فرفع بصره إليَّ، وقال: تابَ اللّٰهُ عليكَ!
فما أمسيتُ حتى تغيَّر قلبي، وأقبلتُ على اللّٰه!
لا تستصغِرْ عملاً مهما بدا في عينيك بسيطاً،
الأشياء بأثرها لا بقيمتها، بعمقها لا بسعرها،
وخذها عندكَ قاعدة: إنَّ اللّٰه عند المنكسرة قلوبهم،
عند المريض الذي لا يجد دواءً، والجائع الذي لا يجد رغيفاً،
عند اليتيم، والمسكين، والأرملة، والمقطوع من شجرة!
عند المفجوع بالفقد تواسيه، والمكسور الخاطر تربتُ عليه،
هناك تخرجُ الدعوات لكَ ملء القلب لا ملء الحنجرة!

36

روى الإمامُ البيهقي، عن الحاكم، إنَّ ابن سُريج القاضي،
دخلَ يوماً على الخليفةِ العباسي المُعتضد،
فدفعَ إليه الخليفة كتاباً يسأله عن رأيه فيه.
فلما قرأَ ابنُ سُريج الكتاب، وجد فيه كل رخصةٍ من كل مذهبٍ،
وكل زللٍ من أخطاءِ العلماء!
فقالَ له ابنُ سُريج: يا أمير المؤمنين، من جمعَ هذا الكتاب فهو زِنديق،
وجبَ جلده وحبسه!
فقالَ له الخليفة: ولِمَ؟
فقالَ له: إنَّ من أباحَ المُتعة لم يُبِح الغناء،
ومن أباحَ الغناء لم يُبِحْ معه آلات الطرب،
وإنَّ من جمعَ زلل العلماء ثم أخذَ بها لم يبقَ من دينه شيء،
وإنَّما كانَ له دين هوى، لا الدّين الذي جاءَ به النبيُّ ﷺ.
فأمرَ الخليفةُ بتحريقِ الكتاب!

ما قبضَ اللهُ تعالى نَبِيَّه ﷺ إلا بعد أن أتمَّ به شريعته،
وأرسى دعائم دينه،
ثم جاءَ الفُقهاءُ بعد ذلك، وأعملوا عقولهم وأفهامهم في هذهِ الشريعةِ،
شرحاً، وتبسيطاً، وتبويباً،

فهم لم يُضيفوا دِيناً وإنما أعانوا الناس على فهمه والعملِ به،
وَهُم نهاية المطاف بشر، والخطأ منهم وارد، ولا عصمة إلا
للأنبياء!
وحين يُخطئُ أصحابُ المذاهبِ في قياسٍ أو استنباطٍ ،
فلأجل أنَّ الأحاديث في ذلكَ الوقت لم تكُنْ قد جُمِعَتْ كما هو
الحال اليوم،
فربما غابَ عن أحدهم نص فقال بخلافه،
وما أجمل الإمام الشافعي حين قال: إذا صحَّ الحديثُ فهو مذهبي!
وإنَّ الذي يتتبعُ أخطاءَ الفُقهاءِ رحمهم اللّه،
ثم يجعل منها ديناً فما هو إلا كجامعِ قمامة،
تركَ أجمل ما في البيوت وأخذَ أقبحها!

الأسلمُ للدينِ أن يتخذَ المرءُ مذهباً من المذاهبِ الأربعةِ،
ويسيرَ عليه بما فيه، فهي مذاهب وضعَ اللّهُ تعالى لأصحابها
القبول في الأرض،
وتلقتها الأُمَّةُ بالاستحسانِ والعملِ مُنذُ أكثر من ألفِ سنة.

أما الترجيحُ والانتقاءُ فهو للمجتهدِ الذي توفرتْ فيه صِفات
الاجتهاد،
وعرفَ أصول الفقه، ومُصطلح الحديث،
وأتقنَ العربية، وعَلِمَ الناسخ والمنسوخ،

وللقضاة ينظرون في أيِّ شيءٍ أخف على الناسِ في فِقهِ المُعاملاتِ،
ممَّا اختلفَ فيه الفُقهاء وكانَ حلالاً كله،
أما أن يعمدَ الإنسانُ بنفسه إلى أقوالِ الفُقهاء،
وكُلما استيسرَ شيئاً جعله ديناً له، وكلما استثقلَ أمراً طرحه، فهذا
دينُ هوى!

37

في سير أعلام النبلاء للإمام الذَّهبيِّ:
أن «شبطون» مفتي الأندلس، وأحد تلاميذ الإمام مالك،
جاءه كتابٌ من أحد الملوكِ يسأله فيه:
كفَّتا الميزان يوم الحساب من ذهبٍ أم من فضة؟!
فكتبَ إليه يقول: من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه!
يسألُ الناس أحياناً عن تفاصيل هي علم لا ينفع وجهل لا يضر!
ولو كان يترتب عليها عقيدة أو عمل لأخبرنا بها اللّٰه سبحانه،
كالذي سأل الشَّعبيَّ يوماً، ما اسم زوجة إبليس؟
فقال له: هذا عرسٌ ما شهدناه!
تكلف لا طائل منه، وفضول مذموم!
ما نوع الشجرة التي كانت منها عصا موسى عليه السلام،
وكأنّ المعجزة في نوع الشجرة لا في قدرة اللّٰه تعالى،
وما أنواع الطيور التي ذبحها إبراهيم عليه السلام،
وكأن المعجزة في أنواع الطيور لا في إحياء الموتى!
وليس المهم أن نعرف كفتي الميزان من ذهب أو فضة أو خشب،
المهم أن نهتم بالأعمال التي ستوزن في الميزان!

38

في مرحلةٍ مبكرة من مسيرته الفنية،
بدأ المُخرج السويدي الكبير «إنجمان برجمان»،
يشعُر بعدم الرضا عن النتائج التي تحققها أفلامه،
ولا عن الأداء الذي يقدمه الممثلون الذين يعملون معه.
لذا قرر تجربة شيءٍ مختلف،
سيكتب سيناريو الفيلم، ويترك الحوار شبه مفتوح،
ثم يدعو ممثليه ليستحضروا طاقاتهم وتجاربهم في هذا المزيج!
بحيث يصيغون الحوار حتى يتناسب مع ردود أفعالهم العاطفية،
مما سيجعل السيناريو نابضاً بالحياة!
تطلبَ هذا أحياناً إعادة كتابة أجزاء من حبكة الفيلم،
ولكن هذا العمل الإضافي أعطى ثماراً مدهشة!
أحبَّ الممثلون هذه الطريقة، وشعروا أكثر بالاندماج والاشتراك،
وأرادوا العمل معه، وارتفعتْ حماستهم من خلال آداءاتهم التمثيلية،
وكل آداء أفضل مما فات،
حملتْ أفلامه إحساساً أكبر بالحيوية والاندماج من مجرد التمترس
حول نص سينمائي جامد،
وازدادتْ شعبية أعماله مع مُضيِّه أكثر وفقَ هذه الخطة!

ما فعله «برجمان» قديماً هو مبدأ حديث في الإدارة يُسمى «التفويض»،
بمعنى أن المسؤول عن العمل يضع الإطار العام له،

ويترك للعاملين حرية اختيار الوسائل، والآليات لتطبيق هذا العمل،
وهو مبدأ ناجح، يجعل العاملين يشعرون أنهم جزء من العمل،
لا مجرد آلات يُنفذون خطة أُعِدَّتْ لهم مسبقاً،
وهذا بالطبع لا يُلغي فكرة الرقابة الدائمة، والمتابعة الحثيثة من صاحب العمل،
بل بإمكانه أن يتدخل من وقت لآخر، لإبداء الرأي،
واقتراح التحسينات، مما يضفي على العمل روح الفريق!

وعمر بن الخطاب رضي اللّه عنه، على حزمه المعروف،
وعلى إمساكه بكل مفاصل الدولة بقوة، ومتابعته لأدق التفاصيل،
إلا أنه كان يميلُ كثيراً إلى مبدأ «التفويض» في الإدارة!
قال مرَّةً لمحمد بن مسلمة: إنَّ أكمل الرجال رأياً مَن إذا لم يكن عنده عهد من صاحبه، يعني المسؤول عنه، عملَ بالحزمِ، أو قال به!
وحين شرحَ له معاوية بن أبي سُفيان أسباب اتخاذه لمظاهر المُلك في بلاد الشام،
من الحاجب على الباب، ومن اتخاذ الحرس.
قال له: لا آمُركَ ولا أنهاك!
فتركَ له حرية أن يفعل ما يراه الأنسب!

وحين أرسل له أبو عبيدة بن الجراح يستأذنه في دخول الدروب لملاحقة العدو،
كتبَ إليه عُمر يقول: أنتَ الشاهد وأنا الغائب،
وأنتَ بحضرة عدوِّك، وعيونك يأتوك بالأخبار!

فتركَ له حرية تقدير الموقف بناءً على ما بين يديه من معلومات ومعطيات!

أرخوا أيديكم قليلاً، دعوا الذين يعملون تحت إمرتكم يتنفسون،
اِفسحوا لهم المجال ليبادروا، ويقرروا!
لكم حق الرقابة، والمتابعة، وهذا أيسر لكم وللناس!

39

في كتاب الطبقات للإمام السبكي:
جاء في ترجمة صلاح الدين الأيوبيِّ:
وكان رقيق القلب جداً،
وربما حلَّقَ على مدينة، وأحاط بها، فسمع بكاء النساء والأطفال فتركها!
أحبّ أسماء اللّهِ تعالى إليه اسم الرحمن،
وأحب عباده إليه هم الرَّحماء!
سُقيا الكلاب لا تُدخل الزُّناة الجنة،
ولكن اللّه تعالى غفر للبغيِّ بسقيا الكلب للرحمة في قلبها وقتذاك!
اِرْحَمُوا، تُرحَمُوا!
تغافلوا عن تقصير الزوجات فإنَّ عمل البيت شاق!
وتغافَلْنَ عن بعض الكماليات فالحياة قاسية، وشعور الزوج بالتقصير مريرة،
الابن في لحظة الرسوب يحتاج حناناً لا عقاباً،
ثم بعد ذلك تأتي خطة العمل، وتصحيح المسار،
والبنت بعد فسخ خطوبتها تحتاج عناقاً لا عتاباً،
ثمة لحظات تكون فيها أرواح الناس تزحف على الأرض،
مهما بدا للآخرين أن أجسادهم منتصبة،
ترفَّقُوا، تُوفَّقُوا!

40

يروي «محمد بن أحمد المقري» في كتابه «المختار من نوادر الأخبار»،
أنَّ المأمون العباسي أطلَّ يوماً من شُرفةِ قصره،
فرأى رجلاً في يده فحمة، وهو يكتبُ بها على جُدران القصر!
فقالَ لأحدِ غلمانه: انزِلْ إلى ذلك الرجل، فأمسِكْ بيده، واقرأْ ما كتبَ، وائتني به!
فنزلَ الغلامُ فأدركه، وقبضَ على يده، وقرأَ المكتوب، فإذا هو:

يا قصرُ جُمِّعَ فيكَ الشؤم واللؤم   حتى يُعشِشَ في أرجائكَ البُومُ
يوم يُعشش فيك البوم من فرحي   أكونُ أول من ينعاكَ مرغومُ

فقالَ له الغُلام: أَجِبْ أمير المؤمنين!
فقالَ الرجل: سألتك بالله لا تذهب بي إليه.
فقالَ له: إنه يرانا، اُنظُرْ إليه هناك!
فلما وقفَ بين يدي المأمون، قالَ له: ويلكَ! ما حَمَلَكَ على هذا؟
فقالَ له: يا أمير المؤمنين، إنه لا يخفى عليكَ ما حواه هذا القصر من مال،
وقد مررتُ به وأنا في غايةِ سُوءِ الحالِ من العطشِ والجوع،
ولي يومان ما أكلتُ ولا شربتُ!

فقلتُ في نفسي لو كانَ هذا القصرُ خراباً، لأخذتُ منه شيئاً وانتفعتُ به!
يا أمير المؤمنين أعزَّك اللّه، أما سمعتَ قول الشاعر:

إن لم يكُن للمرءِ في دولة امرئٍ نصيبٌ ولا حظٌّ تمنى زوالها
وما ذاك عن بُغضٍ ولا كراهةٍ ولكن يرى نفعه بانتقالها

فقالَ المأمون: يا غُلام، أعطِهِ ألف دينار، وأطعمه، واسقِهِ.
وقالَ للرجل: هذه لكَ كل سنة ما دامَ قصرنا عامراً بنا!

فُطِرَ الناسُ على النظرِ إلى حُكَّامِهِم،
فإن رأوهم في غنىً وهم في غنى شكروا،
وإن رأوهم في فقرٍ وهم في فقرٍ صبروا،
أما إذا رأوا العكس سخطوا، وما يلبثون أن يثوروا!
فإنَّ الظلمَ مُؤَذِّنٌ بخرابِ العمرانِ كما يقولُ ابن خلدون!
في عامِ الرمادةِ جاعَ الناسُ ولكن أحداً لم يتسخَّط على عُمر بن الخطاب،
لأنهم رأوه جاعَ كما جاعوا، وقد قرقعتْ بطنه وهو على المِنبر،
فقالَ لها مُخاطِباً: قرقعي أو لا تُقرقعي فلن تشبعي حتى يشبع فُقراء المُسلمين!

النَّاسُ مفطورون على حُبِّ أوطانهم وحُكَّامِهِم،
ولكن لهم حاجات وكرامات، فمتى لم يحصلوا على حاجاتهم، ولم تُراعَ كراماتهم،
انقلبتْ أحوالهم، وفسدتْ عليهم فطرتهم،
ما ينفعُ الجيشُ القويُّ المواطن الذي لا يجدُ رغيفاً،
والمشرد الذي لا يجد مبيتاً، والمريض الذي لا يجد سريراً في مستشفى،
الناس قبل أن يكونوا مُواطنين هم ناس، فاللّٰه اللّٰه في الناس!

41

في كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي:
كان «مندل بن علي» أشهر من أخيه «حبَّان»،
وأرسل إليه الخليفة المهدي ليأتيه،
فلما دخلا عليه، قال: أيكما مندل؟
فقال مندل- وهو الأصغر- هذا حبَّان يا أمير المؤمنينْ!
الأدب قبل العِلم، والتواضع قبل الشُّهرة!
الفهم قبل الشهادات، والأخلاق قبل كل شيء،
كل علمٍ لا ينعكس سلوكاً هو علم فارغ،
وكل شهادة لا تنعكس تواضعاً هي ورقة حاملها والجدار سواء!
كل ثروة تؤدي إلى التكبر فقر يستحق الشفقة،
وكل منصب يُؤدي إلى التعالي هو انحطاط،
شهادتُك، منصبك، ثروتك، قبيلتك، جنسيتك هي لك،
أما أخلاقك فهي للناس!

42

يروي الكاتب الأمريكي «رالف سيو» في كتابه «حِرفة السلاطين»،
أن ملكَ بلادِ فارس قديماً قد حكمَ على شخصين بالإعدامِ شنقاً!
وكان أحدهما يعرفُ مدى حُب الملكِ لحصانه،
فعرضَ عليه أن يُعلمَ الحصانَ الطيران في غضونِ سنة!
بدأَ الملكُ يتخيَّلُ نفسه مُمتطياً صهوةَ الجوادِ الوحيدِ الطائرِ في العالم،
ووافقَ على جناحِ السرعةِ على عرضِ الشخصِ المحكوم بالإعدام!
نظرَ السجينُ الآخرُ إلى صديقه، وهو غير مصدِّق، وقال له:
أنتَ تعلمُ أن الأحصنة لا يُمكن أن تطير،
فما الذي جعلكَ تقومُ بخطوةٍ مجنونةٍ كهذه؟
فقالَ له صديقه: ليس الأمر كما تقول، ولكني أعطيتُ نفسي أربع فُرص لنيلِ الحُرية!
فأولاً: قد يموتُ الملكُ
ثانياً: قد أموتُ أنا
ثالثاً: قد يموتُ الحصانُ
رابعاً: قد أعلمُ الحصانَ أن يطير!

وتُروى هذه القصة في تُراثنا العربي عن جُحا،
ولكن بتفاصيل مختلفة وإنَّما بنفسِ الفكرةِ العامةِ والمغزى!
عِشْ حاضركَ بسعادةٍ، واستمتِعْ بكلِّ لحظةٍ بين يديك الآن،

واترُكْ قلق الغد للغد، فربما يأتي هذا الغد ولا تكون فيه!
غير أن المتأمل بعينِ الفراسةِ في ثنايا القصةِ ليقع على مغزىً،
أعمق من عيشِ اللحظاتِ الآنية، ألا وهي مهارة اكتسابِ الوقت!
ما دامَ ملك فارس في القصة قد حكمَ على الرجلين بالإعدام،
فهذا سيتمُّ في غُضون أيام كما جرت العادة،
ولكن أحد الرجلين قامَ بمحاولةٍ ناجحةٍ، وهي أنه أكسبَ نفسه،
سنةً إضافيةً قد يُبدِّلُ اللّٰه فيها الأمور من حالٍ إلى حال!

تدورُ مُفاوضاتُ الهُدنةِ أو إيقاف الحرب بين الخُصومِ والمعاركُ
في أوجِها،
بل إن أشرس المعاركِ تدورُ أثناءَ المفاوضاتِ،
لأنَّ الطرف الذي يُحققُ نصراً أكبر على الأرضِ،
يفرضُ شروطاً أفضل على طاولةِ المُفاوضات،
وفي مراتٍ كثيرةٍ في التاريخ، كانت الوفودُ المُفاوِضَةُ،
إذا علمتْ ببدءِ تقدُّمِ قواتها على الخصومِ تُماطِلُ وتُناقشُ كل بند
من بنودِ إيقافِ الحرب،
وهي بذلك إنما تُعطي نفسها وقتاً لتحسينِ شُروطها ومكاسبها!

43

في كتاب إتحاف أعلام الناس لابن زيدان السجلماسي:
جاء في ترجمة إدريس الأنور الذي بنى مدينة فاس:
كان من أهل العلم، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر،
وكان شجاعاً مقداماً، باشرَ الحروب بنفسه، وأبلى فيها حسناً،
وقد تُوفيَ رحمه اللّه حين كان يأكل عنباً،
فشرقَ بحبَّةٍ منها، فماتَ من حينه!
إذا حضرت المنايا فلا تسأل عن الأسباب!
الشاعر «تربنادر» رماه أحد أصدقائه بحبة تين،
فاستقرَّتْ في حلقه، ومات!
والأديب «أسخيليوس» كان يجلسُ أمام بيته،
فوقعت على رأسه سلحفاة ومات،
كان نسر قد حملها وحلق بها عالياً فأفلتتْ منه!
والفنان «كالخاس» مات من الضحك وهو يسخر من العرافين،
الذين تنبأوا بموته في اليوم الذي قبله،
فلما عاش يوماً إضافياً، كذبَ العرافون، ولكنه مات!
وسائق السباقات «آلان ستايسي» اصطدم بوجهه عصفور،
وهو يقود بسرعة عالية، فانقلبت سيارته،
على أنه ليس أعجب من أن يموت خالد بن الوليد على فراشه،
ربما أن اللّه قضى أن سيوفه لا تُكسر!

44

روى «ابن كثير» في الجزءِ الحادي عشر من «البداية والنهاية»،
أن يوسف بن يعقوب القاضي، كانَ من أكابرِ العُلماء وأعيانهم،
ولَّاه المُعتضد العباسي قضاءَ البصرة، وواسط، والجانب الشرقي من بغداد،
وكانَ يوسف حازماً عادلاً، لا يرى كبيراً في الحق!
جاءه يوماً بعض خدم الخليفة، وأبدى الخادمُ غروراً،
ورفضَ أن يجلسَ مع خصمه لأنه من العوام!
فغضبَ القاضي، وقال: نادوا لي على أحدِ النخاسين،
أبيعه هذا العبد، وأرسلُ ثمنه إلى الخليفة!
فجاءَ حاجبُ القاضي، وأخذَ الخادم من يده، وأجلسه مع خصمه،
وقالَ له: هنا مكانكَ وإلا باعكَ!
فلما انفضَّ المجلس، عادَ الخادمُ إلى الخليفة، وبكى بين يديه!
فقالَ له المُعتضد: ما بكَ؟
فأخبره بالخبر، وكيف أرادَ القاضي بيعه.
فقالَ له الخليفة: واللّهِ لو باعكَ لأجزتُ بيعه، ولما استرجعتُكَ أبداً،
فخصوصيتكَ عندي لا تُزيل مرتبة الشرع، ولا حُكم القضاء،
فإنهما عمود السلطان، وقوام الناس!

وإنَّكَ في هذه القصةِ لا تعلمُ ممن تعجبُ،
من جرأةِ القاضي في الحق، وعدمِ محاباته خادم الخليفة رغم أنه

يعلمُ حظوته عنده،
أم تعجبُ من الخليفةِ الذي حفظَ هيبةَ القضاء، وفهمَ قيمته للحفاظِ على الدولة،
ولم يعتبر المسألة شخصية بينه وبين القاضي،
وإنَّما شدَّ على يده، وأيَّده في حُكمه على خادمه!
لا أحد يُحافظُ على هيبةِ القضاءِ إلا القُضاة،
ولا أحد يُريقُ ماء وجهِ العدالةِ إلا أهل العدالة!
ولا أحد يُقيمُ هيبة الدولة إلا رجال الدولة، ولا أحد يُزيلُ هيبتها إلا هم!

عندما يجعلُ الحاكمُ أمرَ القضاءِ فوقَ كل الناس،
لا يجرؤ أحد على انتهاكه،
وعندما يُنزِلُ الأحكامَ على فئةٍ دون فئة يستهينُ الناسُ بالقضاء،
وكما يكونُ الأمراءُ يكونُ الناس!
عندما جاءَ المُسلمون بكنوزِ كِسرى إلى المدينةِ المنورة،
قالَ عُمر بن الخطاب لعلي بن أبي طالب: إنَّ قوماً أدُّوا هذا لقوم أمناء!
فقالَ له علي بن أبي طالب: يا أمير المؤمنين،
رأوك عففتَ فعفُّوا، ولو رأوكَ رَتَعْتَ لرتعوا!

45

في البداية والنهاية لابن كثير:
كان «ابن الدهان» النحوي لا يغضب أبداً،
فتراهن جماعة مع واحد أنَّ له كذا وكذا إن أغضبه،
فجاء إليه وسأله، وأغلظَ عليه كثيراً!
فتبسم ابن الدهان، وقال له: إن كنتَ راهنتَ فقد غُلبتَ،
إنما مثلك في هذا كمثل البعوضة سقطت على ظهر الفيل،
فلما أرادتْ أن تطير، قالت له: اِستمسِكْ!
وليس من عجبٍ أن يأتي في صحيح البخاري،
أن رجلاً قال للنبيِّ ﷺ: أوْصِني،
فقال له: لا تغضب!
والرجُلُ يُرددُ أوصِني، والنبي ﷺ يقول له: لا تغضب!
أضعف ما يكون المرء أمام الشيطان وهو غاضب!
أغلب القتل حدثَ ساعة غضبٍ،
وأغلبُ الطلاق وقع ساعة غضب،
وحيواتُ بشرٍ كثيرين انقلبت رأساً على عقب في لحظة غضب،
فاحفظ أنتَ وصيَّة نبيِّك، ولا تغضب!

46

يروي «بلوتارخ» وهو فيلسوف ومؤرِّخ روماني،
في كتابه الشهير «السِّير المقارنة لعظماء اليونان والرومان»، قصةً يقول فيها:
عندما كانَ الملكُ «هيرو» يتكلمُ مع أحدِ أعدائه الأسرى، قال له هذا الأسير:
بالإضافة إلى كونك متعجرفاً، فإنَّ لكَ أنفاساً كريهةً أيضاً!
أرادَ الملكُ أن يتحققَ من هذا الأمر، وعندما عادَ إلى قصره، قالَ لزوجته بشيءٍ من التوبيخ: كيف لم تُخبريني أن رائحة أنفاسي كريهة،
كان يجب أن أعرف الأمر منكِ لا من الناس!
وكانتْ الزوجةُ سيدةً بسيطةً، عفيفةً، وغيرَ مُؤذية، فقالتْ له:
يا سيدي، كنتُ أظنُّ أنَّ أنفاسَ الرجالِ جميعاً لها نفس الرائحة!

لا تُغْلِقْ أُذنيك عن صوتِ أعدائك!
ثمة حقائق عن نفسك لا يُخبرك بها إلا العدو!
الأصدقاء يُحابوننا عادةً، ويحرصون على مشاعرِنا،
أما أعداؤنا فيدلوننا على عيوبنا، ومن المهم جداً أن يرى المرءُ نفسَهُ بعيونِ أعدائه!
عندما تقع الخلافات استمعْ جيداً لما يُقال لك،
لا شيء يكشفُ عن مكنوناتِ الصدورِ كالخلافات،

وقد قالت العرب قديماً: خفايا القلب تُظهرها فلتات اللسان!

وقد وعى الحُكماء منذ فجرِ التاريخ أهمية الأعداء!
الفيلسوفُ اليوناني «فلوطرخس» يرى أن الأعداء المتربصون للزلاتِ،
يُشجعوننا على الانضباطِ، والتنظيمِ، وحُسنِ إدارةِ الأمور!
لأن الشعور بالخطر يدفعنا إلى تقليلِ حدوثِ الأخطاء،
وسَدِّ الثغرات التي قد يتسلل منها الأعداء!
الأمرُ أشبه أن تعرفَ أن أحد المدعوين إلى مائدةِ الطعامِ عندك كثير الانتقاد،
هذا وإن كان شعوراً سيئاً بالنسبة لك، إلا أنه حافز لكَ أن لا تتركَ ثغرةً تُنتقدَ منها!
صحيحٌ أنه أمرٌ مُرهق أن يتعاملَ المرء مع أشخاص كل همهم أن يتصيَّدوا أخطاءه،
ولكن هذا مدعاة للانضباطِ مهما حاولنا أن نُنكرَ هذا!
وجودُ معارضة يدفعُ السلطة لتحسينِ أدائها،
والمُدرِّس الشديد يجعلك تستعد بجديةٍ لامتحانه،
ثمة قدرات كامنة فينا نحن مدينون بإظهارها للذين يُلاحقون عيوبنا!

47

في الطبقات لابن سعد:
كان الإمام «الشعبيُّ» ضئيلاً نحيفاً،
وكان وُلِدَ هو وأخ له توأمان في بطن،
فقيل له: يا أبا عمرو، ما لنا نراكَ ضئيلاً؟
فقال: إني زُوحِمْتُ في الرَّحم!
وعلى ما يبدو أن كل زحام يؤدي إلى نقص ما!
في كل سباقٍ مع أحد أنتَ تخسرُ شيئاً منكَ،
ذاكَ أن سرَّ اللعبة أن تسعى لتكون غداً،
أفضل من نفسك اليوم، وليس أفضل من غيركَ!
كل زحام في الرزق مفسدة للقلب،
وكل غَيْرةٍ تجعَلُكَ تغلي!
وكل إهانةٍ تأكلكَ من الداخل،
فيا لسعد كل من رأى زحاماً فهربَ بنفسه منه!

48

روى الذَّهبي في رائعته سير أعلام النبلاء:
أن الفرنجة لما نزلتْ دمياط، ما زال نور الدين زنكي،
عشرين يوماً يصوم ولا يُفطر، إلا على الماء!
فضعُف جسمه، وكاد يتلف، وكان مُهاباً،
ما يجرؤُ أحد أن يقول له: ترفَّقْ بنفسك!
فرأى شيخه يحيى النبيَّ ﷺ في المنام،
وقال له: يا يحيى بشِّرْ نور الدِّين برحيل الفرنجة عن دمياط!
فقال يحيى: يا رسول الله، ربما لا يصدقني!
فقال له النبيُّ ﷺ: قُلْ له بعلامةِ يومِ حارم!

ومعركة حارم هي حرب طاحنة جرتْ بين جيش المسلمين، بقيادة نور الدين زنكي،
ضد تحالف الصليبيين في طرابلس، وإنطاكية، والأرمن، والإمبراطورية البيزنطية!
ونصر الله يومها المسلمين نصراً ساحقاً.
فلما صلُّوا الصُّبح، قال يحيى لنور الدين: أُحدِّثك أم تحدثني؟
فقال له نور الدين: حدِّثني أنتَ!
فقال له: يُبشِّرك النبيُّ ﷺ برحيل الفرنجة عن دمياط بعلامة يوم حارم!
فما علامة يوم حارم؟

فقال له نور الدين: لما التقينا العدو، خِفْتُ على الإسلام، فانفردتُ بنفسي،
ومرَّغْتُ وجهي على التُراب، وناجيتُ ربي قائلاً:
يا سيدي ومولاي، من عبدك الفقير نور الدين، الدِّينُ دِينُك، والجُندُ جُندُك،
وهذا اليوم اِفعلْ ما يليقُ بكرمك!

يقول النبيُّ ﷺ: لا يبقى بعد النبوة إلا المُبشِّرات.
قالوا: يا رسول الله، ما المبشِّرات؟
فقال: الرؤيا الصالحة، يراها الرجل أو تُرى له!
ولقد ابتُلِيْنا في هذه الأيام بصنفين من الناس، كلاهما أنزل الرؤى غير منزلها،
صنف أول عاشَ في الأحلام وهجر الواقع،
فكان فيها مهووساً، أوقف حياته وعمره عليها،
وصنف آخر أنكرها جملةً وتفصيلاً!
والحق لا في هؤلاء ولا هؤلاء، إنما في وسطية ليس فيها مغالاة ولا إنكار،
وإنني لا أدري كيف يُنكر الرؤى من قرأ القرآن وعرف أحداث سورة يوسف،
أو وحي الله لإبراهيم عليه السلام بذبحِ ابنه، ورؤيا الأنبياء وحي دوناً عن الناس!

ولكن بالمقابل إن يوسف عليه السلام لم يحبس نفسه في رؤيا
سجود الكواكب،
لقد عاش حياته كأنه ما شاهدَ ولا رأى،
تصدَّر المشهد السياسي كله، ووضع خطة عبقرية للنجاة من
القحط،
في سبعٍ عِجافٍ لم تشهد مصر من قبل مثلهن، ثم تحققت الرؤيا!
فلا نعيش في الأحلام، ولا ننكرها، وإنما ننزلها منزلتها،
التي قال عنها النبي ﷺ: مُبشِّرات! مُبشِّرات فقط!

49

في مسند الإمام أحمد:

ماتَ «لأم قيس بنتُ محصن» ابن صغير،

فجزعتْ عليه، وقالتْ للذي يُغسِّله:

لا تغسل ابني بالماء البارد فتؤذيه!

إنها الأمُّ ولا غرابة،

الحُب الوحيد في هذا العالم دون مقابل،

والعطاء الوحيد دون انتظار السَّداد!

إنها الأم، جنّة اللّهِ على الأرض،

فردوسه الدنيويُّ الذي لا ينتمي إلى هذا العالم،

شيء من الملائكيَّة في داخل إنسان،

شيء من الدفء في عالمٍ بارد الأحاسيس،

مراحٌ ومُستراح، صفاء ونقاء، طُهّرٌ وخير،

واللّه أحنُّ وأرحم!

50

أُقيم كأس العالم سنة 1938 في فرنسا،
وفي ثمن النهائي تعادل منتخبا كوبا ورومانيا ثلاثة مقابل ثلاثة،
مما اقتضى إعادة المباراة بعد أربعة أيام، إذ لم تكن الفيفا قد أقرّتْ بعد،
تمديد الوقت، والاحتكام إلى ضربات الجزاء الترجيحية إذا ما استمرَّ التعادل!
وفي مباراة الإعادة طلب حارس مرمى كوبا «بنيتو كارباخاليس»،
من مدربه أن يُشرك مكانه الحارس البديل «خوان إيرا»،
لأنه مضطر للتعليق على المباراة لعمله صحفياً في إذاعة رائدة آنذاك!
وبالفعل علَّقَ كارباخاليس على المباراة، وحرس إيرا المرمى،
وفازت كوبا بهدفين لهدف!
وفي نصف النهائي أمام السويد، عاد كارباخاليس لحراسة مرمى المنتخب الكوبي،
لأن الإذاعة كانت في عطلة يومها، وخسرت كوبا تلك المباراة بثمانية أهداف،
لتطلق جماهير كوبا يومها السؤال التاريخي: لماذا
لم تبقَ في المقصورة؟!

برأيي- الصحيح طبعاً- أن الذي يتحمل هذه النتيجة ليس الحارس وإنما المدرب،

فقد كان عليه أن يستبعده من صفوف المنتخب لمجرد ذهابه للتعليق على المباراة،

وترك المرمى للحارس البديل، لأن الأوطان لا تُخدم وقت الفضاوة!

ولأن الذي يُقدم مصلحته الشخصية على مصلحة وطنه،

لا يستحق أن يحرس مرماه!

الأمر بهذه البساطة، ودون تعقيد أو فلسفة!

على أنه علينا أن نعترف أن الكثيرين من سكان هذا الكوكب،

الذين تجاوزوا الثمانية مليارات منذ أسابيع،

يعملون وفق نظام الفضاوة!

بل وينتظرون أن يبقى المكان شاغراً بانتظارهم ريثما يعودون،

بل وتراهم إذا ما تم استبدالهم يصفون الآخرين بعدم الوفاء،

وهذا الوصف يتنافى مع نظام الفضاوة،

فلو أن أحدهم تأمل في لحظة- من لحظات فضاوته طبعاً- لاكتشف،

أنه ما من شخص في هذا العالم إلا ويمكن

استبداله والاستغناء عنه،

وما لا يمكن الاستغناء عنه يمكن تعويضه،

وما لا يمكن تعويضه يمكن التعايش بدونه،

فالناس فرصٌ أيضاً ولا أحد يبقى متاحاً إلى الأبد!

وقد يسأل أحد ما فيقول: ما علاقة الحارس الذي أخذ إجازة بالفضاوة؟
والإجابة -بعون اللّه- أنه لا يوجد علاقة، وإنما أوجدتُ بينهما
علاقة من باب الفضاوة!

51

في كتاب الكواكب الدراري للإمام الكرماني:
جاء في ترجمة سعد بن عبادة رضي اللّٰه عنه:
كان من فضلاء الصحابة، ودهاة العرب،
ولم يكن في وجهه لحية، ولا شعرة،
وكانت الأنصار تقول: وددنا أن نشتري لحيةً لسعد بأموالنا!
كانت العربُ ترى العمائم واللحى من المكارم،
وعن العمائم قالوا: العمائم تيجان العرب،
وعن اللحى كانت أُمنا عائشة تقول: سبحان من زيَّن الرجال باللحى،
وهي من سُنن الفطرة في الرجال،
وأمرَ النبيُّ ﷺ بإطلاقها،
وليس بين الأنبياء حليق لحية!
فعندما غضبَ موسى عليه السلام من قومه أمسك بلحية أخيه
هارون عليه السلام،
﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾،
هي هيئة الأنبياء، فتشبَّهوا!

52

روى العلامة «ابن كثير» في رائعته «البداية والنهاية»،
طائفة من الأخبار عن أكلاتٍ قتلت أصحابها!
فذكرَ أن الإمام مسلم صاحب الصحيح، أشكلَ عليه حديث نبوي شريف،
فحبس نفسه في غرفته، ومنع أهله من الدخول عليه،
كي لا يشغله أحدٌ عما هو فيه،
وكانت عنده سلة تمرٍ أُهدِيَتْ إليه، فكان طوال ليله يأكل تمرةً بعد تمرة،
حتى أتى على السلةِ كلِّها، فمرض بسبب هذا ومات!
وقد قرأتُ في كتابٍ آخر أنه رحمه اللّه كان يُعاني من مرضِ السُّكري،
ويبدو أنه لم يكن يعلم بسبب وضع الطب قديماً!

وقد أكل فقيه الأندلس الشهير، «بَقِيُّ بن مَخلد» لقمة هريسة، فإذا هي حارَّة، فصاح صيحةً عظيمة، ثم أُغمِيَ عليه إلى وقت الظهر،
ثم أفاق، ثم لم يزل يشهد أن لا إله إلا اللّه، إلى أن ماتَ في وقتِ السَّحَر.

سبحان من جعلَ لكل أجلٍ سبباً،
وسبحان من لم يقصر حسن الخواتيم على الموت سجوداً،
فالإمام مسلم وبَقِيّ بن مخلد أفنيا عمريهما للّه، علماً وعبادة،
مسلم الآن يتفيأ في قبره بظل الصحيح،
تجري عليه حسنات جارية في كتابٍ وضعه من قلبه،
فوضع اللّه تعالى له القبول في الأرض.
وبقي بن مخلد جاء مشياً من الأندلس إلى بغداد، ليتتلمذ على يد الإمام أحمد،
ثم عاد حاملاً الحديث النبوي الشريف إلى الأندلس،
فكان إمام السُّنَّة هناك، وشمس الدنيا!
نحسبهما كذلك ولا نزكي على اللّه أحداً من خلقه!

نعم نستبشر بمن ماتَ ساجداً،
أو بمن خرَّ ميتاً بعد لحظةٍ من صدقةٍ وضعها في يد فقير،
وبمن كان على منبره يُحبب الناس باللّه ثم فاضتْ روحه،
وبمن ماتَ في سبيلِ اللّهِ مقبلاً غير مدبر،
وكل خلية فيه تقول: اللهم خذ من دمي حتى ترضى!
ولكن لا ننسى أن أبا بكرٍ مات على فراشه وهو خير الناس بعد الأنبياء،
وخالد بن الوليد مات على فراشه أيضاً، وهو الذي أفنى عمره يذود عن لا إله إلا اللّه!
إنَّ القضية لم تكن يوماً كيف ماتَ فلان وإنما كيف عاش!

53

في كتاب الكامل لابن عَدِيّ:
كان «إسحاق بن حسين» مقيماً في مكة،
وكان يدفعُ إلى الخراسانيين دراهم ليلعنوه!
فسُئِلَ عن ذلك،
فقال: حتى أشتهر في الدنيا!
الشُّهرة مرض هذه البشرية في كل العصور ولكن الوسائل تتغير!
بعضهم يُقدِّم المحتوى التافه لأجل أعداد المشاهدات،
وأخرى ترقصُ في «التيك توك» ليتناقل الناس رقصها،
وآخر ينتقد البخاري ليُقال عنه: هذا التيس الذي نطح الجبل!
بل صار الحجاب يُخلع فقط ليُقال عن صاحبته متحررة!
هي التفاهة نفسها وإن اختلفت صورها،
وقديماً بال رجلٌ في ماء زمزم فانهال الناس عليه ضرباً،
فخلصته شرطة الحرم منهم بأعجوبة،
ولما مثلَ بين يدي الأمير قال له: قبَّحكَ الله، لمَ فعلتَ هذا؟
فقال: ليُشار إليَّ ويُقال: هذا الذي بال في بئر زمزم!

54

بمساعدة أُسرة «بوجيو» أصبحَ «كاستروشيو» الجندي الشاب،
الحاكم الأوحد لمدينةِ لوكا الإيطالية.
لم يَرُقْ لأُسرةِ «بوجيو» أن ينسى «كاستروشيو» فضلهم عليه،
للوصولِ إلى سُدَّةِ الحُكم، لهذا استغلُّوا خروجه
بالجيشِ لقتالِ فلورنسا،
العدو اللَّدود لِلوكا، وقاموا بثورةٍ في المدينة، وأمسكوا بمقاليدِ الحُكم،
وقتلوا الحاكم الذي عيَّنه «كاستروشيو» خليفةً له ريثما يعود!
في تلك الليلة جمعَ «ستيفانو» الرجل الحكيم من أسرةِ «بوجيو» عائلته،
وأخبرَهم أنهم قد ارتكبوا حماقة ستُودي بهم جميعاً إلى حبالِ المشانق،
«فكاستروشيو» سيرجعُ بالجيشِ عما قريب، ولا قِبَلَ لهم به.
واقترحَ عليهم أن يُلقوا الأسلحة ويُرسلوه مُوفَداً إلى «كاستروشيو»
عندما يعود.
وبالفعل وافقتْ العائلةُ بالإجماعِ على هذا الاقتراح، ووضعتْ ثقتها
في الحكيمِ «ستيفانو».
سمعَ «كاستروشيو» بالإنقلاب، فعادَ على جناحِ السُرعة،
وعندما صارَ على مشارفِ المدينة، خرجَ إليه «ستيفانو» وأخبرَه
بندمِ العائلة،
وكيفَ أنه قد اقترحَ عليهم أن يكون وسيطاً لهم عنده لتجنُّبِ سفك
الدماء!
شكرَ «كاستروشيو» الحكيم «ستيفانو» على دوره، وقبلَ منه عرضه للصفح،

وكبادرةِ حُسنِ نيةٍ منه، دعا أفراد عائلة «بوجيو» إلى مأدُبةِ عَشاءٍ في القصر.
وفي الليل عندما حضرَ الجميعُ، وجلسوا على مائدةِ الطعام، أصدر «كاستروشيو» أمره لجنوده بقتلِ جميعِ أفرادِ عائلةِ «بوجيو» وأولهم «ستيفانو»!

قالت العربُ قديماً: المُلْكُ عقيم!
وهم يقصدون بهذا أن الحاكم لا يقبل أن يُنازعه أحدٌ سُلطانه،
ولو كان من أقربِ الناسِ إليه،
وشاعَ في التاريخِ أن يقتلَ الملوك أقرباءَهم الذين نافسوهم الحُكم،
أو دون أن يُنافسوهم خشيةَ أن يفعلوا!

قديماً وطَّدَ أبو مُسلمٍ الخراساني الحُكم للعباسيين،
وبموتِ أبي العباس السفاح ومجيء أبي جعفر المنصور،
تنامى نُفوذُ أبي مُسلم حتى كان يُرى أنه خليفة آخر، يحكمُ بأمره لا بأمرِ الخليفة!
لهذا عزمَ المنصورُ على قتله، ولكنه أرادَ أن يستشيرَ خاصَّتَه في الأمر،
وكان أول من استشارَه سَالم بن قُتيبة بن مُسلم الباهلي،
فقال له: ما ترى في أمرِ أبي مُسلم؟
فقالَ له: يا أمير المؤمنين، يقول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾!

فقال له المنصور: حسبُكَ يا ابن قُتيبة، لقد أودعتَ رأيكَ أُذناً صاغية!

فقتلَ المنصورُ أبا مُسلمٍ، واستفردَ بالحُكمِ بلا رجل قوي يُنازعه فيه!

قديماً قرَّرَ الدوق «وو» حاكم إقليم تشينغ في الصين،
أن يستوليَ على مملكةِ «هو». لم يُخبرْ أحداً بخطته،
وأبقى الأمر طيَّ الكتمان، ولمزيدٍ من التضليلِ زوَّج ابنته لحاكمِ مملكةِ «هو»!
وفي اجتماعٍ على مُستوى عالٍ سألَ الدوق «وو» وزراءه قائلاً:
إنني أفكرُ في حملةٍ عسكريةٍ كبيرةٍ، فأي بلدٍ يجب أن نغزو؟
قال أحد وزرائه: بالطبع يجب أن نغزوَ مملكةَ «هو»،
لديها ثروات ضخمة، وجيشها أضعف من جيشنا!
تظاهرَ الدوق بالغضب، وثارتْ ثائرته، وقامَ بإعدامِ الوزيرِ الذي، أشارَ عليه بغزو مملكة صهره العتيد!
عندما سمعَ ملكُ «هو» بما فعلَه والدُ زوجته اطمأنَّ له،
ولم يتخذْ أي تدابير أمنية لحمايةِ المملكة.
وبعد شهرٍ من هذه الحادثةِ هاجمتْ جيوش الدوق «وو» مملكة «هو»،
واحتلَّتْها، وقامَ الدوق بإعدامِ صهره الملك،
وقال لابنته: إنها السياسة يا عزيزتي!

إنها السياسة فعلاً، وإذا أردتَ أن تفهمَها فاقرأ كتاب الأمير لميكافيللي،

فهو وإن كانَ أحقر كتابٍ على وجهِ الأرضِ،
إلا أنه للأسف أكثر الكُتب وصفاً للواقع، وهذه بعض أقواله في الكتاب:

1. الدينُ ضروري للحكومات، لا من أجلِ الفضيلةِ ولكن لفرضِ السيطرةِ على الناس!
2. إذا كان لا بُد من أذيةِ أحدٍ، فَلْتُؤذِهِ بقسوةٍ لا تجعلك تخافُ انتقامه!
3. ليس للسياسةِ علاقة بالأخلاق!
4. من الأكثر أماناً أن يخافَكَ الناسُ على أن يُحبوك!
5. إذا أردتَ أن تقضيَ على مُنافسيك، وأن تُبرزَ قوتك، اِصنعْ انقلاباً وقُمْ بالقضاءِ عليه!
6. الأميرُ العاقلُ ينبغي له حين تُواتيه الفرصة أن يُثيرَ العداوة بدهاء، حتى يزيدُ بهزيمتِها من عَظَمَةِ نفسه!
7. يجب على الأُمراء تفويض المهام الصعبة للآخرين، والحفاظ على المهام المحبوبةِ لأنفسِهم!
8. من يُصبح حاكماً لمدينةٍ حُرةٍ ولا يُدمرها، فليتوقع هو أن تُدمرَهُ هي!
9. على الأمير أن يخشى كل خُصومه، وكثيراً من أصدقائه، ومُعظم رعاياه!
10. لا يفتقر الأميرُ أبداً للأسبابِ لكي يكسر وعوده!

55

في كتاب الحطة في ذكر الصحاح الستة لصدِّيق حسن خان:
قيل لشيخ شيوخنا، محمد بن علي بن محمد الشوكاني:
أما تشرحُ صحيح البخاري كما شرحه الآخرون من العلماء؟
فقال: لا هجرة بعد الفتح!
يعني أنه لا يمكن لأحد أن يضيف فوق ما أضافه ابن حجر في فتح الباري!
ثمة كتب قد بلغتْ ذروة الكمال في مجالها، والكمال للّهِ،
فلا فائدة من تكرار ما قاله الآخرون،
المسمى لا يحتاج إلى تسمية، والمؤكد لا يحتاج إلى تأكيد!
وثمة أشواط قُطِعَتْ في مضمار حتى بلغتْ نهاية السباق،
فخُذْ ما قاله الواصلون ووفِّرْ على نفسكَ عناء الركض!
حدثَ أن خالفَ ابن تيمية المذاهب الأربعة في بعض المسائل،
ولكنه أبقاها مسائل ولم يصنع له مذهباً!
حيث لا يمكنكَ أن تُضيفَ، خُذ!
وحيث لا يمكنك أن تستدرِكَ، انْهَلْ،
الواصلُ والمُقتدي به شركاء في الأجر!

56

روى «ابن القيم» في كتابه مفتاح دار السعادة، عن الإمام الشافعي أنه قال:

خرجتُ إلى اليمن في طلب كتب الفراسة، حتى كتبتها وجمعتها،

ثم لما كان انصرافي مررتُ في طريقي برجلٍ،

أزرق العين، ناتئَ الجبهة، لا لحية له، وهذا أخبث ما يكون في الفراسة!

فقلتُ: هل من منزلٍ عندك؟

فقال: نعم.

فرأيتُ أكرم رجل، بعث إليَّ بعشاءٍ، وطِيبٍ، وعلفٍ لدوابي، وفراشٍ ولحاف!

فجعلتُ أتقلبُ طوال الليل، وأقول: ما أصنعُ بهذه الكتب؟

فلما أصبحتُ، ذهبتُ إليه مُوَدِّعاً وقلتُ:

إذا مررتَ بمكة، فاسأل عن محمد بن إدريس الشافعي.

فقال لي: أمولى لأبيك أنا؟

فقلتُ: لا.

فقال: فهل كان لكَ عندي نِعمة؟

قلتُ: لا.

قال: فأين ما تكلَّفتُ لكَ البارحة؟

قلتُ: وما هو؟

قال: ثمن المبيت، والطعام، والطيب، والعلف، والفراش، واللحاف؟

فدفعتُ إليه المال وقلتُ له: هل بقيَ لكَ شيء؟

فقال لي: امضِ أخزاك الله، فما رأيتُ شراً منك!

كلنا التقينا بأشخاصٍ أنكرتهم قلوبنا أول مرةٍ،
فلما عاشرناهم رأينا منهم خيراً كثيراً،
وكم من محبةٍ جاءت من بعد عداوة،
أو على الأقل من بعد موقفٍ فيه سوء تفاهم.
فإن كان من درس لهذا الذي مررنا فيه، فهو ألا ننساقَ وراء انطباعنا الأول!
ولكن بالمقابل أنا ضدَّ أن ننكر انطباعنا الأول،
كثيرة هي المواقف التي أنكرت قلوبنا أصحابها،
ولكننا تجاهلنا هذا التحذير، فتبيَّنَ لنا أن القلب في أحيانٍ كثيرة يقول الحقائق،
وكأن له قدرة حباه إياها خالقه ليكون جهاز إنذار مبكر!
صدِّقوا تلك الأشياء التي تقولها قلوبكم دون وسوسة،
في الغالب إن ما يقع في قلبك أولاً هو الحقيقة!

57

في كتاب امتزاج النفوس لأبي عبد اللّه التميمي:
ليس في جميع الطيور أوفى من القِمريّ والقِمريَّة،
وذلك أنه إذا ماتَ أحد الزوجين، تعزَّبَ الآخر بعده،
ولا يأنس إلى غيره، ولا يألف رفيقاً ولا سكناً،
ولا يزال باكياً فرداً إلى أن يلحق به!
إنَّ الأحبة لا يموتون وإنْ قيل إنهم ماتوا،
ولكن على الجروح أن لا تُنكأ كل يوم!
والضغط على مواطن الألم موجع ولا يُفيد،
وسبحان من جعل بعض الناس عوضاً عن بعض،
وفي بعض الرفقة عزاءً عن آخرين،
أما القلوب فتلكَ عوالم أُخرى من دخلها فلن يخرجَ منها أبداً،
تزوَّج النبيُّ ﷺ إحدى عشرة امرأة بعد خديجة،
أحبَّهُنَّ، وأكرمهُنَّ، واحترمهُنَّ،
ولكن ظل حتى آخر عمره يقول: واللّهِ ما أبدلني اللّه خيراً من خديجة!

58

يقولون: إنه وُلدَ مقلوباً، خرجتْ القدمُ التي يُسدد بها أولاً،
كان كأنه يقول للعالم: أنا قادم!
هذا ما يحكونه عن «بونيبيرتي» هداف الدوري الإيطالي عام 1949،
كان يلعب لفريق السيدة العجوز جوفنتوس، الذي كان يدفعُ له بقرةً
مقابل كل هدفٍ يُسجله!

هي الموهبة، لا شيء يمكنه أن يُفسر هذه البراعة،
سوى أنها أُعطية من السماء لتثير الدهشة في الأرض،
والمواهب- برأيي الصائب قطعاً- لا يمكن تعلمها، وإنما يمكن
تنميتها فقط!
يُولدُ الموهوبون ليقدموا موهبتهم هكذا بكل بساطة،
كما تسبح الأسماك، وتطير الطيور، وتسعى الأفاعي!
شيء من الفطرة المُزادة على نظام التشغيل البشري!
صحيح أن الموهبة التي لا يتعهدها صاحبها بالرعاية تندثر،
ولكن كل من ليس موهوباً فإن المران لا يزيدها إلا تكلفاً!

برشلونة لم يصنع «ليونيل ميسي» لقد كان بيئته الحاضنة فقط،
و«كريستيانو رونالدو» كان يضيف لمسته حيث حلَّ، أعطى الجميع
ولم يأخذ من أحد!

«مارادونا» كان يُقدِّم شيئاً كالسحر،
ينساب في المراوغة كما ينساب الماء في الجداول،
«رونالدينيو» كان إمكانه أن يكون الأفضل في التاريخ لولا أنه دفنَ م
وهبته بيديه،
«بيليه» له فضل السَّبق،
أما الظاهرة «رونالدو» فهو برأيي أفضل من لمس كرة القدم في
هذا الكوكب،
عيبه الوحيد أنه لم يكن يلعب برأسه،
ولكن من يحتاج رأساً إذا كانت له هذه الأقدام التي يملكها!

النوادي لا تفعل شيئاً أكثر من أنها تتيح للاعب أن يصل إلى أعلى
نقطة في موهبته،
وعندما يصل إليها لا يمكن لأحدٍ أن يضيف إليها شيئاً،
هذا هو حد الموهبة، التي هي هِبة!
كما أن «بيتهوفن» وُلد ليعزف، «بيكاسو» ولد ليرسم،
و«المتنبي» وُلد ليقول شعراً، و«خالد بن الوليد» وُلد ليقاتل،
وُلد كل هؤلاء المَهرة ليلعبوا كرة القدم بهذه البراعة!

59

في كتاب صياد القصص لإدواردو غليانو:

في مكانٍ ما من إحدى الغابات التي دخلها المستعمرون،

علّقَ أحدهم قائلاً:

كم هم غريبو الأطوار هؤلاء المتحضرون،

جميعهم لديهم ساعات ولا وقت لدى أي منهم!

اليوم، صرنا جميعاً أولئك المستعمرين!

نملك الساعات ونفتقدُ الوقت،

نملكُ وسائل التواصل ونعاني من قلة الوصل،

نملك الجامعات وينقصنا العلم،

نملكُ المكتبات وتنقصنا الثقافة،

حتى على كثرة المساجد، ينقصنا الإيمان،

للأسف، نحن نمتلك الأشياء، وتنقصنا روحها!

60

روى «أبو محمد اليافعي» في كتابه «مرآة الجِنان»،
عن الفقيه الجليل عمرو بن شُراحيل الكوفي المعروف بالإمام الشَّعبي،
وقال: أرسلني عبد الملك بن مروان إلى ملك الروم،
فلما وصلتُ جعلَ لا يسألني إلا أجبتُ، وكانت الرُّسُلُ لا تُطيلُ عنده،
فحبسني أياماً كثيرة، حتى أحببتُ الرجوع،
فلما أردتُ الانصراف قال لي: من أهل بيت المملكة أنت؟
فقلتُ: لا، ولكنني رجل من العرب في الجملة.
فهزَّ رأسه، وأعطاني كتاباً مختوماً، وقال:
إذا أديتَ الرسائل إلى صاحبك، فأعطِهِ هذه أيضاً.
فلما دخلتُ على عبد الملك، أعطيته البريد، ومنه تلك الرسالة الأخيرة.
فلما قرأها قال لي: أقالَ لكَ شيء قبل أن يدفعَ إليكَ هذه الرسالة!
قلتُ: نعم، سألني من بيت المملكة أنت!
فقلتُ له: لا، ولكنني رجل من العرب في الجملة.
فقال لي: أتدري ما في الرسالة؟
قلتُ: لا.
قال: خُذْ واقرأْ!
فقرأتها، فإذا فيها: عجبتُ من قوم فيهم مثل هذا كيف ملَّكوا غيره!
فقلتُ له: يا أمير المؤمنين، إنما قالَ هذا لأنه لم يَرَك!
فقالَ لي: أتدري لِمَ قالَ هذا؟

قلتُ: لا.

فقال: حسدني عليكَ، وأراد أن يُغريني بقتلك.

فبلغ ذلك ملكَ الروم، فقال: واللّهِ ما أردتُ غير هذا!

بعض الأشياء لا تتغير على ظهر هذا الكوكب،

قديماً كما حديثاً يسعى أعداء هذه الأمة إلى الوشاية فيما بينها،

يُزكون الخلافات، ويصبون الزيت على النار، فيتفرق شمل هذه الأمة،

ويصبح بأسها بينها شديداً، وتصبُّ جهودها،

وإعلامها، وشبابها، ومقدراتها في هذه الخلافات،

وتنسى أعداءها يسرحون ويمرحون، ويزدادون قوةً، ونزدادُ نحن ضعفاً!

انظروا إلى كل الخلافات التي تقع بين دولنا،

تجدونها في مضمونها تافهة، ولا تستحق القطيعة أساساً،

ولا يوجد فيها طرف رابح، إنما يخسر الجميع،

وتستنفدُ الطاقات، وتضيع الموارد،

ودائماً هناك يد خفيَّة تدعم هذا الطرف ضد ذاك، وتغري ذاكَ على ذلكَ!

وإنَّ من العجب العُجاب أن نعبد رباً واحداً، ونتبع نبياً واحداً،

ونقرأ كتاباً واحداً، ونتجه إلى قبلة واحدة، ونتحدث لغةً واحدة،

تجمعنا كل هذه الأشياء ثم تفرقنا التوافه!

61

في سير أعلام النبلاء للإمام الذَّهبيِّ:

قال «بقيُّ بن مخلد»: كنا مع «إبراهيم بن أدهم» في البحر،

فهاجت ريح، واضطربتْ السفينة، وبكى الناس،

فقلنا له: يا أبا إسحاق، أما ترى؟!

فقال: يا حيُّ حين لا حيّ، ويا حيُّ قبل كل حيٍّ،

ويا حيُّ بعد كل حيٍّ، يا قيوم، يا محسن، يا مُجمِّل،

قد أريتنا قدرتكَ، فأرِنا عفوكَ!

فهدأت السفينة من ساعتها!

أحبُّ الأدعية إلى الله هو دعاء الغريق!

أن تقطع ثقتكَ بكل الأسباب وتُعلِّقها برب الأسباب،

أن ترفع يديكَ وليس في قلبكَ سواه سبحانه،

تُؤمن أنه قادر ولو بدا لكَ الأمر مستحيلاً،

وبيده الحلُّ ولو كانت المعضلة شائكة،

وعنده الشفاء ولو قيل إن المرض مستعصٍ،

وعنده الرزق ولو سدَّ الخلق جميعاً أبوابهم،

إنَّ الله لا يريدُ من الدعاء بلاغتكَ، وإنما يريدُ قلبكَ!

62

كان «لويس الحادي عشر» مُولعاً بالتَّنجيم،
يُصغي كثيراً إلى العرّافين والمُنجّمين،
وربما غيَّرَ رأيه بشأن أمرٍ سياسي هام فقط لأن مُنجِّماً أخبَرَه أمراً ما!
ولم يكُن أحد يستطيع أن يفهمَ كيف لملكٍ قويٍّ مثل لويس،
أن يكونَ ضعيفاً تجاه المُنجِّمين،
حتى أنه كان يحتفظُ بأحدِهم في قَصرِهِ لشدةِ إعجابِه بنُبوءاتِه!
وفي يومٍ من الأيام تنبَّأَ هذا المُنَجِّمُ الأثيرُ على قلبِ الملكِ،
بأنَّ إحدى سيداتِ القصر سوف تموت بعد ثمانية أيام.
وعندما تحققت النبوءة شعرَ الجميعُ بالخوف من هذا المُنجِّم، حتى لويس نفسه!
قال لويس في نفسه: هذا المُنجِّمُ إما أنه قتلَ السيدة ليُثبتَ براعته،
أو أنه بارعٌ إلى هذه الدرجةِ المخيفةِ، وفي كِلتا الحالتين يجب أن يموت!
فاستدعاهُ إلى غرفتِهِ التي تقعُ في أعلى القلعةِ،
وأخبرَ الحرسَ أن يُمسكوا به ويلقوه من أعلى عندما يُعطيهم الإشارة،
التي كانت التصفيق بيديه!
وعندما وصلَ المُنجِّمُ سألَه لويس سؤالاً غريباً، قال له:
إنك تزعمُ أنكَ تعرفُ أعمار النَّاس، فلا شك أنكَ تعرفُ متى ستموت، أليس كذلك؟

قال له المُنجِّمُ: أجل، أنا سأموتُ قبل جلالتِكَ بثلاثةِ أيام!
فلم يجرؤ الملكُ على التصفيقِ بيديه، بل إنه ضاعفَ الحراسةَ على المنُجّم ليحميه!

عاشَ هذا المُنجِّمُ بعد لويس سنواتٍ طويلة، وتبيَّنَ للناسِ أنه كانَ كاذباً،
ولكنه نجا بحياتِهِ بذكاءٍ خارق!
الساسةُ والأدباءُ والأثرياءُ والفلاسفةُ والمُفكرون والمُخترعون فئةٌ من الناس،
وبالتالي لديهم ما لدى الناس من محاسن وعيوب،
وإن الصورة الملائكية التي نرسمها لهؤلاء في مخيلاتِنا لا تُعبِّر أبداً عن حقيقتهم،
وإنما هذا مرجعه أننا نرى الأمرَ من بعيدٍ، لهذا قالوا:
إذا أحببتَ فلا تقترِبْ، الكثيرُ من الأشياء هي من بعيدٍ أجمل!
يُشبهُ هذا إلى حدٍّ بعيدٍ قول دوستويفسكي: أسهل طريقة لنسيان امرأة تُحبها هي أن تتزوجَها!

اختلفَ شكلُ التنجيمِ اليوم، لم نعُد نرى العرافاتِ الغجرياتِ يجُبْنَ الطرقاتِ،
ولا تلك الشريرة التي تُدير أمامها كرةً بيضاء كبيرة،
اختبأَ المُنجِّمون وراء ألقاب ساحرة، العَالِم الروحاني،

والوَلِي الذي كُشف عنه الحجاب، والخبير بالأبراج،
لم يختلف المُحتوى كثيراً وإنما اختلفت الطريقة،
بدل أن تسترقَ السمع على مستقبلك من عرافة،
صُرْتَ تسترقُه من صفحةِ الأبراجِ في المجلة،
ألا وإنَّ الدجلَ واحد، وإنَّ المُنجِّمين كاذبون، ولا يعلم الغيبَ إلا اللّه.

63

في كتاب أعيان العصر لصلاح الدين الصفدي:
في ترجمة أبي حيان الأندلسي:
وكان فيه رحمه الله خشوع، يبكي إذا سمع القرآن،
ويجري دمعه عند سماع الأشعار الغزلية!
النَّاس أجناس، والقلوب كالزَّرع، يُسقى بماءٍ واحدٍ،
ولكلٍّ ثمره الذي لا يُشبه الآخر!
تجدُ من الناس من تُبكيه في الصلاة سورة الفاتحة،
ومن الناس من لا تُحرِّكُ فيه الجنازة شعرة!
ومن الناس من يتعاطف مع موت بطلٍ في الرواية،
ومنهم من لا يرفُّ له جفن للمجازر تُعرض على نشرات الأخبار،
هي قلوبٌ قُسِّمتْ في الصدور كما قُسِّمت الأموال في الجيوب،
على أنه لا شيء أقسى للقلب من الذنوب،
ولا شيء ألين له من الإقلاع عن المعاصي،
وقد رأينا عياناً أن العُصاة القُساة إذا ما تابوا، رَقُّوا،
وكأنهم أُبدلوا قلوباً جديدة!

64

روى «أحمد بن يوسف الكاتب» في كتابه الرائع «المكافأة وحُسن العقبى»،

أنَّ أبا حبيبٍ المقري قد ضاقت به الحال في بلده،

ولم يبقَ عنده إلا جارية له وبيته، فباع البيت بألف دينار،

وجعل المال في حزام على وسط الجارية، وخرج إلى مكة!

وكانت الجارية إذا نزلوا في الطريق حفرت في أرض الخيمة حفرة وخبأتْ المال،

فإذا أرادوا الانصراف أخذته. ثم إنها نسيت أن تفعل ذلك مرةً،

ولم تنتبه إلا وهم على مشارف مكة، فلما علم أبو حبيب بالأمر ضاقت عليه الدنيا،

وعاد إلى حيث كانت الخيمة، فبحث فلم يجد شيئاً،

ووجد هناك غلاماً يرعى، فقال له: يا عم ما تطلب؟

فقال: شيئاً أودعته في الأرض.

فقال له: صفه لي.

فقال: كيس أحمر فيه ألف دينار.

فقال له: ما ليَ إن دللتُكَ عليه؟

قال: نصف ما فيه!

فأخرج الغلام الكيس وقال له: خُذْ مالك يا عم، أنتَ أولى به، وأنا لا أتقاضى نظير أمانتي!

فقال له أبو حبيب: أنتَ حر أم عبد؟

فقال له: عبد لسيد هذا الحي!

فذهبَ أبو حبيب عند سيد هذا الحي، وعرضَ عليه شراء العبد مع القطيع،
ليعتقه ويعطيه القطيع.
فقال له سيد الحيِّ: ولِمَ تريد أن تفعل؟
فحدثه أبو حبيب بالذي كان بينهما.
فقال له سيد الحي: تفعل هذا لمعروف واحد صنعه معك،
ولا أفعل أنا لمعروف يصنعه معي كل يوم،
باركَ اللّٰه لكَ في مالكَ، فأنت له أحوج، وهو حر لوجه اللّٰه،
والقطيع له!

ليس بالضرورة أن تردَّ المعروف ولكن كن أرقى من أن تتكره!
الذي يصنعُ المعروف عادةً لا يطلبُ مكافأة، ولكن نكران المعروف موجع،
والنبيل إذا أُسديَ إليه معروفٌ، بقي يقظاً متنبهاً، متحيناً الفُرص لرده،
ومن أجمل ما قالت العرب: من أحسنَ إليكَ فقد استعبدكَ!
ومنه استقى أبو الفتح البستي بيته الشهير:
أحسِنْ إلى الناس تستعبد قلوبهم
لطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

ثم إن الغنى غنى النفس لا غنى المال،

والقناعة في العين والقلب، لا في المحفظة والجيب،

وإنك لتجد بعض الفقراء حامداً اللّه على ما أعطاه حتى لتعتقدَ أنه أوتيَ مالَ قارون،

وتجد بعض الأغنياء يشكو حتى لتعتقد أنه لا يجد رغيف خبز يسدُّ به جوعه!

وإنك لتجد بعض الفقراء إذا وجد محفظةً أعادها، ولم يقبل نظير أمانته مكافأة،

وتجد بعض الأغنياء يحتكر الدواء والغذاء،

ما همه لو هلكَ الناس، المهم أن تتضاعف ثروته.

على أن ليس كل فقير حامداً صابراً خلوقاً، ولا كل غني جشعاً،

ولكن القناعة مع الفقر ملفتة، لهذا كان الكلام!

65

في كتاب العيال لابن أبي الدنيا:
رُئِيَ سفيان الثوري يَحْجِمُ ابنه،
والصبيُّ يبكي... وسفيان يبكي لبكائه!
وعلى هذا مدار التربية كلها،
يُعطى للصبيِّ ما هو أنفع له لا ما هو أسعد!
فكما تأخذ ابنك إلى الطبيب ليغرس فيه إبرته،
وأنتَ تعلمُ أنه سيتألم، ولكن في هذا شفاءه،
كذا في الدين والمبادئ والقيم،
تدربه على الصيام وقلبُك يتقطع لرؤيته جائعاً ولكنه الدين،
وتوقظه فجراً من دفء الفراش ليتوضأ ويصلي،
والدفء أحب إليه والصلاة أحب إلى اللّٰه،
على الأولاد أن يسمعوا كلمة: لا،
تقولها وأنتَ تعتصرُ ألماً، ولكن هذا أصقل لشخصياتهم،
في تربية الأولاد لا شيء أنجح من هذا القانون،
ضعوا قليلاً من العاطفة على عقولكم لتلين،
وضعوا قليلاً من العقل على قلوبكم لتشتدَّ!

66

في ستينياتِ القرنِ التاسعِ عشر، أرادَ «جون روكفيلر»،
أن يحتكرَ تجارةَ النفطِ في أمريكا،
ولكنه كان يعرفُ أنه إذا حاولَ ذلك مباشرةً فإنه لن ينجحَ أبداً،
فلا أحد يرغبُ في بيع شركةِ نفط،
مهما كان المرءُ ساذجاً فإنه لن يبيعَ بقرةً حلوباً بسطلِ حليب!
فكان لا بُد له أن يُغيِّرَ قانونَ اللعبة!
اشترى سراً شركاتِ سككِ الحديدِ التي تنقلُ النفطَ من المصافي وتُسلِّمُه إلى الشركات،
ثم بدأَ يُحاولُ الاستحواذَ على الشركاتِ واحدة تلو أخرى،
وعندما يلقى مُعارضة، ورفضاً قاطعاً للبيع،
كان يكشفُ عن مُلكيته لسككِ الحديد، وكان ببساطةٍ يمتنعُ عن نقلِ نفطهم،
أو يرفعُ تكلفةَ النقلِ إلى درجةٍ يُعرِّضُ هذه الشركة للخسارة!
وبين إفلاس تام، وصفقة تضمنُ الخروج برأسِ المالِ وشيءٍ من الربح،
كان أصحابُ الشركاتِ يضطرون للبيع،
وهكذا وفي أقلِّ من عشرِ سنواتٍ أصبحَ «روكفيلر» هو رجل النفطِ الأوحدِ في أمريكا!

عندما أُوْرِدُ مثل هذه القصص، فلستُ أؤيدُ الجشع، ولا الاحتكار،
ولا أقولُ إنَّ على المرء أن يزيدَ ثروته ولو أدَّى ذلك إلى إفلاسِ
الآخرين!
على العكس تماماً، أكرهُ الجشعَ والجشعين، والاحتكارَ والمُحتكرين،
ولستُ أمقتُ في الحياة أكثر من مقتي للأشخاصِ الذي يرون المالَ
غاية!
ولكني أوردُ هذه القصص من بابِ أنَّ هذه الأشياء تحدثُ في الحياة
فعلاً،
والحقيقةُ تبقى حقيقة سواءً أحببناها أو كرهناها!
والعاقلُ عليه أن يعرفَ كيف يتصرَّفُ شياطينُ الإنسِ وإلا وقعَ
ضحيةً لهم،
ويُعجبني قول عُمر بن الخطاب: لستُ بالخب ولا الخب يخدعني!
وقوله الآخر: من لا يعرف الجاهلية لا يعرف الإسلام!

الشيءُ الذي يُستفادُ من القصةِ أن على المرء أن يعملَ بذكاءٍ لا
بجهدٍ فقط،
وأن يفهمَ قوانين اللعبة التي تجري،
فما لا نفهمه جيداً لا نستطيع التعامل معه، فضلاً عن أن نُغيِّره!
عندما جاءَ نعيم بن مسعودٍ إلى النبيِّ ﷺ مُسلِماً في غزوةِ الخندق،
لم يطلبْ منه النبيَ ﷺ أن يلتحق بجيشِ المُسلمين،
رغم أنَّ هذا هو قانون اللعبة، وعُرفها السائد!
وإنما نظرَ النبيُّ ﷺ في الأمرِ بذكاء،

نعيم بن مسعود رجلٌ واحد، وما الإضافة التي سيضيفها رجل واحدٌ بسيفه ضد جيش!

فأمره أن يذهبَ ويُخذِّلَ بين الأحزاب، وهكذا كان!

لو تأمَّلنا في هذا الحدث لوجدنا أن النبيَّ ﷺ غيَّر قواعد اللعبة أيضاً!

67

في كتاب البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي:
قال الأصمعيُّ: مررتُ بكنَّاسٍ في بعض الطُّرقات وهو ينقلُ على ظهره وينشِدُ:
وأُكرِمُ نفسي إنني إن أهنتُها،
وحقك لم تكرم على أحدٍ بعدي،
فقلتُ له: عن أي شيءٍ أكرمتها وهذه الجرَّة على رقبتكَ؟
فقال: من الوقوف بباب أمثالك!
كل رغيفٍ فيه جرح لكرامتكَ الجوع خير منه،
وكل لقمةٍ فيها إراقة ماء وجهك لا تأكلها،
اللقمة المغموسة بالذل تملأ معدتكَ ولكنها تُفرغ قيمتكَ،
كل علاقةٍ تخدشُ كرامتكَ لا تلزمكَ،
وكل منصبٍ ثمنه عزة نفسك، يحطُكَ ولا يرفعُكَ،
حدَّثَ الكلبُ الثعلبَ الجائع عن كثرة الطعام عند سيده،
فقال له الثعلب: ما هذا الأثر على رقبتكَ؟
فقال: أثر السلسلة التي يربطني بها سيدي،
فقال له الثعلب: مسكين، شبعتَ ولكنك لم تعرف معنى أن تكون حُراً!

68

في كتابِ «المُختار من نوادرِ الأخبار» لمحمد بن أحمد المقري،
أن الحجاج بن يُوسف الثقفي خطبَ يوماً،
فشكا سوءِ طاعةِ أهل العراق!
فقالَ له «جامع المحاربي»: إنهم لو أحبُّوكَ لأطاعوكَ،
على أنهم ما سبُّوكَ لنسبكَ، ولا لبلدكَ، ولا لذاتِ يدكَ،
فدَعْ ما يُباعدهم عنكَ إلى ما يُقرِّبهم إليكَ،
والتمِسْ العافية مِمَّن دونكَ تُعطَها مِمَّن فوقكَ، وليكُنْ إيقاعك بعدو عيدكَ!
فقالَ له الحجاج: واللّهِ، ما أراني أُقَوِّمهم إلا بالسَّيف!
فقالَ له جامع: أيُّها الأمير، إنَّ السَّيفَ إذا لاقى السَّيفَ ذهبَ الخِيار.
فقالَ الحجاج: الخِيار يومئذٍ للّه.
فقالَ له: أجل، ولكنكَ لا تدري لمن يجعله اللّه!
فقالَ الحجاج: واللّهِ لقد هممتُ أن أخلعَ لسانكَ، وأضربَ به وجهكَ!
فقالَ له جامع: إن صَدَقْناكَ أغضبناكَ وإن كذَبْناكَ أغضبنا اللّه تعالى،
وغضبُ الأميرِ أهون علينا من غضب اللّه!

تأمَّلوها طويلاً وعميقاً: غضبُ الأميرِ أهون من غضبِ اللّه!
فيا ماسح الجوخ تطبيلاً لظلمٍ لو أمسكتَ عليكَ لسانكَ،
وما كنت كالراكضِ في هامشِ مضمارِ السباق،

ليسَ له إلا التعب، فلا لهُ دنيا الواصلين، ولا راحة الجالسين!
ويا أيُّها الواشي بزملائه عند مديره،
لا المناصب تبقى ولا الرُّتَب، أمَّا الأذية فتكتبها الملائكة في الصفحةِ،
التي لا يشملها عفو اللّه تعالى، لأنه سبحانه كتبَ على نفسه،
أنَّ عفوه عن حقوقِ عِباده مرتبطٌ بعفوهم هم،
وسُبحان من لا شيء يلزمه إلا ما ألزمَ به نفسه!
ويا أيُّها الداعية الذي أخذَ ميراث الأنبياء، حديثاً وفِقهاً ودِيناً،
ثم باعه بثمنٍ بخسٍ في فتوى مُعلَّبةٍ على مزاجِ طالبها،
تلوي أعناق النصوص، وتحملُ الأمرَ على غيرِ محله،
أحمق الناس من باعَ دينه بدُنيا غيره!
ويا عون الظالمين، يا أيتُها اليد التي يبطشون بها، والسوط الذي يجلدون به،
أنت َلستَ مجبراً، ولا موظفاً، ولا عبداً للمأمور،
كلنا عبيد اللّه، أما أنتَ من الظَلَمَة أنفسهم!

عندما سُجِنَ الإمامُ أحمد في فتنةِ خلقِ القرآن،
كانَ كثيراً ما يُردد: أعوانُ الظلمةُ كلابُ جهنم!
فقالَ له سجَّانه: يا إمام، هل أنا من أعوانِ الظلمة؟
فقالَ له: أعوانُ الظلمةِ من يطهون طعامكَ، ويخيطون ثيابكَ،
أما أنتَ فمن الظلمةِ أنفسهم!

69

في كتاب الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني:
كان أحمد بن عبد الله الدائم شاعراً مولعاً بالهجاء،
دخلَ دمشق فهجا قاضيها،
فقال له القاضي: كأنك أخطأتَ؟
فقال: بل تعمدتُ ذلك لأشتهر،
لأني رأيتُ الناس قد اجتمعوا على الثناء عليك، فرأيتُ أن أخالفهم،
فإني لو مدحتكَ وأعطيتني لم يشعر بي أحد،
وإن هجوتكَ فجلدتني، يُقال: هذا غريم القاضي، فأشتهِرُ!
هؤلاء جماعة: خالِفْ تُعرف!
لو كان النقاش حول لون اللبن، لقالوا: هو أسود!
ولو كان النقاش حول ماء البحر، لقالوا: هو عذب!
ولو كان النقاش حول الثلج، لقالوا: لهيبه يحرق اليد!
هؤلاء بضاعتهم رائجة، والطريق أمامهم سالكة، والقنوات مفتوحة،
شَكِّكْ في صحيح البخاري فتصبح مفكراً إسلامياً،
قُلْ إنَّ المرأة ليس من واجبها أن تطبخ لأولادها ولا حتى أن ترضعَ طفلها،
في اليوم التالي سيستضيفونك على أنك خبير في شؤون الأُسرة!

70

في «قصص الدراويش» «لإدريس شاه»،
أن عرَّافاً أخبرَ أهلِ المدينةِ، أنه بتاريخ محددٍ سينزلُ بالماءِ سِحرٌ،
سيُصيبُ من يشرب منه بالجُنون، إلا الماء الذي يُخزَّنُ بطريقةٍ
مُعَيَّنة!
لم يستمعْ للعرَّاف إلا رجل واحد، جمعَ ماءً كثيراً، وخزَّنه بالطريقةِ
التي قِيل عنها!
وفي التاريخِ المحددِ أصابَ السِّحرُ الماءَ،
وصارَ جميعُ من في المدينةِ مجانين إلا الرجل الذي كانَ قد خزَّنَ
الماء،
لأنه كانَ يشربُ من الماءِ السليم.
كانَ الجميعُ مجانين تماماً، يقولون أشياءَ لا منطقية،
أفكاراً غير مُتَّزِنة، ويقومون بتصرفاتٍ حمقاء،
وأشد أفكارهم جُنوناً كانتْ أنهم نظروا إلى العاقلِ الوحيدِ في
المدينةِ على أنَّه مجنون!
فقد بدا غريب الأطوار، يتفوّهُ بأشياءَ غير مفهومة!
وعلى مدارِ أُسبوعٍ كاملٍ كان يتحمَّلُ سُخريتهم،
ونظراتِ الشفقةِ في عيونهم، وهمزِهم ولمزِهم به،
وأخيراً ضاقَ ذرعاً بكلِّ شيءٍ، فقررَ أن يُصبحَ كالجميع،
أخذَ كأساً من الماءِ الذي يشربُ منه الناس وشربه،
ومُنذ ذلك الحين بدأَ الناسُ ينظرون إليه على أنه الرجل الذي
استردَّ عقلَه بمُعجزة!

أول ما قرأتُ هذه القصة خطرَ لي حديث النبيِّ ﷺ:
«بدأَ هذا الدين غريباً، وسيعودُ غريباً كما بدأ، فطُوبى للغُرباء»!
وأيُّ غُربة أقسى من أن تنقلبَ الموازين كما في القصة،
أن يصبحَ العاقلُ مجنوناً، والمجنونُ عاقلاً!
أيُّ غُربة أقسى من أن يوضعَ رواد المساجدِ تحتَ المُراقبةِ الأمنية،
ويُنظر إلى روادِ المراقصِ على أنهم جِهة مأمونة!
الوجعُ كل الوجع أن يُنظرَ للمُنتقِبة على أنها معقدة!
وللزوجِ الحنونِ على أنه ضعيف شخصية!
وللموظفِ الأمينِ الذي لا يرتشي على أنه لا يعرف من أين تُؤكل الكتف!
لا شيء أكثر وجعاً من أن تفسدَ الفطرة،
فيصيرُ الجميلُ قبيحاً في عيون الناس، والقبيحُ هو غاية الجمال!

71

في كتاب نفح الطيب للمقري التلمساني:

جاء في ترجمة أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت:

يُقال إن عمره ستون سنة:

عشرون في إشبيليا، وعشرون في إفريقيا،

وعشرون في مصر محبوساً في خزانة الكتب،

وكان وجَّهه صاحب المهدية إلى ملك مصر،

فسجنه بها طول تلك المدة في خزانة الكتب، فخرج في فنون العلم إماماً!

وكم تعثرت الخُطى فاكتشفنا بعدها أن في تلك العثرة استقامتنا!

وكم كُسرتْ قلوبنا فاكتشفنا أن جبرها كان في كسرها!

وكم فارقنا أشخاصاً فاكتشفنا أن الخير كان في أن لا نبقى!

وكم خسرنا وظائف فاكتشفنا أن العطاء يسبقه الحرمان!

وكم خُذلنا في مواضع طمأنينتنا فاكتشفنا أنَ الكسر في أول الطريق أيسر منه في آخره!

لولا الجُبّ ما كان يوسف عليه السلام ليجلس على كرسي الملك،

ولولا الدموع على أبواب مكة ما كان الفتح،

ولولا إفلات القافلة ما كانت بدر ولا جاء النصر،

هكذا هي رحمة الله أحياناً تأتي مغلفة بالوجع فإذا ما انكشفَ لنا الحجاب،

عرفنا أن ربَّ الخير لا يأتي إلا بخير!

72

يروي «كليفتون فاديمان» في كتابه «حكايات البُنيِّ الصغير»،
أنَّ المستشار الألماني الشهير «بسمارك» قد غضِبَ من الانتقادات اللاذعة،
والمُستمرة التي كان يُوجهها إليه «رودولف فيرخاو»،
السياسي صعب المِراس، وأشهر أطباء ألمانيا في علمِ الجراثيمِ والأوبئةِ في تلكَ الأيام.
أرسلَ «بسمارك» مُساعديه ليعرضوا على «فيرخاو» مبارزة!
فقال «فيرخاو»: بما أنِّي الطرف المعروض عليه التحدي، فيحقُّ لي أن أختارَ سلاحَ المُبارزة! وإني أختارُ هذا، ورفعَ إلى الأعلى قطعتي سجق كبيرتين تبدوان مُتطابقتين تماماً
وقال: إنَّ إحدى هاتين القطعتين مُصابة بجراثيم قاتلة، والأُخرى سليمة تماماً،
دعوا معاليه يُقررُ ما القطعة التي سيأكلها وأنا سآكل الأخرى!
وعندما عادَ المساعدون إلى «بسمارك» يحملون رد «فيرخاو»،
دبَّ الذُّعرُ في قلبه، وقررَ أن يصرفَ النظر عن التحدي!

هناك مبدأ في العلوم العسكرية يقول:
قاتِلْ عدوَّك بالسلاحِ الذي يخشاه هو لا بالسلاحِ الذي تخشاه أنتَ!
كلنا نحبُّ حياةً بلا صراعات، ولا مُبارزات أساساً،

ولكن شأن الحياة أن تضعَ الناس دوماً في مواقف كهذه!
فإن كانَ عليكَ أن تختارَ سلاحاً لمُبارزتك فليكُنْ ما تُتقنه أولاً،
وما يخشاه خصمك ثانياً!

كانَ «بسمارك» يطمحُ أن تكونَ هناك مُناظرة بينه وبين «فيرخاو»،
هذا لأنه كانَ سياسياً مُحَنَّكاً، وامتلكَ قدرةً رهيبةً على المناقشةِ
والإقناع،
وكان «فيرخاو» ذكياً فحرمَ «بسمارك» من أقوى أسلحته،
واختارَ سلاحاً يُتقنه هو، ويجهلُهُ خصمه!

أما مبارزة خصم بما يُتقنُ فهذه قمة التحدي!
لهذا كانَ اللّٰه سبحانه وتعالى يُعطي أنبياءه عليهم السلام معجزات،
هي من نوعِ ما يُتقنه أقوامهم المُعاندين لرسائلهم،
إمعاناً في تحدِّيهم وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم!
اشتهرَ المصريون القُدماء بالسحر،
فأرسلَ اللّٰه تعالى موسى عليه السلام بالعصا التي تصيرُ حية،
عندها فقط خرَّ السحرةُ ساجدين!
واشتهرَ قومُ صالح عليه السلام أنهم ينحتون من الجبالِ بيوتاً،
جماداً من جماد، ولكن صالح عليه السلام،
أخرجَ لهم من الصخرةِ ناقة، حيّاً من جماد!
وكانَ بنو إسرائيل بارعون في الطب،

والطب مهما تطوَّرَ فإنه يقف عاجزاً أمام إحياءِ الموتى،
فجاءَ عيسى عليه السلام بمعجزةِ إحياء الموتى!
ولمَّا اشتهرَ العربُ بالبلاغةِ والفصاحة،
كانتْ مُعجزة النبيِّ ﷺ القرآن،
هذا الكتاب الخالد الذي يفيضُ بلاغةً، فتحداهم أن يأتوا بآيةٍ من مثله، فوقفوا عاجزين!

73

في كتاب الآداب الشرعية لابن مفلح المقدسي:
سُئِلَ الإمام أحمد عن قومٍ من أهل البدع يُتعرَّضون، ويُكفَّرون،
فقال: لا تتعرضوا لهم،
فقالوا: وأي شيءٍ تكره في أن يُحبسوا؟
فقال: لهم أمهات وأخوات!
هكذا هو المؤمن، إذا خاصمَ، خاصَم للّهِ، وفي اللّه،
وإذا أحبَّ، أحبَّ للّه، وفي اللّه،
وفي حبِّه وخصامه يرحم!
لا يبحث مع الحبيب عن نصر، ولا مع المخالف عن كسر،
ولا يأخذُ أحداً بجريرة أحد،
يقول ابن القيم: بشَّرتُ ابن تيمية بموت ألد خصومه، فنهرني،
وقام إليه ببيته، فعزَّى أهله،
وقال لهم: أنا لكم بعده!

74

في كتابِ «قصص من التاريخ الإسلامي» لأبي الحسن الندوي،
أنَّ الإمامَ أبا حنيفة كانَ من عادته أن يجلسَ في ظِلِّ بيتِ أحدِ
أصحابه،
واقترضَ هذا الصاحبُ من أبي حنيفة مالاً، وجاءَ اليوم التالي
للقرض،
وجلسَ أبو حنيفة بعيداً عن ظِلِّ البيت!
فسألَهُ صاحبه: لماذا تجلسُ بعيداً؟
فقالَ له أبو حنيفة: خفتُ أن يكونَ من الرِّبا.
فقالَ له: لكنكَ كنتَ تقعدُ قبل أن تُقرضني.
فقالَ له أبو حنيفة: كنتُ أقعدُ وأنتَ المُتَفَضِّل عليَّ بظلِّ بيتك،
وإني أخافُ الآن أن أقعدَ وأنا المُتَفَضِّل عليكَ بالمال!

هذه القصة تُسجَّلُ في بابِ الورعِ لا في بابِ الفِقه!
والورعُ هو تركُ بعض الحلال خشية الوقوع في الحرام!
وقد ضربَ الأوائلُ قصصاً في الورعِ تكادُ تكونُ أقرب إلى الخيال!
جِيء لعُمر بن الخطاب بطيبٍ وأرادَ أن يقسمه بين نساءِ المُسلمين،
فقال: لو أعرفُ امرأةً تُجيدُ قسمته.
فقالتْ له زوجته: أنا أقسمه لكَ.
فقال: أنتِ لا، أخشى أن يعلقَ بثيابكِ شيء منه، فأُصيبُ من الطِّيبِ
ما لا يحل لي!

واستعارَ عبدُ اللّٰه بن المُبارك قلماً وهو بالشام،
فلمّا عادَ إلى مرو، وجدَ أنه نسيَ أن يُعيدَ القلمَ إلى صاحبه،
فرجعَ إلى الشام وردَّ القَلَمَ لِمَن استعاره منه، ثم عادَ مجدداً إلى مرو!

وكانَ عُمر بن عبد العزيز يقسمُ تفاحاً بين الناس، فجاءَ ابنُهُ وأخذَ واحدة،
فوثبَ عليه عُمر وانتزعَها منه، وأعادَها مكانها!
فعادَ الصغيرُ إلى أمه باكياً،
فأخرجتْ درهمين، وأرسلتْ إلى السوق تشتري تفاحاً،
وأطعمتْ ابنها،
ولما جاءَ عُمر بن عبد العزيز وضعتْ التفاح أمامه، فقال: من أين هذا؟
فقالتْ له: اشتريته من السوق.
فمدَّ يده وتناولَ تفاحة وقال: لقد كنتُ اشتهيتُهُ اليوم!
خليفةُ المُسلمين اشتهى تفاحاً كانَ بين يديه، فمنعه الورعُ أن يأكلَ منه!

وروى ابن كثير في البداية والنهاية،
أنه جاءتْ أُخت بِشر الحافي إلى الإمام أحمد وقالتْ له:
إنَّا نغزلُ على سُطوحنا، فتمرُّ بنا مشاعلُ السُلطان، ويقعُ الشعاعُ علينا،

فهل يجوز أن نغزلَ في شُعاعها؟

فقالَ لها الإمام: من أنتِ يرحمكِ اللّه؟

فقالتْ: أُخت بِشر الحافي.

فبكى، وقالَ لها: من بيتكم يخرجُ الورع، لا تغزلي في شعاعها!

75

في كتاب تاريخ واسط لأَسهلَ بن سهل الرزاز:
كان سيَّار بن وردان يذهبُ إلى مجلس القاضي قبل أن يُعقد،
فلا يزال يحاول أن يصلح بين الخصوم،
حتى إذا جاء القاضي، قام وانصرفَ!
يا للقلوب إذا فقهتْ، ما أعذبها!
ويا للدين إذا صار سلوكاً، ما أجمله!
تأملوا هذا المشهد ما أبهاه،
يذهبُ صباحاً إلى مجلس القضاء الممتلئ بالخصوم،
فيجلسُ بين خصمين، ويرققُ قلب هذا على ذاك، وقلبَ ذاك على هذا،
يُحاولُ أن يحل الخلاف بالمعروف قبل أن يأخذ القانون مجراه،
يريدُ أن يخرج الخصمان متعانقين بكرامتيهما،
قبل أن يكسر حكم القاضي أحدهما أمام الآخر،
لأنه يعرف أنه حيثما حلَّ القانون ذهبت المحبة،
وقد أراد أن يقول للناس: كسب القلوب أجمل من كسب الدراهم!

76

آخر ما شاهده «مانويل ألبا أوليفارس» من هذا العالم،
هدف «مارادونا» في مرمى إنكلتراعام 1986!
أُصيبَ بعدها مباشرة بالعمى بعد أن سقطتْ على رأسه مزهرية
في المقهى احتفالاً بذلك الهدف،
وكان يومها يبلغُ من العمر أحد عشر عاماً فقط!

وفي العام 2002 جرى استفتاء حول أجمل هدفٍ في القرن العشرين،
وكان بالطبع هدف «مارادونا» ذاك هو الفائز،
وهو فوز مستحق لقد راوغ «مارادونا» يومها إنكلترا كلها، ثم
ركن الكرة في المرمى!
كثيرون تحدثوا عن هذا الهدف، أشادوا به، وحللوه،
ولكن «مانويل» كان يتحدثُ عنه، ويرويه أبلغ من الجميع،
وكان آخر صورة التقطتها ذاكرته لهذا الكوكب!

بالمناسبة - وبعض المناسبات تستحق أن تُروى- درس مانويل
المحاماة،
وأسس فريقاً لكرة القدم في كولومبيا، وكان مدرباً ناجحاً،
وهو اليوم يبلغ من العمر 47 عاماً وما زال يحتفظ بهدف «مارادون»
سليماً في ذاكرته!

بعض المشاهد في هذا العالم تبقى راسخة في الذاكرة إلى الأبد،
ومهما شاهد الإنسان من مشاهد بعدها، إلا أن ذاك المشهد يبقى
كأنه آخر ما شاهده المرء،
حتى أنه قد يبقى عالقاً فيه!
في العام 2003 تُوفيت جدتي رحمها اللّه،
بعد أن غسلوها وكفنوها، دخلنا عليها لنودعها، كانت نائمة بهدوء،
مُسرجة بالبياض كأنها عروس أُعدَّتْ للزفاف!
بكى الجميع يومها إلا أنا!
كنتُ أعتقدُ أني إذا ما ضممتُها ستقوم كما كانت تفعل في سابق
عهدها،
إذا كانت نائمة وعانقتها! ضممتُها فلم تقُمْ، شددتُ عليها بقوة،
وكل شيء بي يقول لها: «يا ستي قومي»! ولكنها لم تقُمْ!
وأنا اليوم ما زلتُ واقفاً هناك، منحنياً نحوها، يداي تحيطان بها،
أُنادي عليها بلا لغة: مدي يديكِ وعانقيني لآخر مرة!

77

في كتاب الكامل للمبرِّد النحوي:

قال حميد الطويل للبَتِّيّ:

إذا جاءك الناس يتخاصمون في الأموال فلا تحملهم على أمرٍ واحد،

ولكن خُذْ من هذا، ومن هذا، وأصلح بينهم،

فقال له البَتِّيُّ: لا أطيق سِحْركَ!

وكان حميدٌ معروفاً أنه مصلح أهل البصرة،

الصُّلحُ سيِّد الأحكام لأنه يُبقي الألفة بين الناس!

أما متى أخذ القانون مجراه فقد تفرقت القلوب إلى غير رجعة،

صحيح أن الحقَّ يجب أن يُؤَدَّى،

وأن مجالس القضاء ما كانت إلا لإرجاع الحق للمظلوم،

ولكن ليست كل القضايا أبيض وأسود فقط،

في المعاملات بين الناس مساحة شاسعة من اللون الرماديِّ!

وليس كل الخصوم غرباء، خُذ الذي لك، وأدِّ الذي عليك، والسلام،

بعض الخصوم بينهم قرابة وأرحام،

وإن من فقه القاضي أن لا يقطع الأرحام،

وهذا من وصايا عمر بن الخطاب لأبي موسى في رسالة القضاء!

78

روى ابن الجوزيِّ في عيون الحكايات:
إن عمر بن الخطاب أرسل عُمير بن سعد عاملاً له على حمص،
فمكث عاماً لا يأتيه منه خبر، فقال عمر لكاتبه:
اُكتُبْ إلى عُمير، فو اللّهِ ما أراه إلا خاننا:
إذا جاءكَ كتابي هذا فأقبِلْ بما جبيتَ من خَراجٍ.
فأخذ عُمير جُراباً، ووضع فيه زاده، وقصعته، وإِربة مائه، وعصاه،
ثم جاء ماشياً من حمص إلى المدينة!
فلما وصل كان قد شحب لونه، واغبَرت ثيابه،
فدخل على عمر وقال له: السّلام على أمير المؤمنين.
فقال له عمر: وعليك السلام، ما شأنك؟
فقال عُمير: بخيرٍ الحمدُ للّه، ألا تراني صحيح البدن، معي الدنيا
أجرها بقرنها!
فقال له: وما معكَ؟
فقال: جُرابي فيه زادي، وقصعتي للوضوء، وإربتي للشرب،
وعصاي أتوكأ عليها!
فقال له عمر: وجئتَ تمشي؟
قال: نعم!
فقال له: أما كان لكَ من أحدٍ يتبرع لك بدابة تركبها؟
قال: ما سألتُهم ذلك، وما عرضوا عليَّ!
فقال عمر: بئس المسلمون خرجتَ من عندهم!
فقال عُمير: اتقِ اللّه يا عُمر، قد نهاكَ اللّهُ عن الغيبة!

فقال له عمر: فأين تغيبك، وأي شيءٍ صنعتَ؟
فقال: هذا سؤال الشَّاكِ يا أمير المؤمنين، أما إني لولا أخشى أن أغمّكَ ما أخبرتك،
ولكني لما وصلتُ حمص، جمعتُ أفاضل أهلها فوليتهم،
ثم إذا جمعوا خراجهم أنفقته فيهم، ولو بقي منه شيءٌ لجئتكَ به!
فقال عمر: جددوا لعميرٍ عهداً!
فقال عمير: لا حاجة لي بهذا، ولن أعملَ لأحدٍ بعدكَ،
وما سلمتُ في الإمارة، قلتُ يوماً لنصرانيٍّ، أخزاكَ اللّه!
هذا ما عرَّضتني له يا عمر، وإن أشقى أيامي يوم استعملتني!
ثم استأذن من عمر، وخرج من عنده، وكان في الطريق إلى بيته يقول:
اللهم أَعِنّ عمر بن الخطاب، فإني لا أعلمه إلا شديد الحُب لكَ!

على أيٍّ حالٍ هذا هو عمر بن الخطاب، الحازم في دين اللّه،
الشديد في الحق، الحريص على مصالح المسلمين،
وهو قبل كل هذا مسؤول ومُحاسبٌ عمَّنْ يوليهم،
ومتابعته لهم من حُسن أداءِ الأمانة، وقد كان قوياً أميناً!
وإنَّ ورع عُمير بن سعدٍ يُضربُ فيه المثل، وزهده في الدنيا آية من آيات الدَّهر،
وطريقة حكمه في ولايته هي عين العدل لا شك!

ولكن ما يُستفاد من القصة:
أنّ رحمَ اللّه مَنْ جبَّ الغيبة عن نفسه، وسارع إلى تبرئة ساحته!
صحيح أن اللّه مطلع علينا، وأنه يعلمُ النوايا كما يعلمُ الأفعال،
ولكن الناس ليس لهم إلا ما يرون،
ولا يضعُ المرءُ نفسه موضع الشُبهة وإن كانتْ نيته حسنةً، وعمله حسناً!
وهذا من هدي النُّبوة، فقد زارت أُمنا صفيةُ النبيَّ ﷺ،
في إحدى ليالي اعتكافه في المسجد،
ثم قام معها ليوصلها كي لا تمشي في الليل وحدها،
فلما رآه رجلان من المسلمين أسرعا!
فقال لهما: على رسلكما، هذه صفية بنتُ حُيي!
فقالا: سبحان اللّه يا رسول اللّه! أي أنتَ فوق الشُبهة
فقال لهما: إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، فخشيتُ أن يقذف في قلوبكما شراً!
بأبي هو وأمي، أنقى الناس وأشرفهم، فوق كل الشبهات،
عفيف حَيي، كريم معصوم، ولكنه راعى طباع الناس، فلا تضعوا أنفسكم في مواطن الشبهات،
فإن الناس قلما تحمل الشبهة بحسن النوايا!

79

في كتاب غُرر الخصائص لإبراهيم شمس الدين:
كان الفضل بن مروان وزير المعتصم ظالماً غاشماً،
ثم انقلبَ الخليفة عليه، وسجنه،
فكان المعتصم بعد ذلك يقولِ:
الفضل بن مروان أسخطَ اللّٰه وأرضاني، فسلطني اللّٰه عليه!
قانون واحدٌ مهما نسيتَ فإياكَ أن تنساه:
من اشترى سخط اللّٰه برضى الناس، سخط اللّٰه عليه، وأسخط عليه الناس،
ومن اشترى غضب اللّٰهِ بسخط الناس، رضيَ اللّٰهُ عليه، وأرضى عليه الناس،
كل شخصٍ عصيتَ اللّٰه لأجله، عاقبكَ اللّٰه به،
وكل شيءٍ تركته للّٰهِ، أبدلَكَ اللّٰهُ خيراً منه،
كل بدايةٍ لا تُرضي اللّٰه، نهايتها لن ترضيكَ،
وكل لذة حرامٍ تركتها للّٰه، ستأخذُ بالحلال أضعافها،
ما كنا لنسمعَ بماشطة ابنة فرعون وهي مجرد خادمة في القصر،
إلا لأنها جعلت اللّٰه أولاً فكانت في الخالدين،
وما كان القرآن سيحدثنا عن سحرة فرعون بهذا الإجلال،
إلا لأنهم قدموا رضى اللّٰه على غضب فرعون،
إذا كان رضى اللّٰه في كفة، والدنيا كلها في كفة، اِختر اللّٰه!

80

كان «الإسكندر المقدوني»، الملك القوي الذي بسطَ نفوذه على أغلبِ العالمِ القديم،
مُحِبَّاً لأستاذه أرسطو،وكانتْ كلمة أرسطو عنده لا تنزل على الأرض.
وذات مرَّة عادَ الإسكندرُ من إحدى حروبه الطويلة،
وشكا لأستاذه، أنه وخلال الحرب الطويلة شعرَ بالملل،
إذ لم يكُن أحد من قادةِ جيشِهَ يستطيع أن يُناقشَ معه قضايا فلسفية،
وأنَّ كل ما يعرفونه شؤون الحرب فقط!
فاقترحَ عليه أرسطو أن يصطحبَ معه «كالستين»، التلميذ السابق له،
والفيلسوف الواعد الذي بدأ يشقُّ طريقه بعيداً عن أرسطو.
وكالعادةِ قَبِلَ الإسكندرُ اقتراحَ أرسطو وكأنه أمر، وأرسلَ في طلب «كالستين»،
ودرَّبه على بعض أدبياتِ الحاشية،
وما يجب أن يُقال في حضرةِ الملوك وما لا يجب أن يُقال.
ولكن «كالستين» وإن أبدى قبولَه بهذه المهمة، وأذعن «لإتيكيت» القصور،
إلا أنه كان في سِرِّهِ يُؤمنُ بالفلسفةِ المحضة، وبالكلامِ غير المُنَمَّق،
وكان يقول في نفسه إنَّ الإسكندر إن كان يُحب العلم والفلسفة،
فإنه لن ينزعجَ من رجلٍ يقولُ الحقيقة عارية من كل الدبلوماسية والتنميق.
وأثناء المسيرِ للحرب، كسرَ «كالستين» الحاجزَ بينه وبين الإسكندر،

وتحدثَ معه باستعلاءٍ أمام قادة جُنده،
كما يتحدثُ أستاذ مع تلميذه،
فأمرَ الإسكندرُ بقتله!

إنَّ الحزمَ الذي نجده في خطابِ سُليمان عليه السلام،
وتوعده عندما تفقّد الطير فلم يجد الهدهد مرجعه أنه
كان نبياً ملكاً!
ثمة خصال يشتركُ فيها المُلوك جميعهم،
وهذه لا علاقة لها بالمُعتقد، ولا بمُستوى الإيمان.
يكادُ الحزمُ وقوةُ الشخصيةِ أن يكونا في الملوكِ جميعاً!
تماماً كما الغيرةُ في النساءِ طبعٌ وفِطرةٌ ولا علاقة لها بمستوى
الإيمان!
وكما أن حُبَّ الأولادِ والمالِ فطرةٌ في الرجال!
الدينُ لا يُلغي هذه الفطرة وإنما يُؤدبها ويُهذبها،
فحزمُ الملك المؤمن يُقيده بالعدل، بينما الظالم لا قيد له!
ولن تجد أحزم من عمر بن الخطاب ولا أعدل منه!

الفكرةُ أن للسياسةِ أدبياتها، وللمناصبِ «بروتوكولاتها» التي يجب
أن تُراعى،
كون الملك يحبُ الصيدَ ويشتركُ فيه مع إنسانٍ من العامة ماهرٌ
فيه،

فهذا لا يجعل هذا الصياد الرجل الثاني في الدولة!
إنها صحبة ساعة فقط، وعليه قِسْ كُل المناصب،
فإن أُتيحَ لك الاقتراب من أهلِ الحُكم فلا تتجاوز حدَّكَ،
ستعرفُ حين لا تُفيد المعرفة أن الحُكم ليس له صديق إلا نفسه!

81

في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي:
قيل لأبي بكر الأبهري أن يتولى القضاء فأبى،
فقالوا: بمن تُشيرُ علينا،
فقال: بأبي بكرٍ الرَّازي،
فاستشار الرازي الناس، ومن بينهم الأبهري،
فقال له الأبهري: إياك أن تتولى القضاء!
فقيل له: تشيرُ علينا به، ثم تشيرُ عليه أن لا يتولى؟
فقال: أشرتُ عليكم به لأني لا أعرف أفقه وأتقى للّٰه منه،
وأشرتُ عليه أن لا يفعل لأنه أسلم لدينه!
ما أنبل أن يعترف الإنسان بمزايا الآخرين،
لأن هذا لا يُنقصُ من مزاياه، بل يزيدها،
وهذا خُلق الأنبياء، ومن قبل قال موسى عليه السلام:
«وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا»
وما أنبل أن يكون النصح لأجل اللّٰه!
هذا الشاب وسيم ولكنه لن يحفظَ عليكِ دينكِ،
وهذه الفتاة حسناء ولكنها لا تُناسبُكَ،
أنتَ كفء لهذه الوظيفة ولكن فيها حرام!
هذا منصب مرموق ولكن فيه ظلم للناس،
اجعلوا اللّٰه أولاً!

82

روى أبو نُعيم في الحلية، وابن عسكر في تاريخ دمشق:
إنَّ عمر بن الخطاب استعملَ على حمص سعيد بن حُذيم،
ولما جاء عمر إلى الشام، سأل أهل حمصَ عن سعيد،
فقال: يا أهل حمص كيف وجدتم عاملكم؟
فقالوا: نشكو منه أربعاً!
فقال عمر: وما هيَ؟
قالوا: لا يخرجَ إلينا حتى يتعالى النهار، ولا يجيبُ أحداً بليل،
وله يوم في الشهر لا يخرج إلينا فيه أبداً، وتأخذه إغماءة بين الفينة والأخرى!
فجمعَ عمر بينه وبينهم وهو يقول في نفسه: اللهم لا تُضيِّع فراستي في سعيد!
ثم قال للناس: ما تشكون منه؟
فقالوا: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار!
فقال سعيد: ليس لأهلي خادم، فأعجنُ لهم، وأنتظرُ حتى يختمر، ثم أخبزُ لهم، وأتوضأ، وأخرجُ للناس!
فقالوا: لا يجيبُ أحداً بليل!
فقال: جعلتُ لهم النهار، وجعلتُ الليل للّه، أقومُ بين يديه فيه!
فقالوا: وله يوم في الشهر لا يخرجُ إلينا فيه أبداً!
فقال: ليس لي خادم يغسلُ ثيابي، ولا ثياب أُبدلها، فأغسلها أنا، وأجلسُ أنتظرُ حتى تجف، ثم أخرج إليهم في المساء!
فقالوا: وتأخذه إغماءة بين الفينة والأخرى!

فقال: شهدتُ مصرع خُبيب الأنصاري بمكة، وقد قطعتْ قريشٌ له،
فقالوا: أتحبُّ أن محمداً مكانكَ؟
فقال: واللّهِ ما أحبُّ أني في أهلي وولدي وأن محمداً يُشاك بشوكة!
فما تذكرتُ ذلك اليوم، وتركي نصرته رغم أني على الشرك، إلا
أخذتني إغماءة!
فقال عمر: الحمدُ للّه الذي لم يُضيِّع فراستي في سعيد!

بعضُ الناس أنبل مما نعتقِدُ، ولكننا للأسف نحملُ ما جهلناه على
سوء الظنِّ،
وسوء الظنِّ وإن كان أحياناً من حُسن الفطن،
إلا أنَّ الذي لا يرى في الناس خيراً فهو أسوأ الناس!
في قرية نائيةٍ كان هناك رسام عجوز،
يجني كثيراً من المال من بيع لوحاته الجميلة،
وعابَ عليه بعض أهل القرية عدم مساعدته للفقراء فيها، واتهموه
بالبخل!
ولكنه لم يردَّ عليهم، وعندما ماتَ الرسام العجوز،
توقَّفَ لحَّامُ القرية عن توزيع اللحم على الناس بالمجان،
فلما سألوه عن السبب، قال: كان الرسام العجوز هو الذي يدفع
ثمن اللحم،
ولا قدرة لي على توزيعه مني!

وكان زين العابدين، عليُّ بن الحُسين، يحملُ الصَّدقات ليلاً على ظهره،
ويوصلها إلى بيوت الفقراء والأرامل في المدينة، ولا يعلمون من وضعها!
وكان يتولى هذا الأمر بنفسه، فلا يستعينُ بخادم ولا صديق،
حتى لا يدري بهذا الأمر أحد، وبقي على هذا الأمر سنوات،
وبموته لم يعد الفقراء والأرامل يجدون ما كان يجدونه عند أبوابهم،
فعلموا أنه صاحب الصدقات!

إنَّ الذي لا يحملُ صدقته ويطوف بها على الملأ لا يعني أنه لا يتصدق!
والذي لا يُصور نفسه حاملاً المصحف لا يعني أنه هاجر للقرآن،
والذي لا يُصور نفسه حاضناً زوجته لا يعني أنه لا يُحبها!
هناك أشخاص يغلقون الأبواب على أنفسهم، ولا يفتحون حياتهم على مصراعيها!
هناك أشخاص يتركون أشياء للّه، يخشون أن يُفسدها اطلاعُ الناس عليها، فافْهَمْ!

83

في كتاب طبقات الشافعية لابن الصلاح:
جاء في ترجمة أبي الحسين أحمد بن فارس اللغوي:
لما كان بقزوين كان يُصنَّفُ كل ليلة جمعة كتاباً،
يبيعه يوم الجمعة قبل الصلاة، ويتصدق بثمنه،
وكان هذا دأبه حتى مات!
اِجعَلْ لكَ صدقةً من جنس عملكَ،
فهذا من شُكر النِّعم، وحفظها من الزَّوال،
إن كنتَ طبيباً عالج ولو مريضاً واحداً بالمجان،
وإن كنتَ مُدرِّساً اجعل لكَ في الأسبوع ساعة واحدة،
تعيدُ فيها شرح مسألة لطالبٍ لم يفهمها،
وإن كنتَ صاحب مخبز تصدَّق كل يومٍ ولو برغيف،
وإن كنتَ صاحب بقالة تصدَّق ولو بقارورة ماءٍ على عامل،
وإن كنتَ محامياً فاجعل في الشهر قضية مجانية لمظلوم لا يملك سداد أتعابك، وبدون مرافعتكَ سيضيع حقُّه،
أنتَ أدرى بنفسكَ، اُنظر إلى العمل الذي وهبكَ اللّه إياه،
وستجد أن بإمكانك أن تُخرج صدقةً قليلةً من جنسه،
داوِمْ عليها، فإن أحب الأعمال إلى اللّه أدومها وإن قلَّ!

84

يروي الأديبُ الصيني «لي تزو» في كتابه «في المنظار الصيني»،
أنه كان للسيدِ «شيه» ولدان، أحدهما يُحِبُّ العِلم، والآخر يُحِبُّ
الحرب،
فقدَّمَ الأولُ تعليماتِهِ الأخلاقيةِ عند ملك «شئي» الذي أُعجبَ بها،
وعيَّنه وزيراً للتعليم.
وتحدَّثَ الثاني عن خبرتهِ العسكريةِ عند ملك «شؤو» فعيَّنه جنرالاً
في الجيش!
وعندما علمَ السيدُ «مينغ» بما ظفرَ به ولدا السيدِ «شيه»،
أرسلَ ولديه على خُطى ولدي «شيه»!
فعرضَ الأولُ تعليماتِه الأخلاقيةِ في بلاطِ ملكِ «شئي» القوي
والميَّال للحرب،
فقالَ الملك: إن الدول تتنازعُ بعنفٍ الآن، وكل ملك منهمك بتسليحِ
جيشه،
فإذا سمعنا لثرثرةِ هذا الشابِ عن الأخلاقِ والسلامِ فسنتعرضُ
للإبادة!
وأمرَ بجلدِ الشابِ مئةَ جلدة، وطردَهُ من المملكة!
وفي تلك الأثناء عرضَ أخوه على ملكِ «شؤو» عبقريته العسكرية.
فقالَ الملك: إن جيشي ضعيف، فإذا اعتمدتُ على القوةِ بدل
الدبلوماسيةِ،
فسوف نتعرضُ لِلمحقِ بسرعة،
وإذا تركتُ هذا الشاب العسكري يذهبُ إلى ملكٍ قوي،

فسوف يستفيدُ من خبرته، ويُسرِعُ في سحقنا!
فأمرَ بقتلِ الشابِ خوفاً من شره!

لا يكفي أن تملكَ البراعة في مجالٍ ما لتنجح،
عليكَ أن تعرفَ أين ومتى وكيف تضعُ هذه البراعة!
فعلى سبيلِ المثالِ إن الشعراء العرب، الذين كانوا يحصلون على أموالٍ طائلةٍ،
من مُسَامَرَةِ الخُلفاء، ومن سِجالاتهم الشعرية في البلاط،
كانوا سيُعلَّقون على أعوادِ المشانقِ لو قَرضوا شِعراً عند «جنكيز خان»،
والسبب أن الخلفاء كانوا شغوفين بالشِعر، يُقَدِّرون منزلته،
ويتذوَّقون بلاغته،
أما «جنكيز خان» فكانَ همجياً لا يفكر أبعد من سيفه!

تجني شركاتُ مستحضراتِ التجميلِ ملياراتِ الدولاراتِ كل عام،
ولكننا لو نظرنا أين تبيعُ هذه الشركاتُ منتجاتها لعرفنا السبب،
لا يُوجد فرعٌ واحدٌ لكريستيان ديور، أو شانيل، أو إيف سان لوران، أو ريفلون،
في كابُل، ولا مقديشو، ولا كراتشي، ولا داكار،
لأنَّ سُكان هذه المُدن بالكادِ يجدون اللُّقمة،

إن الرفاهية تُباعُ في أماكن محددة، تعرفُ هذه الشركات أين ولمن تبيع!

من أمثالِ العربِ الشهيرةِ التي يضربونها عن الجهلِ بالسوق: كجالبِ التمرِ إلى هجر!

وهجر مدينة كانتْ كثيرة التمر، بحيث لو جاءَ تاجرُ تمرٍ إليها، فلن يبيعَ تمرةً واحدةً، بينما كانتْ تُوجدُ أماكن تجارة التمر فيها، أشبه بتجارةِ النفطِ اليوم!

85

في كتاب أنساب الأشراف لبلاذري أحمد بن يحيى:
قال سفيان بن عُينية:
للّه در سفيان الثوري، بلغني أنه قال:
عجباً لرجل يعرف مودة صاحبه له خمسين سنة،
ثم يأتيه رجل لا يعرفه، فيخبره عنه بسوء، فيقبل ذلكَ منه!
من عجائب الدنيا أن تعرفَ الناس معادن بعضها جيداً،
فإذا ما دخلَ بينهم الوشاة صدَّقوهم،
وأنكروا ما تحفظه قلوبهم عن ظهر قلب،
ويمكث الأخوان سنين طويلة في بيتٍ واحدٍ،
القلب على القلب، لعبا معاً، وضحكا معاً، وبكيا معاً،
بينهما ذكريات حلوة، ورفقة طفولة، وسن مراهقة، ودعم شباب،
وفي عروقهما يجري دم واحدٌ لن يصير يوماً ماءً،
ثم تأتي زوجة أحدهما لتقنعه أن أخاه سيء ولا يُحبُّه فيقتنع،
ويأتي زوج إحداهما ليقنعها أنه ليس في أختها خير فتصدقه،
من أرادكَ قاطعاً للرَّحمِ لا يُؤتمن، ومن حرَّضكَ على أهلكَ لا ذمّة له،
غضبَ أعرابيَّ من صاحبه،
فسأله: ما أغضبكَ مني؟
فقال له: شيء نقله أحد الثقات عنك إليَّ،
فقال: لو كان ثقةً ما نمَّ!

86

روى البخاري في باب المغازي، ومسلم في باب الإمارة:
إن أنس بن مالك قال: غاب عمي أنس بن النَّضر عن قتال بدر،
فلما عاد النبيُّ ﷺ إلى المدينة،
قال عمي: غبتُ في أول قتالٍ قاتله رسولُ اللّه ﷺ المشركين،
إن أشهدني اللّه عزّ وجل قتالاً ليرينَ اللّه ما أصنع!
فلما كان يوم أُحد انكشف الناسُ،
فقال: اللهم إني أبرأُ إليكَ مما فعل هؤلاء، يعني المشركين،
وأعتذرُ إليكَ مما فعل هؤلاء، يعني المسلمين!
ثم مشى بسيفه يُقاتل، فلقيه سعد بن معاذ فقال لسعد:
أي سعد، والذي نفسي بيده إني لأجدُ ريح الجنة دون أُحد، واهاً لريح الجنة!
قال سعد: فما استطعتُ أن أصنعَ ما صنعَ.
ثم وجدناه في القتلى، به بضعٌ وثمانون جراحة من ضربةٍ بسيفٍ،
وطعنةٍ برمحٍ، ورميةٍ بسهم، وقد مثَّلوا به،
فما عرفناه، حتى عرفته أخته بعلامةٍ في بنانه!
فأنزل اللّه فيه ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾

وأنتَ، إن كنتَ قد عاهدتَ اللّه بعهدٍ أن تقوم لأجل رضاه بطاعةٍ فقُمْ بها،
وإن كنتَ قد عاهدته أن تترك معصيةً لأنك تخاف سخطه فلا تعُدْ لها،

فإنَّ الآية ما زالت مفتوحةً على مصراعيها،
ولن تُغلق حتى تخرج الشمس من مغربها!
فكُنْ من الذين صدقوا ما عاهدوا اللّٰه عليه!

إنْ كنتَ عاهدتَ اللّٰهَ أنه إن أنجاكَ من هذا المأزق الذي أنتَ فيه، أنكَ ستكون له نِعمَ العبد بعدها، فإياكَ إن تكرَّمَ عليكَ، أن تحنث أنتَ بوعدك!
هذا مع العلم أن اللّٰه لا يُشترطُ عليه، إن أدى لنا ما نريدُ أدينا له ما يريدُ،
فهو يُطاع بكل حالٍ، ساقَ لكَ ما تُحبُّ، أو قضى عليكَ بما تكره،
ما أنتَ إلا عبد، والعبدُ ملكٌ لسيده!
ولكن العصيان مع النعمة أشدّ من غيره، والإساءة بعد الإحسان أفظع من غيره،
والحُرُّ تربطه كلمته، والوفاء من أخلاق الرجال، وليس كُلُّ ذَكرٍ رجلاً!

وإن كنتِ قد عاهدتِ اللّٰه أنه إن سترَ عليكِ أمراً،
لو انكشفَ ما طاق أحدٌ أن ينظُر في وجهكِ،
أن تكوني له أمته التي يُحبُّ،
أو أن يشفيك من مرضٍ أنهككِ، أن تكوني طَوع أمره،
أو أعطاكِ إجابةً لدعاءٍ كُنتِ تحسبينه مُحالاً،
أن تسابقي في الخيرات، وتتفوقي في العبادات،

فإياكِ إن فتحَ لكِ الباب أن تُغلقيه على نفسِك،
وإن تقرَّبَ منكِ بما تُحبين، أن تبتعدي عنه بما يكره!

ثم إننا جميعاً ضعفاء، نخطو ونتعثر، نطيعُ ونعصي،
نعاهدُ أن لا نعود ثم نعودُ، من ضعفٍ خُلقنا، وعلى نكثِ العهد جُبلنا،
ولا غرابة، فنحن أبناء الذي قال فيه ربه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾

من أخطأ فليستغفِرْ، ومن فاتته صلاة فليُؤَدِّها فوراً،
وليُتبعها بالنوافل،
ومن بخِلَ اليوم فليتصدَّقْ غداً،
ومن عصى ليلاً فليصلح نهاره، ومن عصى في نهاره فالليل للقيام أمامه،
ومن هجرَ القرآن أياماً فليعقِدْ معه موعِد رجعةٍ!
وسبحان من يعاملنا بما يليقُ به لا بما يليقُ بنا،
يسترنا وقد تجرأنا عليه، ويرزقنا وقد عصيناه،
ويُقربنا وقد ابتعدنا عنه، ولا يملُّ منا وإن بلغَ بنا الأمرُ أن نملَّ نحن من أنفسنا!

87

في كتاب وفيات الأعيان لابن خالكان:
جاء في ترجمة أبي عبد الله الجمَّاز أنه قال: أصبحتُ في يومٍ مطير،
فقالت لي امرأتي: أي شيءٍ يطيبُ في هذا اليوم،
فقلتُ: الطلاق!
فسكتت عني!
هذه الدنيا مليئة بقاتلي المُتعة، مفسدي اللحظات!
تُحضِرُ لأحدهم هديةً، وتنتظرُ منه ردة فعل جميلة،
فإذا هو باردٌ يقتلُ روح المبادرة فيك،
تتلطفُ إلى إنسانٍ، فيتصرف كأنكَ تشتمه،
يتفنن زوج بمفاجأة لزوجته، أو زوجة لزوجها،
فإذا ردة الفعل باهتة، والتفاعل كأنه قطعة ثلج،
هؤلاء يدفنون أجمل ما فينا، مشاعرنا!
نحن في الحُب لسنا فعلاً، وإنما ردة فعل،
الآخر قد يجعلنا نُحلِّقُ في السماء ونُقدِّم المزيد،
أو يقصَّ أجنحتنا، ويجعلنا نندم على المبادرة أساساً!

88

في كتابهِ «الخطايا السبع المُميتة» يروي «سولومون شيمل»،
أنَّ رجلاً طمَّاعاً ورجلاً حسوداً التقيا بأحدِ الملوك.
فقالَ لهما الملك: يَحِقُّ لكلِّ واحدٍ منكما أن يسألَني شيئاً، شريطة
أن أُعطيَ ضعفه للآخر!
لم يُرِد الحسود أن يكونَ هو السائل الأول،
لأنَّ هذا يعني أن يسمحَ للطمَّاعِ أن يحصلَ على ضعفِ ما
حصلَ هو عليه!
ولم يُرِد الطمَّاع أن يكون هو السائل الأول، لأنه كانَ يُريدُ أن يحصلَ
هو على الحصةِ الأكبر!
وأخيراً ضغطَ الطمَّاعُ على الحسودِ أن يكونَ هو البادئ.
فقالَ الحسودُ للملك: أُريدُ منكَ أن تقلعَ لي إحدى عينيَّ!

الحسدُ والطمعُ هما أصلُ الشرورِ في هذا العالم!
الحسدُ هو أول ذنبٍ عُصِيَ اللّه تعالى به في السماء،
حيثُ رفضَ إبليس السجودَ لآدم عليه السلام،
حسداً على المكانةِ التي حباه اللّه تعالى إياها!
والحسدُ هو أولُ ذنبٍ عُصِيَ اللّه تعالى به في الأرض،
حيثُ قتلَ قابيلُ أخاه هابيل،
لأنه أرادَ أن يتزوجَ المرأة الأجمل التي كانتْ من حقِّ أخيه!
وعن الحسدِ قالوا:

- الحسدُ يأكلُ الحاسدين كما يأكلُ الصدأُ الحديد/ أنتيستيس.
- إن الحسد يُطفئُ نورَ الحسنات/ أنس بن مالك.
- كلُّ الناس أستطيعُ أن أُرضيه إلا حاسد نعمة، فإنه لا يُرضيه إلا زوالها عني/ مُعاوية بن أبي سفيان.
- الحسدُ ألمٌ حارقٌ يفتكُ بهمةِ صاحبهِ ثم يفتكُ به/ ديوجينس.
- الحسدُ عاطفةٌ مُفعمةٌ بالجُبنِ والعارِ بحيث لا يجرؤ إنسانٌ على الاعترافِ بها/ روشستر.

أما الطمعُ فمُشكلته أنه جوعٌ في النفسِ لا يشبع، مهما شبعَ البطنُ تبقى النفسُ جائعة، ومهما امتلأَ الجيبُ تبقى العينُ فارغة!

وعن الطمعِ قالوا:

- ما الخمرُ بأذهبَ لعقولِ الرجالِ من الطمع/ عمر بن الخطاب.
- العبدُ حرٌ إذا قنع، والحرُ عبدٌ إذا طمع/ الشافعي.
- يا بُنيَّ إياكَ والطمع، فإنه فقر حاضر/ لُقمان الحكيم.
- الطمعُ كماءِ البحر: زِدْ منه شُرباً تزْدَد عطشاً/ مثل يوناني.
- من لزمَ الطمعَ عُدِمَ الورع/ مثل عربي.
- الطمعُ يجعلُ الأغنياءَ فقراء/ فرانكلين.

89

في كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي:
قال أبو عبد اللّٰه بن بشر:
ما رأيتُ رجلاً أحسن انتزاعاً لما أراد من آيات القرآن،
من أبي سهل بن زياد،
كان جارنا، وكان يديم صلاة الليل، وتلاوة القرآن،
فلكثرة مصاحبته للقرآن صار كأنه نصب عينيه،
ينتزع منه ما شاء من غير تعب!
كل من صاحبَ شيئاً استقرَّ في قلبه،
من الناس من يعرف الأغنية من أول اللحن،
ومن الناس من يكمل بيت الشعر من أول كلمة،
ومنهم من يكملُ الآية كأنه ينظرُ في المصحف،
ومنهم من يكملُ الحديث كأنَّ الصحيح بين يديه،
ومنهم من يعرفُ عن الممثلة أكثر مما يعرفُ عنها زوجها،
ومنهنَّ من تعرفُ عن المطرب أكثر مما يعرفُ عن نفسه!
هي اهتمامات، وفي القلبِ مصبُّها،
فانظروا بأيِّ شيءٍ تملؤون قلوبكم!

90

روى ابن الجوزيِّ في صفة الصفوة، وابنُ أبي شيبة في مصنفه:
إنه لما حضرتْ أبا موسى الأشعري الوفاة، قال:
يا بَنِيَّ، اذكروا صاحبَ الرَّغيف، إنه رجل
عبد اللّه في صومعته سبعين سنة،
لا ينزلُ في العام إلى الناس إلا يوماً واحداً،
فزيَّنَ الشيطانُ في عينه امرأةً، فكان معها بالحرام سبعة أيام،
ثم تذكر عبادته وصلاحه، فتركَ بلده وخرجَ تائباً،
وكان كلما خطا قليلاً صلى وسجد،
فآواه الليل إلى مكانٍ فيه اثنا عشر مسكيناً، فأدركه التعب،
فرمى نفسه بين رجلين منهم.
وكان هناك راهبٌ يمرُّ بهم كل ليلةٍ ويعطي كل واحدٍ منهم رغيفاً،
ومرَّ عليهم، فحسبَ التائب منهم، فأعطاه رغيفاً.
فقال الذي لم يأخذ رغيفاً للراهب: ما لكَ لم تعطني رغيفي الليلة؟
فقال له: أتراني أمسكته عنكَ، سل أصحابكَ هل أعطيتُ أحداً
منهم رغيفين؟
فقالوا: لا.
فقال: واللّهِ ما معي أرغفة إلا بعددكم!
فعمدَ التائبُ إلى الرَّغيف الذي دفعه إليه الراهب، فأعطاه إلى
الرجل الذي لم يأخذ.
وأصبحَ التائبُ ميتاً!

فوُزِنت السبعون سنةً في العبادة بالليالي السبع في الزنى،
فرجحت بهنَّ ليالي الزنى،
ثم وُزنتِ ليالي الزنى بالرغيف، فرجح بهنَّ الرغيف.
فقال أبو موسى: اذكروا صاحبَ الرَّغيف!

ما عُبدَ اللّٰه تعالى بشيءٍ أحبُّ إليه من جبر الخواطر،
وقضاء الحوائج، وحفظ الكرامات، وإقالة العثرات!
هذا لأنَّ كل هذا من صنيعه سبحانه لعباده،
ومن صنعَ لعباده مثل صنيع ربهم لهم، رضيَ اللّٰه عنه وأرضاه،
فإن كان التشبه بالكرام من الناس فلاحٌ،
فإن مراقبه إحسان اللّٰه لعباده، ومحاولة فعل شيءٍ من هذا
الإحسان لهم رأس الفلاح!

ما أدراكَ كيف تكون الموازين غداً، وأيُّ شيءٍ يرجحُ، وأيُّ شيء
يذهبُ هباءً!
ما أدراكَ أن عُلبة الدواء تشتريها لمريضٍ فقير كل شهرٍ بالسِّر،
لا تُطلعُ أحداً عليها، ترجحُ بالميزان بكل معاصيكَ!

ما أدراكَ أن الدَّين الذي تقضيه عن متعثرٍ في الدنيا،
وليس في قلبكَ من نيةٍ غير أن يقضيَ اللّٰه تعالى دينكَ عنده،
تشتري به جنةً عرضها السماوات والأرض!

ما أدراكَ أن معصية فلانةٍ التي وصلتكَ فسترتها،
وليس في قلبكَ إلا أنكَ ترجو أن لا يفضحكَ يوم القيامة على رؤوس الخلائق،
فيعطيكَ ما ترجو، ويكون موقف واحدٌ هو فكاك رقبتكَ من النار!

ما أدراكَ أنَّكَ تُسلِّمُ على العامل البسيط في الشركة،
وتبتسمُ في وجه عامل المحطة، وكنَّاس الطريق، وتتغافل للبائع المسكين عن بعض الثمن،
وتُكرم الكبير في المسجد كأنه أب، والعجوز من الجارات كأنها أم،
وليس في نيتك إلا أن تجبر خواطرهم مقابل أن يجبرَ اللّٰه خاطركَ،
بلا سابقة حساب ولا عذاب، فيتحننُ عليكَ، ويتكرمُ،
ثم يُنادي يوم القيامة ملائكته فيقول:
ظنَّ عبدي هذا بي خيراً، وأنا عند ظنِّ عبدي، خذوه إلى الجنة!

ما أدراكَ أنكَ حين تنصح العاصي بلطفٍ،
وتعظُ السافرة بأدبٍ، وتُقوِّم الاعوجاج بأسلوبٍ عذبٍ،
وليس في نيتكَ إلا أن تُحبب الناس بربهم، فيُحبَّكَ، ويا سعدَ من أحبَّه اللّٰه!

91

تقولُ الوثائقُ الرسمية أنّ اسمه هو «إدسون أرانتيس دو ناسيمنتو»!
أما ملاعب كرة القدم فتقول إن اسمه «بيليه»!
الجوهرة السوداء كما يُلقَّب، وأفضل لاعبٍ في تاريخ اللعبة كما يزعمون!
كان في العاشرة من عمره حين استضافت البرازيل بطولة كأس العالم،
لم يكن شغوفاً باللعبة أبداً،
وحتى أنه لم يشاهد المباراة النهائية التي جمعت بين البرازيل والأورغواي!
وعندما عاد إلى المنزل وجد أباه يبكي بمرارة، فعلمَ أن الأورغواي فازت باللقب!
اقتربَ من أبيه ببراءة الأطفال ومسح دموعه، وقال له بعهد الرجال:
سأجلبُ لكَ هذه الكأس يوماً ما!
لم يفِ «بيليه» بوعده مرَّةً واحدة، وإنما ثلاث مرات!
فاز بكأس العالم أعوام 1958، 1962، 1970!
وهو الوحيد في التاريخ الذي يحمل هذا الإنجاز، وعلى ما يبدو أنه سيبقى وحده!
كان «بيليه» يحلمُ أن يصبح طياراً، ولكن دمعة والده جعلته الأسطورة التي نعلمها!
ثمة لحظات فارقة في حياة الناس لا تعود الحياة بعدها كما قبلها!
وليس أقوى من الحزن، وانكسار القلب، على هذا التحول!

راسلني مرةً أحد القراء يقولُ شيئاً جميلاً بلغةٍ عاميةٍ،
أعيدُ صياغته أنا بلغةٍ فصيحةٍ -على ما أظنُّ-:
بكيتُ يوماً فضمتني حبيبتي، ثم ذهبتُ بعد ذلك لتفعل ذاك الأمر الذي أبكاني!
فعرفتُ وقتها أن الإنسان لا يهونُ على الآخرين إلا عندما يهون على نفسه أولاً،
فقررتُ أن لا أهون بعدها، وأن أكون وحيداً بكرامتي،
أفضل من أن أكون معها مثيراً للشفقة!
كانت تلك الدمعة التي ذرفتُها كالصفعة التي أيقظتني،
وجعلتني أسألُ: أحقاً هذا أنا؟!
والآن بعد أن تعافيتُ، وجدتُ أن القوة في التخلي لا في الإمساك!
فأقسمتُ أن أعيش حياتي من اليوم
فصاعداً دون أن أهون على نفسي،
أما هي فما زلتُ أحبها، وسأبقى،
ولكن لو لم يبق غيرها على وجه الأرض فلا أريدها!

أما أنا فأقول:
لحظات الفرح كالمقاهي، مكان جميل، إجازة من ضوضاء الدنيا ومسؤولياتها،
ولكنه لا يُعلِّم شيئاً!
أما لحظات الحزن وانكسار القلب كالمدارس،
مكان غثيث، يأخذك من الدنيا ويصلبكَ على مقعد!

ولكنه المكان الأمثل للتعلم!

فإياكم أن تسمحوا أن تُكسر قلوبكم مرتين!

92

يقول ابن حزم في كتابه طوق الحمامة:
سألني يوماً أبو عبد الله محمد بن كليب من أهل القيروان،
وقد جرى ذِكر بعض الحب ومعانيه، فقال لي:
إذا كره من أُحبُّ لقائي، وتجنَّب قربي، فماذا أصنع؟
قلتُ: أرى أن تسعى في إدخال الروح على نفسك بلقائه وإن كره!
رحمَ الله ابن حزمٍ كان له في طوق الحمامة كلامٌ جميل في الحُب،
غير أني في هذه أرى عكس ما يرى،
أنا لا تهون عليَّ العِشرة، ولا أتركُ أحداً بسهولة،
وإن أغلقَ أحدٌ أُحبُّه عليَّ الباب، جئته من النافذة،
ثم لما تصل الأمور إلى طريق مسدود فكرامتي أكبر من قلبي،
وما تركتُ شخصاً أُحبه في حياتي ابتداءً،
كل شخصٍ سقط مني لم يكن ممسكاً بي جيداً،
ولم يحدث أبداً من قبل،
أن سقط مني شيء ثم انحنيتُ لألتقطه!

93

روى ابن عساكر في تاريخ دمشق، وابن أبي الدنيا في مواعظ الخلفاء:

إنَّ أبا جعفرٍ المنصور أرسل في طلب الإمام الأوزاعيّ، فأتاه، فسلَّمَ عليه بالخلافة.

فردَّ المنصور السلام، وقال له: ما الذي أبطأكَ عني يا أوزاعيَّ؟

فقال الأوزاعيّ: وما الذي تريده يا أمير المؤمنين؟

فقال: أريدُ الأخذ منكم، والاقتباس عنكم.

فقال له: فلا تجهلْ شيئاً مما أقوله لكَ!

فقال المنصور: وكيف أجهله وأنتَ تريدُ أن تخبرني به؟

فقال له: أن تسمعه فلا تعملَ به!

فصاح الربيع وزير المنصور بالأوزاعيِّ، وأمسكَ سيفه،

فانتهره المنصور، وقال له: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة!

فارتاح الأوزاعيُّ لهذا، وقال: يا أمير المؤمنين،

حدثني مكحول عن عطية بن بشر، أنَّ رسول اللّه ﷺ قال:

أيما عبدٍ جاءته موعظة من اللّه في دينه، فإنها نعمة من اللّه سيقت إليه،

فإنْ قَبِلها بشُكرٍ، وإلا كانت حُجةً عليه، ليزداد باللّهِ إثماً، ويزداد اللّه بها عليه سخطاً!

يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن عطية بن بشر،

أن رسول اللّه ﷺ قال:

أيما والٍ باتَ غاشاً لرعيته حرَّم اللّه عليه الجنة!

كلُّ واحدٍ فينا والٍ وله رعية بطريقةٍ أو بأخرى!
الحاكم مسؤول عن الناس، يعدِلُ بينهم، ويسهر على مصالحهم، ويحفظ عليهم دينهم، فإن فعلَ كان ممن يظلهم الله تعالى يوم لا ظلَّ إلا ظله.
لما كان يوم عرفة، نظر سليمان بن عبد الملكِ في الناس فاستكثرهم،
فقال لعمر بن عبد العزيز: هؤلاء كلهم رعيتي!
فقال له عمر: وكلهم خصمُكَ يوم القيامة!

والوزيرُ مسؤولٌ باختيار أكفأ الموظفين، وتنفيذ أنجح المشاريع،
وتسهيل حياة الناس الذين تطالهم صلاحيات وزارته،
فإن قامَ بالأمر كما يجب بُعِثَ يوم القيامة مؤدياً لأمانته، حافظاً لثغره!

والمديرُ مسؤول أن لا يُحابي موظفاً على حساب آخر،
وأن لا يُحمِّلَ الناس ما لا يطيقون، وأن لا يكتب في تقاريرهم السنوية غير العدل فقط، فلا يمدحُ فاسداً، ولا يبهت مجتهداً!

والأب مسؤول أن يُحصِّلَ قوت عياله ومعاشهم،
ولا يكتفي بهذا فقط، لأنَّ هذا اسمه الإعالة، فلا بُدَّ من التربية، وهي غرس القيم والمبادئ، والتنشئة الصالحة، والتدرب على الدين والعبادات،
وأن يكون في نفسه قدوة، لأن الأولاد لا يسمعون ما نقول، وإنما

يرون ما نفعل!

والأم مسؤولة في أن تقوم بشؤون بيتها،
وأن لا تُعير سمعها وعقلها لمخربي البيوت،
فمنذ متى كانت البيوت تقوم على الحق والواجب!
إنها لا تستقيم إلا بالتراحم والود، والبذل والعطاء،
الكل يضحي للواحد، والواحد يضحي لأجل الكل،
على أن للأم دوراً أسمى من كل هذا،
فإنها قبل كل شيء صانعة الأجيال، وحارسة القيم، وخط الدفاع الأول!

كل واحدٍ منا والٍ وله رعية، التاجر والٍ، والطبيب والٍ،
وصاحب محطة البنزين والٍ، والميكانيكي والٍ،
كل مجالٍ من مجالات الحياة له قيم ونُظُم، وأمانة تُؤدى أو خيانة تُقترف،
﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ .

94

في رواية الخبز الحافي لمحمد شكري:
قال عن موت أُمه:
عندما ماتت أمي لم أبكِ،
كان الحزن أكبر من تصريفه عبر الدموع!
وصدقَ واللّٰهِ صاحب الخبز في مقولته ثمة أحزان لا تُبكى،
وحتى وإن بكيناها فلن نبكيها كما تستحق،
ثمة خسارات لو أردنا أن نبكيها كما يليق بها لبكيناها دماً لا دموعاً،
ثمة نيران في الصدر لا تطفئها بحار العالم كله فكيف بدمعه،
ثمة خيباتٌ لا شيء قادر على إعادة الثقة إلينا بعدها،
ثمة انكسارات تعجزُ الدنيا كلها عن ترميمها،
ولكن على الإنسان أن يعطي جرحه حقَّه من الدمع إن استطاع،
إنَّ في البكاء راحة، وأن ينزَّ الإنسان أفضل من أن ينفجر!

95

يروي الهنودُ في حكاياتهم الشعبية:
أنَّ الغربان وطيور الِحدآن قد اتفقوا فيما بينهم على،
تقاسمِ كل شيءٍ يتمُّ الحصول عليه في الغابةِ مُناصفة.
وذات يومٍ شاهدوا ثعلباً جرحه الصيادون مُضطجعاً بلا حولٍ ولا قوةٍ تحتَ شجرة،
فتجمهروا حوله!
قالت الِحدآن: سنأخذُ النصف العلوي من الثعلب
وقالتْ الغربان: حسناً، نحن سنأخذُ النصف السفلي منه!
عندها قالَ الثعلبُ: كنتُ أعتقدُ أن الغربان أذكى من الحِدآن،
ولكن تبيَّن الآن لي العكس، لقد تمَّت خديعتهم،
فهم أَوْلى بالنصفِ العلوي الذي فيه رأسي ودماغي، وهما أطيب شيء فيَّ!
فقالتْ الغربان: هذا صحيح، لقد تمَّ خداعنا، يجب أن نأخذَ القسم العلوي من الثعلب.
وقالتْ الحِدآن: هذا لن يحصل، لقد اخترنا القسم العلوي أولاً!
ونشبَ قتال بين الطرفين، ماتَ فيه الكثير،
ومن خرجَ حياً فقد خرجَ إما جريحاً أو مُنهكاً.
وبقيَ الثعلبُ هناك أياماً يأكلُ ضحايا المعركةِ التي أشعلَها بين الطرفين،
حتى استعادَ عافيته وقوته، ومضى في سبيله!

لم يعرف التاريخ مُحاربين أبسل من العرب في الجاهلية،
ولكنهم لم يكُن يُحسب لهم حساب لأنَّ بأسهم وبسالتهم كانتْ بينهم،
يتقاتلون على الكلأ والماء، ويغزو بعضهم بعضاً،
وتدورُ الحربُ بين أبناءِ العمومةِ أربعين سنةً بسببِ سباقِ النوق،
وما خبر داحس والغبراء، وحرب البسوس منكم ببعيد!
وعندما جاءَ الإسلامُ العظيمُ وجمعَ هذه الأمة المُتناحرة تحت رايةٍ واحدةٍ،
وأدَّبَ هذه البسالة بأدبِ العقيدة،
وحوَّل السيف من غايةِ الحصولِ على العشبِ والماءِ إلى جنةٍ عرضها السماء والأرض،
وجعلَ الدم الذي كان يرخصُ للثأرِ يرخصُ لتكون كلمة الله هي العُليا،
تحطمتْ بفتراتٍ قياسيةٍ، ومُددٍ قصيرةٍ أمامهم الإمبراطوريات!

وما أشبه اليوم بالأمس، أُمَّةٌ في أعماقها مارد يتوقُ لينبعث من جديدٍ،
يقفُ في وجهه فرقة وخلافات هنا وهناك،
يُزكي نارها أعداؤنا ويصبُّون الزيتَ على نارِ خلافاتنا،
التي لو نظرْنا إليها لوجدناها خلافات تافهة،
على دُنيا لن تأتينا راكعة إلا إذا كُنا يداً واحدة!

96

في شرح صحيح البخاري لابن بطال:
قال أبو هريرة: حفظتُ عن النبيِّ ﷺ وعاءين،
فأما أحدهما فقد بثثَه، وأما الآخر فلو بثثَه قُطِعَ هذا البلعوم،
قال ابن بطَّال مُعلِّقاً:
يُستفاد أنه ينبغي لكل آمرٍ بالمعروف،
إذا خاف على نفسه في التصريح أن يُعرِّض!
وأقولُ: هذه رخصة حسنة فيها رحمة من الشَّارع الحكيم،
غير أنه- واللّه أعلمُ- لهذه الرخصة ضوابط،
فلو أن كل من خشيَ على نفسه سكت عن كلمة الحق،
ما قام للناس دينٌ ولا دُنيا،
وإذا تعلَّقَ أمر الناس كلهم برجل واحدٍ،
فليس له أن يأخذ الرخصة، ولا أن يلجأ إلى المعاريض،
ولو أخذ أحمد بن حنبل بالرخصة لربما كنا اليوم معتزلة،
ولكنه لما علِمَ أن الناس ينظرون إلى ما يقول ليقولوا به،
احتملَ السجن، والجَلْد، والإقامة الجبرية بعد ذلك في البيت،
فحفظَ اللّه تعالى به دينَ أُمّةٍ كاملة!

97

روى البيهقيُّ في شُعب الإيمان وابن عساكر في تاريخ دمشق:
إنَّ أبا جهم بن حُذيفة قال: انطلقتُ يوم معركة اليرموك أطلبُ ابن عمي،
ومعي شربة ماء، فقلتُ: إن كان به رمقٌ سقيته من الماء، ومسحتُ وجهه،
فإذا أنا به في النزع الأخير، فقلتُ: أسقيكَ؟
فأشار أنْ نَعم.
فإذا رجلٌ يقولُ: آه
فأشار ابن عمي: انطلقْ بالماء إليه!
فانطلقتُ، فإذا هو هشام بن العاص أخو عمرو، فقلتُ: أسقيكَ؟
فأشار أنْ نَعم.
فسمعَ آخر يقول: آه
فأشار إليَّ انطلقْ بالماء إليه!
فجئته، فإذا هو قد ماتَ، ثم رجعتُ إلى هشام، فإذا هو قد مات،
ثم أتيتُ ابن عمي، فإذا هو قد ماتَ!

الإيثار خلقُ النُبلاء إذا تعلَّقَ الأمر بتبدية الآخرين بالأشياء عن النفس،
أما إذا كان الإيثار بالنَّفس ذاتها، فهنا يسكتُ الكلامُ، وتصمتُ اللغة!
في الطريق إلى المدينة، في تلك الرحلة التي غيَّرتْ وجه هذا الكوكب،

كان أبو بكر يمشي تارةً بين يدي النبي ﷺ ساعةً، وخلفه ساعةً،
حتى فطِنَ النبيُّ ﷺ له، فقال: يا أبا بكرٍ،
ما لكَ تمشي ساعةً بين يديَّ وساعةً خلفي؟
فقال: يا رسول اللّٰه، أذكُرُ الطَّلبَ فأمشي خلفكَ، وأذكرُ الرَّصدَ
فأمشي أمامكَ!

ولما كان يوم أُحد، وانهزمَ المسلمون عن النبيِّ ﷺ،
وقف أبو طلحة بين يديه، وكان رجلاً رامياً، انكسرَ بين يديه يومئذٍ
قوسين،
وكان الصحابيُّ يمرُّ به ومعه جعبة النبل فيقول: أنثُرها لأبي طلحة
فهو أمهر!
ويرمي أبو طلحة ويذود عن النبيّ ﷺ،
فيقفُ النبيُّ ﷺ ليرى أين أصاب نبلُ أبي طلحة،
فيقولُ له أبو طلحة: بأبي أنتَ وأمي يا رسول اللّه، لا تُشْرِف،
فيصيبك سهمٌ من سهام القوم، نحري دون نحركَ!

وفي العودة من غزوة أُحد، جاءت امرأة من الأنصار من بني دينار،
تستطلعُ أخبار الجيش، فقيل لها: استُشهد زوجُكِ وأخوكِ!
فقالتْ: ما فعلَ رسول اللّٰه؟
قالوا: هو بخير.
فقالتْ: أروني أنظُر إليه.
فلما رأته قالت له: كل مصيبةٍ بعدكَ جلَلَ/ هيِّنة وصغيرة!
شيءٌ من الخيال واللّٰه، وضربٌ من ضروب المُحال،
يا لهذا الدِّين إذا تمكَّنَ من قلوب الناس!

98

في كتاب تاريخ الإسلام للإمام الذهبي:
جاء في ترجمة نور الدين شيركوه:
كان عاقلاً حازماً، فلما أخذ هولاكو الشام، اتصل بالتتار،
وزيَّنَ للملك الناصر التوجه إلى هولاكو، وتوجه معه،
فلما قدموا على هولاكو أحسن إليهم وأكرمهم،
ولما بلغه هزيمة التتار في عين جالوت غضبَ وقتلهم جميعاً!
هذا هو مصير من يعين عدوه على قومه مهما كان قومه،
الذين يعملون ضدَّ أوطانهم لا يحترمهم أحد،
حتى أولئك الذين يُشغّلونهم لا يثقون بهم،
فمن خان وطنه فلن يكون مخلصاً لأحد،
والخائن يحسبُ أن سيده الغريب صديقه،
وفي الحقيقة ما هو في عين السيد الغريب إلا ورقة لعب!
بعد هزائم عدة لنابليون في النمسا قرر أن يُغير استراتيجيته،
عثر على ضابط نمساوي وأقنعه أن يفشي له أسرار الجيش،
وبالفعل استطاع نابليون الانتصار أخيراً بفضل هذا الضابط،
بعد المعركة ألقى نابليون للضابط كيس نقود على الأرض،
فقال له الضابط: كنتُ أطمحُ أن أصافح يد الإمبراطور،
فقال له نابليون: المال لأمثالك، أما يدي فلا تصافح من خانَ وطنه!

99

يروي «جيمس ثورير» في كتابه «كرنفال»،
قصةً عن بومةٍ كانتْ تجلسُ على غصنِ شجرةٍ في ليلةٍ شديدةِ الظُلمة،
فأرادتْ حيوانات الخُلد أن تتسللَ تحت جنح الظلام معتقدة أنه لن يراها أحد،
ولكن البومة صرختْ بهم قائلة: أنتم، توقفوا مكانكم!
عادتْ حيواناتُ الخُلد، وأخبرتْ بقية الغابة أنَّ البومة أعقل الحيوانات وأعظمها،
إنها تستطيع أن ترى في الظلام.
أرادتْ الحيوانات أن تختبرَ هذا، فأرسلتْ قرداً في الليلةِ التالية،
ورفعَ إصبعين من أصابعه وقالَ للبومة: كم إصبعاً أرفع؟
فقالتْ: اثنين!
عادَ القردُ إلى الحيواناتِ وأخبَرَهم أن البومة يجب أن تكون زعيمتهم!
ولكن الثعلب سألهم: وهل تستطيعُ أن ترى في النهار؟
سخرَ منه الجميع وقالوا: إذا كانتْ تستطيعُ أن ترى في الليل فكيف بها في النهار،
وتمَّ طرد الثعلب من الغابةِ لتطاوله على ملكتهم القادمة!
وفي الصباحِ جاءتْ الحيوانات لمُبايعةِ البومة،
وطلبتْ منها أن تمشيَ معها حيث عرشها بانتظارها،
مشت البومةُ تتحسَّسُ طريقها ولا تكاد ترى لأن الشمس كانتْ

ساطعة،
وكانتْ تفتحُ عينيها على وسعها، وتمشي ببطءٍ شديدٍ خشيةَ أن تصطدمَ بشيء،
فاعتقدت الحيوانات أنَّ هذا من الوقار، حتى أنَّ دجاجة صرختْ وقالت:
هذه البومة أعظم من ملكة، أعظم بكثير!
وعندما أرادوا عبور الشارع، لمحتْ الحيواناتُ شاحنةً قادمةً من بعيد،
فسارعتْ في الهرب، غير أن البومة كانتْ شبه عمياء تماماً،
ولم تهربْ لأنها لم ترَ الشاحنة أساساً،
ولوهلةٍ اعتقدت الحيوانات أن البومة ستتمكنُ من إيقاف الشاحنة!
ولكن سرعان ما رأوا أن الشاحنة ما زالتْ تتقدمُ بسرعةٍ،
حتى دهست البومة ومزَّقتها أشلاءً!

الفكرةُ أن موهبة إنسانٍ في مجالٍ ما ونُبوغه فيه،
لا يعني أنه بالضرورة قادر على أن يكونَ رجل دولة!
أبو ذر من أزهد الناسِ بالدنيا، وأصدقهم لهجةً في لسانه، ونقاءً في قلبه،
ولكن النبيَّ ﷺ أَمَرَهُ أن لا يحكم بين اثنين، ولا يتولينَّ مال يتيم،
ذاك أن التقوى شيء والحُكم شيء آخر، وإن
اجتمعا في الحاكم فنورٌ على نور!

خالدُ بن الوليد أصلح للجيش من عُمر بن الخطاب،
ولكن ألف خالد لا يُبلون في الحكم بلاء عمر!

هذه الدنيا اختصاصٌ بالدرجة الأولى،
الطبيبُ الماهرُ ليس بالضرورة رئيس بلدية ناجح،
والداعيةُ التقيُّ المُتقنُ قد لا يصلح أن يكونَ وزيراً،
لهذا يُعجبني قول محمد متولي الشعراوي حين قال:
أتمنى أن يصلَ الدين إلى أهل الحُكم، لا أن يصلَ أهلُ الدين
إلى الحُكم!

100

يقول أديب الفقهاء الشيخ علي الطنطاوي في كتابه الذكريات:
أنا رجل مشتغل بالأدب منذ خمسين سنة،
أكتبُ، وأنشرُ، ولي صفحات لا يستطيع أعدى الأعداء،
أن يُنكر أنها من جيد الأدب،
ولكني مع هذا أقول:
لعنة اللّه على الأدب والشعر، والفن، إذا كان لا يجيء إلا،
بذهاب الدين، وفقد المروءة، وضياع العفاف، وهَتك الأعراض!
وصدقَ واللّهِ الشيخ رحمه اللّه!
كل حرفٍ نكتبه إنما نكتبه في صحائف أعمالنا،
وكل كلمةٍ نكتبها تدونها الملائكة،
وكل جملةٍ نكتبها نحن موقوفون أمام اللّهِ بسببها،
لن تنفعكَ دار النشر التي تقول لكَ:
اِرفعْ مستوى الإباحيّة في الرواية هذا أفضل للمبيعات،
ولن ينفعك لا عدد الإعجابات ولا المشاركات ولا كمية التصفيق،
ستُدفنُ وحدكَ، ولن يغني أحدٌ من هؤلاء عنك شيئاً،
وتأمل معي قول النبيِّ ﷺ كما في البخاري:
إنَّ العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان اللّه تعالى ما يُلقي لها بالاً،
يرفعه اللّه بها درجات!
وإنَّ العبدَ ليتكلم بالكلمة من سخط اللّه تعالى ما يُلقي لها بالاً،
يهوي بها في جهنَّم!

101

روى الذهبي في السِّير، وابن الجوزي في صفة الصفوة،
وابن عساكر في تاريخ دمشق:
إنَّ إبراهيم بن بشار قال: كنتُ يوماً من الأيام ماراً،
مع إبراهيم بن أدهم في صحراء، إذ أتينا على قبرٍ عليه علامة.
فترحَّمَ عليه وبكى!
فقلتُ: قبر من هذا؟
فقال: هذا قبر حميد بن جابر أمير هذه المدن كلها،
كان غارقاً في بحار الدنيا، ثم أخرجه الله عزَّ وجل، فاستنقذه،
لقد بلغني أنه سُرَّ ذات يوم بشيءٍ من ملاهي ملكه ودنياه،
ثم نام ليلته تلك، فرأى في المنام رجلاً واقفاً عند رأسه بيده كتاب،
فناوله إياه، ففتحه، فإذا فيه مكتوب:
لا تُؤثرنَّ فانياً على باقٍ، ولا تغترنَّ بملكك وسلطانك،
فإنَّ الذي أنتَ فيه جسيم لولا أنه عديم،
وهو مُلكٌ لولا أنَّ بعده هلاك،
وهو فرح وسرور لولا أنه لهو وغرور،
وهو يوم لو كان يوثقُ فيه بغدٍ، فسارِعْ إلى أمر الله عزَّ وجلَّ!
فانتبهَ من نومه فزعاً، وقال: هذا تنبيه من الله عزَّ وجل، وموعظة!
فتركَ مُلكه لا يُعلمُ به، وقصدَ هذا الجبل، فتعبَّدَ فيه،
فلما بلغتني قصته قصدته، فسألته، فحدَّثني ببدء أمره، وحدثته ببدء أمري،
فما زلتُ أقصده حتى مات، ودُفِنَ ها هنا، فهذا قبره رحمه الله!

قصة عظيمة تُروى عن الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة،
غير أنَّ لي في المسألة وجهة نظرٍ أُخرى، ورأياً مغايراً!
لو تابَ الأمير وأقبلَ على اللهِ وهو في منصبه، لكان خيراً له وللناس،
فإنَّ الله سبحانه إنما يُعبدُ بالمناصب التي يُقلِّدها لعباده،
ومنصِبُ الحُكم من أهم الثُغور التي تُحرس،
ولو أنَّ أبا بكرٍ نأى بنفسه جانباً ليصلي ويصوم،
فكيف كانت ستقوم للإسلام قائمة،
ولو أن عمر بن الخطاب تركَ الخلافة وانزوى في صومعةٍ في
جبل فكيف كانت ستُفتحُ الدُّنيا،
وتُهزم الإمبراطوريات، ويُقام العدل في بلاد المسلمين!
ولو أنَّ عمر بن عبد العزيز جعل له محراباً يختلي فيه، ومصحفاً
يُقبلُ عليه،
ويترك أمرالناس، فكيف كانت ستُملأ الأرضُ عدلاً بعدما مُلئتْ
ظلماً وجوراً!

إن المناصب العُليا يمكنُ أن تكون محاريب!
إتقان الوزير لعمله، ونصحه لأميره وللناس، أفضل له من صومعة
في الدار!
وصلاح الضابط في الشرطة، وسهره على أمن الناس ومصالحهم،
أفضل له من زاوية وتكية!
واهتمام مدير المستشفى بالمرضى، ومساعدة الفقراء،

وتأمين الأدوية للمحتاجين، ومتابعة
كل صغيرة وكبيرة بكفاءة وضمير،
خير له من أن ينزوي في شعبٍ من الشِّعاب ليصلي ويتعبد!

نعم، إن العبادة مهمة، والإقبال على اللّٰه مطلوب،
والخلوة بين يديه سبحانه عز وشرف، واستحضار الآخرة في القلب ضرورة،
ولكن هذا الدين جاء لعمارة الأرض، وصلاح الإنسان،
وتحكيم الشريعة،
وإقامة المصالح، وهداية الناس، والعمل لهذه الأمور عبادة عظيمة جداً!

102

كُلُّ شخصٍ تُحِبُّه يتركُ فيكَ شيئاً منه
صدِّقْني حين أُخبركَ أننا نتاجُ الذين أحببناهم
سَتُعِدُّ قهوتكَ، ثُمَّ بعد ذلكَ ستضيفُ لها قليلاً من الماء
لأنَّ شخصاً أحبَبْتَه قال لكَ: إنَّ «تنقيز» القهوة يجعلها أطيب
وأنتَ غير مُقتنع، ولكنك تُضيف الماء كلّ مرَّةٍ وأنتَ تبتسمُ!
ستتزوجينَ، وسيُصبحُ لكِ مطبخكِ الخاص،
ودون انتباهٍ منكِ سيكون فيه شيءٌ من مطبخ أُمكِ
سترتبين الأشياء على مزاجها هي، حتى نصف الليمونة التي،
لم تكن أُمكِ ترميها لأنها ربما تلزم،
ستحتفظين أنتِ بها لذات السبب!
وستكبُرُ أنتَ أيضاً، ولن تعجبُكَ عقليّة أبيك، ولا طريقته في حل المشكلات
ولكنك ستجدُ نفسكَ مرَّةً تحلُّ الأمور على طريقته!
ستستخدمُ بعض كلمات زوجتكَ، دون أن تشعر!
وستأخذين شيئاً من طبع زوجكِ دون أن تنتبهي!
نحن بطريقةٍ أو بأخرى، نُصبِحُ أولئك الذين أحببناهم!

103

روى الذهبي في سير أعلام النبلاء، وأحمد في الزُّهد، وأبو نُعيم في الحُلية:

إنَّ ابن أبي وداعة قال: كنتُ أُجالسُ سعيد بن المُسيب،
ففقدني أياماً، فلما جئته قال: أين كنتَ؟
قلتُ: تُوفيتْ زوجتي، فاشتغلتُ بها!
فقال: ألا أخبرتنا، فشهدناها؟
فأردتُ أن أقوم، فأخذ على يدي وقال: فهل تزوجتَ بعدها؟
فقلتُ: يرحمُكَ اللّه، ومن يُزوجني، وأنا لا أملكُ إلا درهمين؟
فقال: أنا!
قلتُ: أو تفعل؟
قال: نعم! ثم حمدَ اللّه وأثنى عليه، وصلى على النبيِّ ﷺ، وزوجني على درهمين!
فقمتُ وما أدري ما أصنعُ من الفرح، ثم صليتُ المغرب، وانصرفتُ إلى منزلي،
وكنتُ وحدي، فقدَّمتُ فطوري لأُفطر، وكان خبزاً وزيتاً،
فإذا بالباب يُقرع، فقلتُ: من هذا؟
فقال: سعيد!
ففكرتُ في كل سعيدٍ أعرفه إلا سعيد بن المسيب!
فلما فتحتُ الباب، فإذا هو، فقلتُ: يا أبا محمدٍ، ألا أرسلتَ إليَّ فآتيكَ؟
فقال: لا، أنتَ أحقُّ أن تُؤتى!

قلتُ: فما تأمر؟

فقال: إنك كنتَ أعزباً، وقد زوجتُكَ، وكرهتُ أن تبيتَ وحدكَ، وهذه زوجتك!

فأخذها بيدها، ودفعها في البيت، وردَّ الباب، وانصرف!

فرأيتُ من المرأة حياءً، فسارعتُ إلى القصعة فخبأتها،

ثم صعدت إلى السطح، فناديتُ الجيران، فجاؤوني وقالوا: ما شأنك؟

فقلتُ: ويحكم، زوَّجني سعيد بن المسيب ابنته اليوم،

وقد جاء بها على غفلةٍ، وما عندي في البيت شيء!

فقالوا: سعيد بن المسيب زوَّجكَ!

قلتُ: نعم، وهي في الدار!

فجاء النسوة إليها يستقبلنها، وعلمتْ بذلك أمي،

فقالتْ: وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أُصلحها لكَ ثلاثة أيام!

فأقمتُ ثلاثاً، ثم دخلتُ بها، فإذا هي من أجمل الناس، ومن أحفظهم لكتاب الله،

وأعلمهم بسُنة النبي ﷺ، وأعرفَهُم بحقِّ الزوج،

فمكَثتُ شهراً لا يأتيني سعيد ولا آتيه، ثم أتيته في حلقته،

فلما انصرفَ الناس، قال لي: ما حال زوجتك؟

قلتُ: خيراً يا أبا محمد، على ما يُحِبُّ الصديق، ويكره العدو.

فقال: الحمدُ لله، وإن رابكَ منها شيءٌ فالعصا!

فانصرفتُ إلى منزلي، فوجَّه إليَّ بعشرين ألف درهم!

وكانت بنت سعيد بن المسيب قد خطبها عبد الملك بن مروان لابنه الوليد،

حين عقد له ولاية العهد، فأبى سعيد أن يُزوِّجه!

إنَّ البنات ودائع جعلهُنَّ اللّه في بيوتنا لنحفظهُنَّ،
وأمانات استرعانا إياها على أن نؤديها لأهلها إذا جاؤوا،
ولسنَ سلعاً للبيع، ولا عرضاً من عُروض التجارة لمن يدفع مهراً أكثر!
علِمَ سعيد أن تلميذه صالح وتقي، وأنه أنفع لدين ابنته من قصر الخلافة،
وقد رأى أن يحفظ عليها دينها!
انظروا في دين وأخلاق الخاطبين، قبل أن تنظروا إلى وظائفهم وأموالهم،
فإن الأموال والوظائف عروض زائلة، أما الدين والخُلق فباقية،
ولا يتعارض بالطبع أن يجتمع الدين والمال، والخُلق والوظيفة،
فهذا نور على نور،
وطلبه في الخاطب لا شيء فيه، ولكن الدِّين أولاً!

أعجبني أبٌ قرأتُ مرَّةً قصته:
جاءه خاطب لابنته، فلم يسأله عن عمله ولا ماله، ولا حسبه ولا نسبه،
وإنما هو سؤال واحد: أي ساعة يؤذنُ المؤذن لصلاة الفجر؟!
فلم يعرف! فقال له: ليس عندي بنات للزواج!

104

وَهَبْ أنَّكَ أُعطِيتَ سُؤْلَكَ أخيراً،
وهَبْ أنَّكَ نِهَايَة المَطاف وصلتَ،
أتُراكَ ستغفِرُ وُعورةَ الطَّريق،
أحقاً ستنسى تلكَ الليالي وما دارَ فيها، وهذه النَّهاراتِ وما حَوَتْ
أتُراكَ تنسى قضمَ أظافركَ من القلق، وقلّة الحيلة،
أَم حريقاً شبَّ في صدركَ ناحيةَ القلب،
هناك بالضبط حيث كان يجب أن يكون رأس حبيبك، فكانتْ
شرارتُه،
خدعوكَ حين قالوا: الضربة التي لا تقتلكَ تُقوّيك،
نعم هي لا تقتُلكَ ولكنها تُشوِّهُكَ،
تُشَوّهُكَ بطريقةٍ تجعلُكَ تتساءَلُ بدهشةٍ: أحقاً هذا أنا؟!

105

يقولُ «فريدريك دوغلاس» في كتابه «عبوديتي وحريتي»:
إنَّ سماعي من وقتٍ لآخر لسيدةِ البيتِ، وهي تقرأُ الإنجيلَ بصوتٍ عالٍ،
سُرعان ما أيقظَ في داخلي الرغبةَ في التعلم.
فطلبتُ منها أن تُعلمني القراءة، فوافقتْ بلا تردُّد،
وبوقتٍ قصيرٍ حفظتُ حروف الأبجدية، وصرتُ قادراً على قراءةِ كلماتٍ من ثلاثةِ أو أربعةِ حروف.
وقد تعجَّبَ السيد «هيو» من سذاجةِ زوجته،
فأفصحَ لها للمرةِ الأولى عن الفلسفةِ الحقيقيةِ للعُبُودية، وقالَ لها:
إنَّ تعليم هذا العبد القراءة أمرٌ غيرُ آمن، ولا ينتج عنه إلا الضَّرر!
وكزوجةٍ مُطيعةٍ توقفتْ السيدةُ عن تعليمي!
لقد وقعتْ كلماتُ السيد هيو في قلبي عميقاً،
وكشفتْ لي عن لغزٍ مُوجِعٍ لطالما سعيْتُ عبثاً لفهمه:
إنَّ قوة الرجل الأبيض على إدامةِ عُبُوديةِ الرجلِ الأسودِ قائمةٌ على حرمانه من المعرفة!
فأدركتُ من تلك اللحظة الدرب المُباشر من العُبُوديةِ إلى الحريةِ هي أن أعرف!

على مرِّ التاريخ كان الذين يستعبدون الآخرين، ويستعمرونهم،
إنما يبرعون في هذه المهمة التي هي ضد الفطرةِ البشريةِ عن طريقِ إدامةِ جهلِ المُسْتَعْبَدِين،

فالعبوديةُ لا تعني قيداً في اليدين، وإنَّما قيد وحيد على العقل،
في اللحظةِ التي يعرفُ فيها الإنسان، في اللحظةِ التي يُحرِّرُ فيها
عقله ويُدرِكُ جيداً،
ستكونُ خطوته الأولى التالية هي كيف يتحرَّر!

في الهندِ إبَّانَ الاستعمار البريطاني،
وأثناء مُرور القُنصل البريطاني برفقةِ الحاكمِ العسكري،
قامَ شابٌ هنديٌّ بركلِ بقرة، وقد صرخَ وهو يركلها:
هذا الشيءُ لا يستحق أن يكونَ إلهاً!
سارعَ القُنصلُ بدفعِ الشابِ عن البقرة، وأخذَ يمسحُ عليها كأنه
يعبدها فعلاً،
وقامَ الناسُ بضربِ هذا الشاب وركله،
ولم يكتفِ القُنصلُ بهذا بل أنه أخذَ شيئاً من بَوْلِ البقرةِ ومسحَ بهِ
على شعره!
وعندما عاد، قالَ له الحاكم العسكري: سيدي القُنصل لا تقُلْ لي
إنك تعبدُ البقر!
فقالَ له: الأمرُ كما قالَ الشاب، هذا الشيءُ لا يستحق أن يكون إلهاً!
ولكن كي يبقوا في أيدينا، يجب أن يستمرُّوا في عِبادتها!

يقولُ الشيخُ محمدُ الغزالي:
الإنسانُ مُخَيَّرٌ فيما يعلم، مُسَيَّرٌ فيما لا يعلم،

بمعنى أنه كُلَّما اتَّسَعَتْ معرفته، اتَّسَعَتْ دائرة حريته!
المعرفةُ هي الحُريةُ!

106

روى ابن عساكر في تاريخ دمشق، وابن الجوزيِّ في ذم الهوى:
إنَّ عبد اللّه بن عباس قال: خرج عيسى ابن مريم يستسقي بالناس،
فأوحى اللّه تعالى إليه أنْ لا يستسقي معه خطَّاء، فأمرهم بذلك،
فقال: من كان من أهل الخطايا فليعتزِل؟
فاعتزلَ الناسُ كلهم إلا رجل مصاب بعينه اليُمنى،
فقال له عيسى: ما لكَ لا تعتزل؟
فقال: يا روح اللّه، ما عصيتُ اللّه طرفة عينٍ،
ولقد التفتُ، فنظرتُ بعيني هذه إلى قدم امرأةٍ،
من غير أن أكون أردتُ النظر إليها، فقلعتها!
ولو نظرتُ إليها باليسرى لقلعتها أيضاً!
فبكى عيسى عليه السلام حتى ابتلتْ لحيته، ثم قال له:
اُدعُ لنا، أنتَ أحق بالدعاء مني، وإني معصوم بالوحي وأنتَ لم تُعصم، ولم تَعصِ!
فتقدَّم الرَّجلُ، فرفع يديه، وقال: اللهمَّ إنك خلقتنا،
وقد علمتَ ما نعمل من قبل أن تخلقنا، فلم يمنعك ذلك أن تخلقنا،
فكما خلقتنا وتكفلت بأرزاقنا، فأرسِل السماءَ علينا مدراراً!
فوَ الذي نفسُ عيسى بيده ما خرجت الكلمة تامة من فمه حتى أمطرت السماء،
وسُقي الحاضر والباد!

الأصلُ أن الجوارح والحواس هبة من اللّهِ سبحانه لنا،

ولا يجوز إتلافها عمداً ولو كانت أداة لمعصية،
ثم لو صحَّ هذا كان الأولى إتلاف العقل والقلب،
إذ أن الجوارح تأتمر بأمرهما، وإلا فهي آلة!
والمطلوب من الإنسان أن يحملَ كلّ شيءٍ فيه على طاعة اللّه،
وإن فعلَ معصيةً بجارحة من جوارحه، فليستغفِرْ،
وليأتِ بحسنة بهذه الجارحة، وهذا يكفي!
العين التي نظرتْ إلى حرام، كحِّلها بآيات تقرأها في المصحف!
واليد التي امتدِّتْ إلى ما لاً يحلُّ لها، طهِّرها بأن تمتدَّ باللقمة إلى جائع،
وبعلبة الدواء إلى مريض، وبصدقةٍ على فقير!
والقدمُ التي مشت حيث ما كان يجب لها أن تمشي،
اجعلها تمشي إلى المسجد، وزيارة مريض، وصلة رحم!
ولكن القصة إن صحَّتْ، فلا تُروَى إلا في فضائل الأعمال،
لحث الناس على ضبط جوارحهم، فلعلَّ اللّه نظر إلى قلب عبده ونيته، لا إلى فعله،
فلما علمَ أنه لا يريدُ إلا رضاه سبحانه، صفحَ عن الفعل، وأثابَ على النية!

ويستوقفني قول عيسى عليه السلام: أنا معصوم بالوحي، وأنتَ لم تُعصَمْ، ولم تعصِ!
إن البطولة في مخالفة الهوى، ومقاومة النفس الأمارة بالسوء،
وعدم الانقياد إلى الشهوات، ونحن مفطورون على هذا!
لا عفَّة لمن لا شهوة له، فالعفيف هو الذي يشتهي،

ولكنه يقمعُ هذه الشهوة أن تُشبع في
حرام، ابتغاء رضى اللّه سبحانه!
ولا حِلْمَ لمن ليس لديه قدرة على الانتقام،
فمن ليس لديه قدرة على الانتقام هو عاجز وليس حليماً!

فيه شيء من نبوة كل إنسان قمعَ ميلاً لا يرضي اللّه،
وكبتَ شهوةً لا نفاذَ لها إلا في الحرام،
وتعففَ عن كسب مالٍ لأنه ربى،
أو غش في التجارة، أو كظم غيظاً وهو قادر على المعاقبة،
أو وصل رحماً أساء إليه وكان بإمكانه أن يقطعه!

107

أمَّا أنا، فَلِيَ في الجَمَالِ واللّهْفَةِ مذهبٌ عجيب،
إنني أرى النّاس بعيون قلبي، لا بعيون رأسي،
من أحببته رأيته جميلاً، ولو رأى الناسُ في جماله نَظر،
ومن أبغضته، استقبحتُهُ، وإن قيل: فيه شيءٌ من جَمال يوسف!
وحدثَ كثيراً، وما زال يحدث،
أن يسقط المرء من قلبي فيسقط من عيني فلا أراه جميلاً

108

الأفلام التي شاهدتها في العشر سنوات الأخيرة كانت في الطائرات!
لا وقتَ لديَّ لأفعل أيَّ شيءٍ بهدوء،
بين الدراسات العليا، القراءة، تأليف الكتب، الكتابة في الصحيفة، التدريس،
وما يفعله أي رب أُسرة ليس لديه كل ما سبق،
يُخيَّلُ إليَّ أن تلك السنوات العشر كانت «ماراثونا» أكثر منها سنوات حياة!
المهم، وبلا طول سيرة، في العودة من ميونيخ إلى بيروت،
شاهدتُ على «نت فليكس» وثائقياً عن الفيفا والفساد،
بدا العنوان جاذباً أول الأمر، ولكن مع التدرج شيئا فشيئاً،
ازددتُ قناعة أن «نت فليكس» مثيرة للغثيان، فلا
يكفي ترويجها للشذوذ، حتى تتوج هذا بالعنصرية أيضاً!
في إحدى الحلقات من الوثائقي ذاك،
جاءت على لسان الشخص الذي يُعلق على الفيديو،
عبارة كريهة جداً ما زالت ترنُّ في أُذني من فرط ما فيها من العنصرية!
يقول المعلق: انصدمَ العالم كيف تختار الفيفا دولة كقطر لاستضافة كأس العالم،
إنهم مجرد عربٍ أغنياء!
إننا مجرد عرب!

بهذه البجاحة، والفوقية، والعنصرية يتحدثون!
عرب كل ما لديهم هو المال!
نسيَ هؤلاء أن أفلامهم لم يكن ليشاهدها أحد لولا فتوحات ابن الهيثم في البصريات،
والتردداتُ التي تُبثُ من خلالها المباريات أوجدها الخوارزمي أولاً!
وأنه حين كانت باريس ولندن غارقتين في الطين،
كانت في قرطبة أول بلدية تجمع النفايات في العالم،
وأنه عندما كانت أوروبا تعدمُ المصابين بالجذام،
لاعتقادهم بأن روحاً شيطانية تسكنهم، كنا قد أقمنا مستشفى متخصصاً لعلاجهم!
وأنه حين كان ملوك أوروبا أميين بالكامل،
كان العوام من أهل الأندلس يقرأون ويكتبون، ويحفظون الأشعار،
ولهم آراء نقدية في الأدب والموشحات!

من حق كل إنسان أن يفخر ببني جنسه،
ولكن ليس من حقه أن ينظر إلى الآخرين على أنهم مخلوقات من جنس أدنى!
هذه البشرية أُسرة واحدة من زاوية ما،
تجتاحها الأوبئة معاً، كما حصل في جائحة كورونا،
وتمرضُ معاً، وتنجو معاً، وتلعبُ كرة القدم،
اللغة التي يجيدها الجميع، وتجتمع كل أربع سنوات في بلد،

للعب منافسات كأس العالم كما يجتمع أولاد فرقتهم الغربة في بيت أهلهم!

نحن في أصل الخلقة أولاد أب وأم واحدين،
وفي المصير نجلسُ في مقصورة واحدة من هذا الكوكب،
وما يصيب الواحد يصيب الجميع،
واعتبار أحدهم أنه أرقى من الآخرين لمجرد أنه أُتيح له ما لم يُتح لغيره،
هو مرض فتاك يستدعي علاجاً سريعاً،
فمرض العنصرية وباء أشد فتكاً من كورونا، وإنفلونزا الخنازير، والملاريا،
وإنه يقتل في المرء أثمن ما فيه، يقتل فيه الإنسان!

109

وأَشْهَدُ أنَّكَ أرَيْتَنِي في نفسيَ عَجائِبَ قُدرتِكَ،
وأَدْهَشتني بِمُعجِزاتٍ ما ظننتُ أنَّ عبداً آثِماً مثلي يستحِقُّها،
ولكنَّكَ اللّه!
أبيتَ إلا أن تُريني قُدْرتَكَ فيَّ، وتُقيمَ حُجَّتكَ عليَّ!

أشهَدُ أنَّكَ رَبُّ المستحيلِ حتى يغدوَ ممكناً،
ولكم حاولتُ بنفسي، وعجزتُ،
فلما جِئتُكَ ذليلاً، منكسِراً، مُقِرًّا، نَافِضاً قلبي من خَلقِكَ،
قُلتَ للمُستحيلِ: كُنْ، فكانَ!

أشهدُ أنَّكَ أبدَلتني قلباً يُرضيكَ، ويُرضيني،
ليس فيه من ميلٍ لا يُرضيكَ موضعَ رأسِ دبُّوس!
أنا الذي أعياني عِلاجُ قلبي، سبحانكَ كيفَ جعلته هكذا،
أبيضَ كالصفَا، يرى المُنكرَ مُنكراً، ويستقذِره!

أشهدُ أنكَ زهَّدتني بما يُغضبكَ مني زهدَ الرهبان في صوامعهم،
أنا الذي كان يشقُّ عليَّ أن أرخي إصبعاً من أصابعي،
جلَّتْ قُدرتُكَ، كيف جعلتني أُرخي كلتي يديَّ!

أشهدُ أنكَ بغَّضتَ إليَّ وجوهاً زيَّنها الشيطانُ في عيني،

وأصواتاً زخرفها في أُذنيَّ، فأمسيتُ لا أُطيقُ رؤيتَها، ولا سماعها!
تباركتَ وتعاليتَ كيف أريتني حقَّ اليقين أن القلوبَ،
بين إصبعين من أصابعكَ تُقلبها كيف تشاء!

أشهدُ أنكَ شفيتني من داء المُراقبة، أنا الذي كنتُ أسترقُ النّظر
من شِقِّ الباب!
كيف زهّدتني بالناس حتى وجدتُني أُقفِلُ الباب بيديَّ،
وأمضي دون أن ألتفِتَ، فلا فُضولَ عندي،
أن أعرف ما فعلَ الناس وما قالوا وما كتبوا،
كيفَ بغّضتَ إليَّ أن أكونَ جسَّاسةً، فما عاد يهمني أن أعرفَ
أأحياءٌ هم أم أموات!

أشهدُ أنكَ قد أريتني الحرامَ قبيحاً، وأهله أقبح منه،
وأريتني الحلالَ جميلاً، وأهله أجمل منه،
حتى أقبلتُ عليه بكُلِّ خليَّةٍ فِيَّ،
وكأنَّ هذا القلب قد وضع فيه إسرافيل الصور ونفخَ فيه،
ليقومَ من بين الأموات ويُبعثَ من جديد!

أشهدُ أنكَ قد أريتني العِصمةَ رأيَ العينِ،
فعرفتُ كيفَ تُصرَفُ الجوارِحُ كلها دون مجاهدة،
وأشهدُ أنها ليستْ صلاتي، ولا صدقاتي، ولا ثغريَ،
ولكنه كرمك، وفضلك، وإرادتك!
أشهدُ أنكَ اللّٰه

110

روى الذهبيُّ في سير أعلام النبلاء، والسيوطي في الدر المنثور، وابن الجوزي في صفة الصفوة، وابن عساكر في تاريخ دمشق:
إنَّ نافعاً مولى ابن عمر قال: خرجتُ مع عبد اللّٰه بن عمر،
في بعض نواحي المدينة، ومعه أصحاب له، فوضعوا سفرةً لهم،
فمرَّ بهم راعٍ، فقال له ابن عمر: تعالَ، فأصِبْ من طعامنا.
فقال: إني صائم!
فقال له ابن عمر: في مثل هذا اليوم الشديد حرُّه، وأنتَ في الشِّعاب؟
فقال الراعي: أُبادِرُ أيامي الخالية!
فعجبَ له ابن عمر، وقال: هل لكَ أن تبيعنا شاةً من غنمك نجتزرها،
ونطعمك من لحمها ما تفطرُ عليه؟
فقال: إنها ليستْ لي، إنها لمولاي؟
فقال له ابن عمر يمتحنه: فما عسى أن يقول مولاكَ إن قُلتَ له: أكلها الذئب؟
فقال له الراعي: فأين اللّٰه؟ ثم مضى في طريقه
فجعل ابن عمر يُرددُ: فأين اللّٰه؟
ولما رجع إلى المدينة، بعث إلى سيِّد الراعي،
فاشترى منه الراعي والغنم، ثم أعتقَ الراعي، ووهبَ له الغنم!

فأينَ اللّه؟!
اجعَلْها نهجَ حياتكَ، وطريقَ سَيْرِك، وخُطة عملك!
إذا فُتِحَ لكَ الباب لشهوةٍ حرامٍ، آمنة من الفضيحة،
خالية من الأعباء، الوصول إليها يسير، والستر منها مضمون،
فتذكر: فأين اللّه؟!

وإذا ما مات أبوكَ وتركَ مالاً، وصارتْ مقاليد كل شيءٍ بيدكَ،
وأنتَ تستطيع أن تستأثر به وحدك وتحرم إخوتك وأخواتكَ،
لا قانون يطالك إذ الالتفاف عليه سهل،
ولا قضاء يحاسبُكَ إذ لا بيِّنة، فقِفْ هُنيهة،
وتذكر: فأين اللّه؟!

وإذا ما فُتحَ باب ترقية في العمل، وكان بإمكانك أن تنالها،
ولكن بالوشاية، والأساليب الملتوية،
تسعى عند الإدارة بالنميمة على زملائكَ، وهتك أسرارهم
وأستارهم،
وأنتَ في كل هذا مُغطىً لا يكشفُ من قبيح فعلك شيء،
فتذكر يوم تُبلى السرائر،
ورددْ قول الراعي: فأين اللّه؟!

وإذا ما أراد شاب أن يتقدم لخطبة فتاة، وراحَ أن يسأل عنها،
وكنتِ لا تحبينها، أو أنكِ تريدين أن تستأثري به أنتِ،

وكان بإمكانك أن تلبسي ثوب الحمل الوديع، والناصح الأمين،
ثوب إبليس لما جاء آدم عليه السلام يُمثِّل أنه المُشفق المُحب،
فاسقطعتِ سمعتها ظلماً، وحططتِ من عرضها افتراءً،
وأنتِ في هذا آمنة، ولن يصلها كلامكِ،
فتذكري: فأين اللّه؟!

هناك مرتبة سامية أعلى من الإيمان، ألا وهي الإحسان،
عرَّفها سيُّد البلاغة والبُلغاء عليه الصلاة والسلام،
بقوله: الإحسان أن تعبدَ اللّه كأنكَ تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك!

111

يقولُ روبرت غرين في كتابه «33 استراتيجية للحرب»:
في مرحلة مُبكرةٍ حددَ «يوليوس قيصر» «بومباي» كعدوٍ له،
فراحَ يقيسُ أفعاله، ويقومُ بحساباتٍ دقيقة،
ويفعلُ فقط الأمور التي تضعه في موقفٍ صلبٍ من مواجهةِ «بومباي»!
وحين اندلعتْ الحربُ أخيراً بين الرجلين، كانَ قيصر في أفضل أحواله،
ولكن ما إن هزمَ بومباي ولم يَعُدْ له منافسين من وزنه، حتى فقدَ شغفه بكلِّ شيء!
كانَ انتصاره على بومباي كارثته الشخصية.
أعداؤكَ يُجبِرونكَ على أن يكونَ لديكَ إحساس بالتواضعِ والواقعيَّة!

يُخيَّلُ إليَّ أنَّ مسيرةَ البشرِ على هذه الأرض، أفراداً ودولاً وإمبراطورياتٍ،
أشبه برسمٍ بياني يبقى آخذاً في الصعودِ حتى يصل إلى القِمة،
ثم إنه متى وصلَ يأخذُ طريقه الطبيعي نحو الانهيارِ،
وإن بِبُطءٍ شيئاً فشيئاً، حتى ينهار تماماً!

على مرِّ التاريخِ كانتْ الجيوش التي تكتسحُ الدُنيا، وتُقيمُ إمبراطورياتٍ شاسعة،

تبدأُ رحلة انتهائها في اللحظةِ التي لا يبقى لها أعداء،
يتحولُ الحاكمُ الفاتحُ إلى الرفاهية، ويتحولُ القادةُ من فاتحين إلى باحثين عن النفوذ!
وشيئاً فشيئاً تُصابُ الإمبراطوريةُ بالترهُّلِ وتنهار!
هذا ما أصابَ الإمبراطورية الرومانية، وإمبراطورية الفُرس،
ودولة العربِ في الأندلُس، والخلافة العُثمانية،والاتِّحاد السُّوفياتي،
وهذا ما ستُصابُ به أمريكا،
إنَّ حتميةَ سُقوطِ الدُّوَلِ هو الشيءُ الوحيدُ الثابتُ في التاريخ!

حتى في حياةِ الأفراد، أرى أن وصولهم إلى القِمةِ هو أول مقتلهم،
أغلبُ الأُدباءِ الذين حصلوا على جوائزِ نُوبل،
كانَ نِتاجهم الأدبي قبل الجائزة أجمل منه بعدها!
لا شيء يُفسرُ هذا غير أنَّ الإنسان يتراخى عند القِمة!
أو لعلها سُنةُ اللّهِ في الكون!
كانَ للنبيِّ صلَّى اللّه عليه وسلّم ناقة سريعة اسمها العضباء،
وكانَ يُسابقُ بها كعادةِ العربِ، والمرءُ نهاية المطافِ من قومه،
وكانتْ العضباءُ لا تُسْبَق،
وجاءَ مرة أعرابيٌّ من الباديةِ على ناقة له، فسابقَ العضباءَ فسبقها،
فحزنَ الصحابةُ لذلك، فقالَ لهم النبيُّ ﷺ:
حقٌ على اللّه ألا يرتفع شيء من الدُنيا إلا وضعه.

112

1. هو أكثر شخصٍ تُحبه في العالم،
ولكنك لا تُريده ولو لم يبقَ غيره في العالم!

2. تريدُ لو أنكَ تأكله بأسنانك،
ولكن لو مسّ أحد شعرة من رأسه،
فإنك على استعداد أن تحرق الدنيا لأجله!

هذه ليست مشاعر روائية،
هذه مشاعر حُب موجودة فعلاً،
سببها أن يسقطَ الشخص من عينك،
ولكنه يبقى عالقاً في قلبك!

113

كانَ «لين بياو» أحد أقرب أصدقاء ومُستشاري،
الزعيمِ الصيني الشيوعي «ماو تسي تونغ»،
وكانَ يشَغلُ مركزاً مرموقاً في الحزب،
كما كانَ يُعتبرُ الخليفة المُحتمل لماو تسي تونغ.
وفي بدايةِ سبعينياتِ القرنِ الماضي، لاحظَ ماو تسي تونغ تغيراً في سُلوكِ «لين بياو»،
لقد أصبحَ شديد الودِّ تجاهه.
صحيحٌ أنَّ الجميع كانوا يخشون تونغ، ويمتدحونه،
ولكن مديح «لين بياو» كانَ مُبَالَغاً فيه. لهذا ارتابَ ماو من هذا التغيُّر المُفاجئ،
ووضعَ صديقه تحت المراقبة، واكتشفَ بالفعل أنه يخططُ للقيامِ بانقلابٍ عليه!

التغيُّرُ المُفاجئُ مُريبٌ!
من النادرِ جداً أن يتغيَّرَ الناسُ هكذا دون غاية!
الاهتمامُ الشديدُ بعد الإهمالِ يجب أن يكونَ مُفزِعاً أكثر ممَّا هو مُطَمئِن!
والإهمالُ الشديدُ بعد الاهتمامِ هو في الغالبِ رسالةٌ،
أنَّ هذا المرء يحزمُ حقائبه وسيُغادرُ عمَّا قليل!
الوِدُّ شيءٌ جميلٌ لا شك، ولكنَّ الوِد الطارئ يُخفي خلفه شيئاً لا محالة!

حتى الوقاحة الطارئة لا تعني بالضرورة أنكَ ارتكبتَ الأخطاء فتمَّتْ مُقابلتكَ بها،
هذا قد يعني أنَّ البعضَ قد سَئِمُوا من ارتداءِ أقنعتهم، وهذه الآن هي وجوههم الحقيقية،
فإمَّا أنَّهُم قد بلغوا مُرادهم منكَ، أو أنهم سَئِمُوا من الانتظارِ وأيقنوا أنهم ليسوا بالغيه!
فلا تنخدعوا بالتغيُّرِ المُفاجئ، تريَّثُوا قليلاً قبل أن تتجاوبوا معه!

هل يعني هذا الكلام أن البشر لا يتغيرون أبداً؟
على العكسِ تماماً!
يتغيرُ البشرُ بشكلٍ مُذهلٍ، وتنقلبُ أحوالهم رأساً على عقب،
من قمةِ الكفرِ والجحودِ إلى قمةِ الإيمان،
ومن قمةِ الإيمانِ إلى قمةِ النكران!
من الخطأ إلى الصواب، ومن الصوابِ إلى الخطأ!
من الانحرافِ إلى الاستقامة، ومن الاستقامةِ إلى الانحراف!
عُمر الفاروق، المُلْهَمُ المُحدَّثُ، مُعجزةُ الإسلامِ في الرجال،
مرَّ عليه وقت كانَ يعبدُ صنماً من تمرٍ في النهارِ ويأكله آخر الليل!
بِشر الحافي كانَ في أولِ حياته مُستهتراً،
القَعنبيَ شيخُ البُخاري ومُسلم كانَ في شبابهِ من أصحابِ اللهو!
والعكسُ صحيحٌ أيضاً، فكم من قدم زلَّتْ بعد ثُبوتها،
وقد كانَ إبليسُ أول الأمر يُسابقُ المَلائكةَ في العبادة!
كلُّ ما في الأمر أن التغيُّر المُفاجئ يحتاجُ إلى شيءٍ من العقل، والتريُّث، لا وسوسة، ولا انجرار، شيءٌ من الحذرِ فقط حتى تتجلي الأمور!

114

في كتاب الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي:

قال أبو عُبيد القاسم بن سلام:

قصدتُ البصرة لأسمع الحديث من حمَّاد بن زيد، فلما دخلتها فإذا هو قد مات!

فشكوتُ ذلك إلى عبد الرحمن بن مهديّ،

فقال: مهما سُبقتَ فلا تُسبقنَّ إلى تقوى!

تسعى لنيل وظيفة فلا تُكتب لكَ،

وتودُّ لو أنكَ ترتبطُ بإنسانٍ فإذا هو ليس من نصيبك،

ترغبُ بسيارةٍ فإذا أحدهم قد سبقكَ إليها،

يُعجبكَ بيتٌ، فيُباع وأنتَ في الطريق لتشتريه،

تعزمُ على السَّفر فتتعقد الأمور ولا تُسافر،

كلها أمور حياتية هي في يد اللّٰه وليست في يدكَ،

ما هو في يدكَ أن تشكر في مواطن العطاء،

فما أخذتَ بقوتكَ ولكنه فضل اللّٰه عليكَ،

وان تصبر في مواطن الحرمان،

فما حُرمتَ بتقصيرك وضعفك، ولكن اللّٰه قدَّر،

الرزق مكتوب، والعبادة مفروضة،

فلا تُفني عمركَ في طلب المكتوب، وتنسى المفروض!

115

روى ابن عساكر في الدُّر المنثور، وابن أبي الدنيا في ذم الدنيا:
إنَّ ابن الجوزيِّ قال: حدثني جرير عن ليث،
أنَّ رجلاً صحب عيسى ابن مريم عليه السلام، فانطلقا،
فانتهيا إلى ضفة نهر، فجلسا يتغديان ومعهما ثلاثة أرغفة،
فأكلا رغيفين، وبقي رغيف.
فقام عيسى عليه السلام إلى النهر، فشربَ ثم رجع، فلم يجد الرغيف!
فقال للرجل: من أخذ الرغيف؟
فقال: لا أدري!
فانطلق ومعه صاحبه، فرأى غزالة معها ولديها، فدعا أحدهما،
فأتاه، فذبحه وشواه، وأكل منه وأطعم صاحبه،
ثم قال للغزال الصغير: قُمْ بإذن الله!
فقام يمشي وكأنه ما ذُبحَ، وما شُويَ!
فقال لصاحبه: أسألك بالذي أراك هذا، من أخذ الرغيف؟
فقال: لا أدري!
فقام عيسى عليه السلام يمشي ومعه صاحبه، حتى إذا انتهينا إلى ماءٍ،
أخذ بيد صاحبه ومشى به على الماء، فلما عبرا،
قال له: بحقِّ من أمشاكَ على الماء، من أخذ الرغيف؟
فقال: لا أدري!
فقام عيسى عليه السلام يمشي ومعه صاحبه،

فلما كانا في فلاةٍ من الأرض، أخذ تراباً وجعله كومةً،
ثم قال: كُنْ ذهباً بإذن اللّه! فصارَ ذهباً!
فقسَّمه ثلاثة كوماتٍ، وقال: ثلث لي، وثلث لكَ، وثلث للذي أخذ الرغيف!
فقال: أنا أخذتُ الرَّغيف!
فقال له: كله لك، ولا تصحبني أبداً! ومضى وتركه.
فمرَّ بالرجل قاطعا طريق، وأرادا قتله وأخذ الذهب،
فقال: ولمَ تقتلوني، لكل منا ثلثه؟!
وقرروا أن يبعثوا أحدهم إلى القرية لشراء الطعام،
فقال في نفسه: أضعُ لهما سُمّاً وآخذ الذهب وحدي!
واتفق الاثنان أن يقتلاه عند عودته ويقتسما الذهب!
فلما عاد نهضا إليه فقتلاه، ثم جلسا يأكلان فماتا من السُّم!
وعاد عيسى عليه السلام بأصحابه، فرأوا الثلاثة موتى،
والذهب على حاله، فقال لمن معه: هكذا هي الدنيا فاحذروها!

أكثر الناس شقاءً في هذه الحياة هو الذي يعيش كأنه آلة جمع نقود!
لا يُبالي أكان الجَمع من الحلال أم من الحرام،
ليس لجوعه هذا شبع، ولا لعطشه ارتواء،
كلما حصل على مالٍ استقلَّه، وأراد أكثر!
هو في الظاهر مالك لهذا المال، ولكن في الحقيقة أنَّ المال هو الذي يملكه!

وفي الظاهر أيضاً يبدو أنه سيد هذه الثروة، ولكن في الحقيقة هو خادمها،
يُنميها لغيره من الورثة! هم يستمتعون بها، وهو يُحاسب عنها وحده!

ذكرتني هذه القصة بسائق المليونير، الذي مات،
وتركَ كل شيءٍ لزوجته الحسناء، التي بدورها تزوجت السائق،
بعدما رأت رجولته وأمانته، فقال بعد ذلكَ مُعلقاً:
كنتُ أحسبُ أني طوال هذه السنوات أعمل عند المليونير،
ثم تبيَّن لي أنه هو من كان يعمل عندي، جمعَ لي كل هذه الثروة ومضى!

طبعاً جمع المال ليس سُبَّةً، وادخار بعضه للزمن هو فعل العقلاء،
ولكن العبرة هو موضع هذا المال من المرء،
هل هو في جيبه؟ يسعَدُ به، ويُسعِدُ من حوله،
أم في قلبه، لا ينقص منه درهم إلا كان عنده كنزع روحه؟!
هو وضعه تحت قدميه ليرتفع به، أم على رأسه ليزداد ثراءً وينحدر قيمةً؟!

116

في كتاب كفاية المحتاج لأبي العباس التنبكتي:
جاء في ترجمة أحمد بن علي الفلالي:
أنه اجتهد في اتجاه القبلة في الصحراء، وخالف الناس،
فلما عادوا من سفرهم، بلغ ذلك القاضي، فدعاه،
وقال له: أَخطِئ مع الناس، ولا تُصِبْ وحدكَ!
فقال له أحمد: قل ذلك لأبي بكر حين أسلم وحده وكفرَ الناس!
فلم يجد القاضي جواباً، وتركه!
هذا الجواب من أبلغ ما قرأتُ في فنون الرَّد!
ولكن الحقَّ يُقال إنه من النادر أن يُخطئ كل الناس ويصيب الواحد!
فإذا رأيتَ أن الجميع في طريق وأنتَ في طريق،
فخفِّفْ قليلاً من اندفاعكَ، وراجِعْ نفسكَ،
ثم أبو بكر خالفَ النَّاس في الدِّين، لا في الدنيا،
وأغلب الذين يُخالفون الجميع إنما يخالفونهم في الدنيا ليس إلا،
أما في الدِّين فلا تتنازل، وقِفْ في وسط الطريق كالصخرة،
إذا أكلت العائلة كلها الربا فلا تأكله معهم،
وإذا ذهبَ كل الأصدقاء إلى مكانٍ فيه حرام فلا ترافقهم،
أما في مسائل الحياة ما ظننتُ أن يُخطئ الجميع ويصيب الفرد!

117

في العام 1937، وفي مباراة بين تشارلتون وتشلسي،
على ملعب «ستانفورد بريدج» كان الضباب كثيفاً
جداً، ومن العسير رؤية الكرة،
فقرر الحكم إيقاف المباراة بعد ثلث ساعة على بدايتها،
ولكن بسبب ضجة الجماهير،
لم يسمع حارس مرمى تشلسي «سام بارترام» الصافرة،
وبقي واقفاً يحرسُ مرماه ويُحدق في
الضباب منتظراً هجوم الخصم،
وقف هكذا مسمراً مكانه مدة 15 دقيقة إلى أن أخبره أحدهم أن
المباراة قد تم إيقافها!
لاحقاً علّق الحارس على الأمر قائلاً: كنتُ أعتقدُ أننا نهاجم طيلة
ذلك الوقت،
وأنا حزين لأن زملائي لم يتذكروني!

وفي ليل 15 يوليو من العام 1950،
والتي صادفت عشية المباراة النهائية لكأس العالم،
نام «مواتشير باربوسا» وهو أكثر رجل شعبية في البرازيل!
الحارس العملاق الذي كان بطلاً، وصار خائناً في اليوم التالي،
بعدما فشل في صد هدف الأورغواي الذي انتزعت به كأس العالم
من البرازيل!

بعد 13 سنة قاموا بتحسين الملعب الذي جرت فيه المباراة،
وعندما غيروا قوائم وعارضات المرمى،
جاء باربوسا، وأخذ تلك القوائم والعارضة وأحرقها!
ولكنه لم يرجع بطلاً كما كان!

مساكين حُراس المرمى!
يتم صلبهم في كل مباراة تحت القوائم والعارضة،
يُتركون عُزلاً إلا من قفازاتهم، ويتعرضون لنيران المهاجمين،
وصد مئة هدف في المباراة، لن يشفع لأحدهم إن تسبب بهدف!
هذه هي العقلية التي نحكم بها جميعاً في هذه اللعبة المجنونة!

118

روى الخطيب في تاريخ بغداد، وابن عساكر في تاريخ دمشق:
إنَّ أبا عبد الله الواقدي، القاضي قال: ضِقتُ مرةً وأنا مع يحيى بن خالدٍ البرمكي،
وحضر عيدٌ، فقالت لي زوجتي: قد جاء العيدُ، وليس عندنا شيء!
فمضيتُ إلى صديقٍ لي من التجار، فأخبرته بحاجتي إلى الاقتراض،
فأخرج لي كيساً مختوماً فيه ألف ومئتان درهم، فأخذته،
وانصرفتُ إلى منزلي. فجاءني صديق لي هاشميٌّ،
فشكا إليَّ حاجته إلى الاقتراض، فدخلتُ على زوجتي،
وأخبرتها أني أريدُ أن أقاسمه المال الذي اقترضته!
فقالت لي: ما صنعتَ شيئاً، قصدتَ رجلاً من العامة فأعطاك ألفاً ومئتي درهم،
وجاءكَ رجلٌ بينه وبين النبيِّ ﷺ رَحِمٌ،
تريدُ أن تعطيه نصفَ ما أعطاكَ رجل من العامة؟!
فأعطيتُه الكيس كله، وجاء صديقي التاجر إلى الهاشميِّ،
وكان صديقاً لنا، فأخبره بحاجته إلى الاقتراض،
فدفع إليه الكيس، فعرفَ أنه كيسه الذي دفعه إليَّ أولاً!
فجاء إليَّ وحدَّثني بأمر الكيس، فأخبرته بما كان مني مع الهاشمي!
ثم طلبني يحيى بن خالد، فحدثته بما كان بيني وبين أصحابي،
فسُرَّ لما كان منا، ثم نادى على غلام له، وقال: هاتِ تلك الدنانير.
فجاءه بعشرة آلاف، فقال لي: خُذْ أنتَ ألفين،

وألفي دينار لصديقك التاجر، وألفين للهاشميِّ،
وأربعة آلاف لزوجتك فهي أكرمكم!

قال الأعمش رحمه الله:
أدركتُ أقواماً لا يلقى الرجل أخاه الشهرَ أو الشهرين،
فإذا لقيه لم يزده على كيف أنت؟ وكيف حالك؟
ولو سأله شطر ماله لأعطاه إياه!
ثم أدركتُ آخرين، إذا لم يلقَ الرجل أخاه يوماً،
سأله حتى عن الدجاجة في البيت! ولو سأله درهماً من ماله ما أعطاه إياه!

فإذا كان الأعمش قد ساءه تغيِّر حال الأصدقاء في زمنه،
فماذا عسانا نقول عن الأصدقاء في زماننا، والله المستعان؟!

الصَّديق شقيق الروح، وأليف القلب،
وما اجتمعتْ الأجساد على المحبة الآن،
إلا لأنها اجتمعتْ في عالم الأرواح من قبل، فأنِستْ وآنسَتْ!
فالأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها إئتلف، وما تناكر منها اختلف!
كما يقول النبيُّ ﷺ.
فلا تعطِ أحداً الكثير من قلبكَ، وتبخل عليه بالقليل من جيبك!

تفقدوا أصدقاءكم، وانظروا بعين الفراسة إلى أحوالهم،

واقضوا حوائجهم قبل أن يطلبوها، فبعض النفوس عزيزة،
تأبى أن تكشِفَ حاجتها حتى إلى الأصدقاء!
وقد كان الأوائل إذا قصدَ أحدهم الآخر في حاجةٍ له، قضاها على الفور،
ثم خلا بنفسه يُعاتبها، لأنه ألجأ صاحبه إلى الطلب، ولم يتعاهده بالعطاء ابتداءً!
وكانوا يعتبرون أن قصد الصديق لغيرهم في حاجةٍ له إهانة لهم!
حتى إنَّ أحدهم ليسأل نفسه: أأنا صديق سوء حتى لا يقصدني في حاجته!
كان أحدهم يرى أن سؤال صديقه له مكرمة له وهو المعطي،
لا مكرمة لصديقه وهو الآخذ!
ومن جميل قولهم: كان أحدهم إذا أراد أن يُشنِّع على صاحبه،
طلبَ حاجته من غيره!

119

في كتاب الأعلام للزركلي:

جاء في ترجمة محمد بن أحمد القرشي قاضي فاس وفقيهها،

أنه كان يقول لأصحابه:

سيروا إلى اللّه- عُرجاً ومكاسير، فإن انتظار الصحة بطالة!

سِرْ إلى اللّه على أي حالٍ كنتَ،

إذا كنتَ تسمع الأغاني فلا تهجر القرآن،

وإن كنتَ لا تغضُّ بصركَ فلا تترك الصلاة،

وإن لم تكوني محجبة فلا تتركي الصيام،

يفعلُ الإنسان العبادة ويحاولُ أن يتركَ الحرام،

أما أن يشترطَ على نفسه: لن أقوم بالعبادات حتى أستقيم،

فكيف يستقيم دون عبادة؟!

إذا اتسخت الثياب غسلناها، وإذا أصاب البيت الغبار كنسناه،

فأي شيءٍ يغسلُ الذنوب غير العبادات؟!

وأي شيءٍ يكنسُ السيئات غير الطاعات؟!

120

كان «لويس الرابع عشر» شغوفاً بالعمران،
وقد أحاطَ نفسه بكبار مُهندسي أوروبا وأعظمهم في ذلك الوقت،
وكان المعماري الشاب «جول مانسار» لا يحصل إلا على طلباتٍ صغيرة من لويس،
أما المشاريع الكُبرى فكانتْ من نصيبِ المُهندسين والمعماريين الأكثر شهرة.
ولكن «مانسار» كان رجلاً حاذقاً جداً،
وكان يتعمَّدُ حين يعرض رسوماته الأولية على لويس،
أن يتركَ فيها خطأً، وشيئاً من النقص،
يعرفُ يقيناً أن «لويس» سينتبهُ له،
وبالفعل كانَ «لويس» بسببِ شغفه بالعمران يفطنُ للنقصِ الذي تعمَّدَ «مانسار» فعله،
وعندما كان «لويس» يطلبُ منه تعديل هذا الخطأ،
كانَ «مانسار» يتظاهرُ بالذهولِ من خبرةِ الملكِ المعماريةِ، وبراعتِهِ الهندسيةِ،
ويُشيدُ بالحل الذي اقترحه لتلافي هذا النقص!
وعلى مدى سنوات بقيَ «مانسار» يعتمدُ على الأسلوب نفسه،
ويزدادُ حظوة عند «لويس»،
وعندما بلغَ «مانسار» الثلاثين من عمره، تلقَّى طلباً ملكياً مميزاً:
توسيع مدينة فرساي!

كان «مانسار» أقل خبرة وموهبة من كثير من المهندسين حول الملك،
ولكن الملك اختارَهُ لهذه المهمة لأنه كان يُشبعُ رغبتَه وشغفَه،
بأن يظهرَ خبيراً في الهندسةِ والعمران!
في كل إنسان مَيْلٌ لشيءٍ ما، وأسرع طريقةٍ للوصولِ إلى قلبِهِ،
هي أن تشتركَ معه في هذا المَيْل!
وما طبَّقه «مانسار» للوصولِ إلى قلبِ «لويس» يُمكننا تطبيقه في حياتنا،
بشيءٍ من البراعةِ، بكثيرٍ من التعمُّدِ غير المُصطنعِ يُمكنُ الدخول إلى القلوب!

اشتكتْ خطيبة أحد الأطباءِ من تعلُّقِهِ الشديدِ بالطيور،
كان غالباً ما يصحبها حيث يحتفظ بطيوره، ولا
يُعيرها الاهتمام الكافي!
وفكرتْ جدياً بفسخِ الخطبة،
ولكن أحد العقلاء أشارَ عليها أن تتعرفَ إلى عالمِ الطيورِ،
وعاداتِهِ، وطعامِهِ، ووقت تزاوجِهِ، وأنواعِهِ!
وبالفعل حين بدأتْ تتعمقُ في هذا المجال، وتتحدثُ به مع خطيبها،
فلاحظتْ منه إقبالاً عليها، واهتماماً بها لم تكُن تجده من قبل،
حتى أنها لم تعُدْ تختار ماذا ستُهديه في المُناسبات،
كانتْ فوراً تختارُ شيئاً يتعلقُ بالطيور،
طيرٌ جديدٌ، قفصٌ مميزٌ، طعامٌ لطيرٍ عنده!
وهكذا دخلتْ عالمَه بسهولة.

لم يطلبْ أحدٌ منكَ أن تكون خبيراً في «الديكور» إذا أحبته زوجتكَ،
ولا مصممَ أزياء إذا كانتْ هي شغوفة به،
ولا طباخاً عالمياً إذا كانتْ هي تُحبُّ الطبخ!
الإلمامُ البسيطُ بالأشياءِ يكفي، شيءٌ من قاعدةٍ مُشتركةٍ للحديث،
حتى في المطبخ ما يمنع أن تكون حشرياً وتأتي لتخفق معها بيضة،
أو لتحرِّك محتوياتِ قِدْرٍ على النار،
الناسُ غالباً يميلون لصُحبةِ من يُشاركهم اهتماماتهم!

121

في كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي:
لما قدِمَ هارون الرشيد الرِّقةَ لحقَ الناسُ عبد اللّه بن المبارك،
فكثر الزحام، وتقطعت النعال، وارتفعت الغبرة،
فأشرفتْ أم ولدٍ للخليفة، وقالتْ: من هذا؟
قالوا: عبد اللّه بن المبارك جاء الساعة من خراسان،
فقالتْ: هذا واللّهِ المُلك، لا مُلكَ هارون الذي لا يُجمع إلا بشرطة وأعوان!
إنَّ اللّه تعالى يضعُ القبول في الأرض لأهل هذا الدين،
كان ابن الجوزي يخطبُ في عشرة آلاف، ما منهم من أحدٍ إلا خاشعٌ أو باكٍ،
وجاء الرازيُّ إلى نيسابور فخرجت المدينة كلها تستقبله،
وكان للشعبيِّ في البصرة حلقةً والصحابة يومئذٍ كثير،
وكان سعيد بن المسيب يدخل على عبد الملكِ كأنه هو الخليفة،
وكان الشافعي عند الرشيد له احترام الملوك،
وفي السجن كان أحمد بن حنبل يقول للمعتزلة: بيننا وبينكم الجنائز،
ماتَ ابن أبي دُؤاد فلم يُشيِّعه إلا ستة أشخاص،
وماتَ أحمد بن حنبل فخرجت في جنازته بغداد كلها!

122

روى ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان:
إنَّ الحسن البصري قال: كانت شجرة تُعبدُ من دون اللّه،
فجاء إليها رجلٌ، فقال: لأقطعنَّ هذه الشجرة!
فلقيه إبليسُ في صورة إنسان، فقال: ما تريدُ؟
فقال: أريدُ أن أقطع هذه الشجرة التي تُعبدُ من دون اللّه!
فقال له: إذا أنتَ لم تعبدها فما يضركَ من عبدها؟
قال: لأقطعنَّها!
فأراد أن يمنعه، فتصارعا، فصرعه الرجل المؤمن!
فقال له إبليس: فهل لكَ فيما هو خير من ذلكَ؟
لا تقطعها ولكَ ديناران كل يومٍ إذا أصبحتَ عند وسادتكَ!
فقال: فمن لي بذلك؟
قال: أنا!
فرجعَ، فأصبحَ، فوجدَ دينارين عند وسادته، ثم أصبح بعد ذلك فلم يجد شيئاً!
فقام غضباناً ليقطع الشجرة، فلقيه إبليس في صورة الرجل الأول، وقال: ما تريدُ؟
فقال: أريدُ أن أقطع هذه الشجرة التي تُعبدُ من دون اللّه!
فأراد أن يمنعه، فتصارعا، فصرعه إبليس!
فسأله الرجل: لِمَ غلبتُكَ أول مرةٍ، ثم غلبتني أنتَ في الثانية؟
فقال له: لأنكَ أول مرةٍ خرجتَ غاضباً للّه، فأعانكَ عليَّ،
والآن خرجتَ غاضباً للدينارين، فأعانني اللّهُ عليك!

كلُّ عملٍ مهما كان كثيراً لم يكن القصدُ من ورائه وجه اللّه تعالى،
فهو هباء منثور، كمن يحرثُ في البحر!
وكل عملٍ مهما كان قليلاً، ووجه اللّه تعالى الغاية منه والهدف،
فهو كثير، كثير جداً، فإنَّ اللّه يجازي على النوايا لا على الأفعال فقط!

وفي الأثر أن السماء أجدبت زمن موسى عليه السلام، وقلَّ الطعام،
وجفت الضروع، ونزل بالناس ما اللّه عليم به من الحاجة والفقر،
فنظرَ أحد الفقراء إلى الجبال أمامه،
وقال: يا رب، لو كان لي مثل هذه الجبال ذهباً لتصدقتُ بها على عبادكَ!
فأوحى اللّه تعالى إلى موسى عليه السلام، أن قُلْ لعبدي إني قبلتُ منه صدقته!
هذا لأن اللّه تعالى علِمَ صِدقَ النيَّة،
فأعطى الأجر كاملاً على عملٍ لم يقع أصلاً!
وكم من عملٍ قد وقعَ، وعبادة قد أُدِّيتْ،
كان القصد منها الرياء، والمباهاة أمام الناس، لم يقبلها اللّه تعالى،
وردها في وجه صاحبها!

كم من عملٍ بسيط عظَّمته النِّية، وكم من عملٍ عظيم حقَّرته النية؟!
إنَّ الذي رأى غصنَ شجرةٍ ممتَداً إلى الطريق،
فقال في نفسه: لأقطعنَّ هذا كي لا يُؤذي المسلمين!
أدخله اللّه الجنة بهذا العمل!

الجنة مقابل غصن، هذا لأن النية كانت عظيمة!
وبغيٌّ بني إسرائيل التي سقت كلباً، فغفرَ اللّه تعالى لها وأدخلها الجنة،
فللرحمة التي رآها اللّه تعالى في قلبها في تلك اللحظة،
وللنية الخالصة لوجهه، وإلا إنه في الأصل أن سُقيا الكلاب لا تُكفِّر الزنا!

أصلحوا نواياكم فعليها تؤجرون!
في الإياب من غزوة تبوك، قال النبيُّ ﷺ لأصحابه:
إنَّ بالمدينة لرجالاً ما سِرتُم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم،
وشركوكم في الأجر، حبسهم المرض!

123

في كتاب مناقب الشَّافعي للإمام البيهقي:
مات ابن لعبد الرحمن بن مهدي،
فحزن عليه حتى امتنع عن الطعام والشراب،
فكتبَ إليه الشافعي يقول:
أما بعد: فعزِّ نفسك بما تُعزي به غيركَ، والسلام!
إذا أردتَ أن تسعدَ، فطبِّقْ ما تنصحُ به غيركَ،
إذا وقعتَ في مشكلة، تخيَّلْ أنها لشخص آخر،
وقُلْ لنفسكَ ما كنتَ ستقوله له،
نحن نرى مشكلاتنا صعبة، لأنها مشكلاتنا!
نحن لحم ودم، مشاعر وأحاسيس، أمنيات ورغبات،
لا نستطيعُ أن نفصل هذه الأشياء عنا،
لأن هذه الأشياء هي في الحقيقة نحن!
ولكن جرِّبْ أن تُنحِّي هذه الأمور إذا وقع الخطب،
تخيَّلْ نفسكَ صديقكَ الذي تريدُ أن تنصحه،
والآن طبِّقْ أنتَ نصيحتك!

124

يروي «لافونتين» في كتابه «خرافات»:
أنَّ قطاً وقرداً كانا يعيشان حياةً مدللةً في منزلِ أحدِ الأثرياء،
ولكن برغمِ الدلالِ المُفرطِ الذي كانا يلقيانه،
كانَ للمنزلِ قوانين صارمة، حيث يُمنعُ على أيٍّ منهما أن يأخذَ ما ليسَ له،
ولا أن يقتربَ مما هو ممنوع.
الدلالُ ضمن القانون، كان هذا قانون اللعبة!
وذات يوم شتاء بارد،
وضعَ الطبَّاخُ لسيده بعضَ ثمارِ الكستناءِ فوق نارِ الموقد،
وعندما أدارَ ظهره اشتهى القردُ الكستناء،
ولكنه كان يعرفُ أنَّ كسرَ القاعدةِ يعني عقاباً أليماً.
فقالَ للقط: ليتَ لي مخالبكَ، أنتَ تستطيعُ أن تمدَّ يدكَ، وتأتي لنا ببعضِ الكستناء الشهية.
أعِرْني يدكَ يا صديقي ولا تَخَفْ!
وأمسكَ بيدِ القطِّ والتقطَ بها الكستناء، ثم أكلَها بسرعة!
وعندما جاءَ الطبَّاخُ، ورأى يد القط متسخة، ويد القرد نظيفة،
اعتقدَ أنه الجاني. فشكاه إلى سيدِ البيت،
الذي أمرَ بحبسه في القبو عقاباً على ما اقترفتْ يده!

قانونُ اليد النظيفة هو ما أوصى به «ميكافللي» الساسة في كتابه الشهيرِ «الأمير»!

حيث على الحاكمِ أن يقومَ بتركِ كلِّ القراراتِ،

التي فيها «سواد وجه» إلى وزرائه ومُساعديه،

فيتلقُّون هم سخط الناس بدلاً عنه،

ويصبحون كأكياسِ الملاكمةِ يفرِّغُ الناسُ غضبَهم عليها،

بينما يتركُ هو لنفسهِ القرارات المحبوبة كرفعِ الرواتبِ مثلاً،

أما رفع الضرائبِ فهذه يُعلنُها وزيرُ الاقتصاد،

وتقييد الحرياتِ هذه من شأنِ وزير الداخلية!

عندي صديقٌ خفيفُ دم،

كنا نتحدثُ في يوم من الأيام حولَ قانونِ اليد النظيفة،

فقالَ لي: لا أعلمُ ما الذي يُغضِبُكَ من هذا القانون،

جرِّبْ أن تستخدمه في حياتكَ الخاصة، ستجده جميلاً جداً!

قلتُ له: وكيف هذا؟

فقالَ لي وهو يبتسم: أنا مثلاً قسمتُ المهام المنزلية بيني وبين زوجتي،

وبِحُكْمِ أعمالي فهي عليها أن تُشرفَ على تدريسِ الأولاد،

بينما في أيام الامتحاناتِ إذا درسوا كثيراً أطلبُ منهم أن يتوقفوا،

إن هذا القدر يكفي،

وبهذا أُصبحُ في نظرهم البطل المحبوب!

هي تُعطيهم مصروفهم اليومي،

وهذا أمرٌ عادي عندهم، لأنهم يَرونه من حقوقهم،
بينما أمنحُهم مبلغاً شهرياً بسيطاً عند نزولِ الراتب،
وبهذا أُصبحُ عندهم حاتم الطائي!
هي تُشرفُ على أوقاتِ نومهم،
بينما أكسرِ أنا قاعدة النوم هذه مرةً في الشهر، وأدعهم يسهرون براحتهم،
في هذه الليلة فأنا بعيونهم الثائر الذي يُطالبُ بحقوقهم!
الحمدُ للّه أن صديقي هذا ليسَ له طموح سياسي لأننا بصراحة «مش ناقصين»!

125

في سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي:
قال أبو معمر القطيعي:
لما أُحضِرْنا إلى دار السلطان أيام فتنة خلق القرآن،
كان أحمد بن حنبل قد أُحضِرَ إلينا قبله، وكان أحمد رجلاً سَهْلاً، ليِّناً،
فلما رأى الناسَ يقبلون كلام السلطان بخلق القرآن،
انتفخت أوداجه، واحمرَّتْ عيناه، وذهبَ ذلكَ اللين،
فقلتُ في نفسي: غضِبَ أحمدُ للّهِ!
الأزمات هي التي تكشفُ معادن الناس، لأنه في الرخاء كل الناس سواء!
أحمد الرقيق العذب صار أسداً كما يقتضي له الموقف أن يكون،
وأعجَبُ من أحمد بن حنبل هو أبو بكر!
ذاكَ الرَّقيق الذي يركض إليه الأطفال في الطريق،
يشدون ثيابه، وينادونه: يا أبتاه!
ذاك العذب الأسيف الذي يغلبه البكاء في الصلاة،
لو قيلَ لكَ: واحدٌ فقط من الصحابة قرر أن لا يُحارب المرتدين فمن هو؟
لقلتَ: أبو بكر دون ريب،
ولكن الحقيقة أنهم جميعاً أشاروا عليه أن لا يُحارب فقرر أن يُحارب،
إنَّ الرجال لا يُعرفون إلا في مواطن الشِّدة!

126

روى ابن كثير في البداية والنهاية، والسيوطي في تاريخ الخُلفاء،
وابن عساكر في تاريخ دمشق، والحموي في معجم البلدان:
إن قيس بن الحجاج قال: لما فُتحت مصر أتى أهلها إلى عمرو بن العاص،
فقالوا: أيها الأمير قد جفَّ النيل، وإنَّ له سُنَّة لا يجري إلا بها:
فقال لهم وما ذاك؟
فقالوا: إذا دخلتْ اثنتا عشر ليلةً من ليالي هذا الشهر،
عمدنا إلى جارية بكر، فأرضينا أبويها،
وجعلنا عليها الحُليَّ والثياب أجمل ما يكون، ثم ألقيناها قرباناً للنيل!
فقال: إنَّ هذا لا يكون في الإسلام، وإنَّ الإسلام يهدمُ ما كان قبله!
فأقاموا ثلاثة أشهرٍ والنيل لا يجري، حتى هموا بالجلاء منها،
فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بما كان بينه وبين أهل مصر.
فكتب إليه عمر بن الخطاب: إنكَ قد أصبتَ بالذي فعلتَ،
وإنَ الإسلامَ يهدمُ ما كان قبله،
وكتبَ بطاقةً داخل الكتاب، وأمر عمرو بن العاص أن يلقيها في النيل!
ففتح عمرو بن العاص البطاقة فإذا هي فيها:
فإن كنتَ تجري بأمركَ فلا تجرِ، وإن كنتَ تجري بأمر اللّه،
فنسأل الواحد القهار أن يُجريكَ!

فألقى البطاقة قبل يوم الصليب بيوم، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء، لأنه لا تقوم مصالحهم إلا بالنيل.
فأصبحوا وقد أجرى اللّه النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة، ولم يجفَّ النيل منذ ذلك اليوم!

وهذه واحدة من كرامات عمر بن الخطاب الكثيرة،
على أنَّ أعظم كرامةٍ أكرمه اللّه تعالى بها هي أن هداه للإسلام،
استجابةً لدعاء النبي ﷺ:
اللهم أعزَّ الإسلام بأحب الرجلين إليك، عمر بن الخطاب، أو عمرو بن هشام!

وإن كان لا يُنكر وقوع الكرامات إلا جاهل أو جاحد،
فإن التوسع بها، والبحث عنها،
وانتظارها أن تقع لا يفعله إلا مهووس أو موسوس!
ومما شاهدته عياناً أن يسأل الرَّجُلُ من يلتقي به إن كانت له كرامة!

نعم يا سيدنا الوليّ، كلنا لنا كرامة!
لنا كرامة عند اللّه حين ألقى الإسلام في قلوبنا،
فجعله راسخاً لا يزول منها ولو زالت الجبال من الأرض،
ومفارقة أرواحنا أجسادنا، أحب إلينا من مفارقة ديننا!
لنا كرامة عند اللّه حين جعلنا نسجدُ له،
وبقية البشرية بين مُلحدٍ، ومشركٍ، وضال!
لنا كرامة عند اللّه حين تكرَّم علينا أن تظمأ حناجرنا صياماً له سبحانه،

وإن تنتصبَ أقدامنا قياماً لوجهه!

لنا كرامة عند اللّه أن حبَّبَ إلى نسائنا الحجاب، وزينهن في العفة، حتى لنرى الواحدة منهن، لو نُزِع قلبها من صدرها ما نزعت حجابها عن رأسها!

لنا كرامة عند اللّه حين أفهمَنا غاية وجودنا، بأن نكون عباداً له سبحانه،

وحين جعلنا نُدرك أحجامنا الحقيقية،

بأننا ضعفاء إن لم يقوِّنا، فقراء إن لم يُغنِنا،

ضالون إن لم يهدنا، تائهون إن لم يرشدنا،

ولا كرامة أرفع من هذه، فإن جاء بعدها شيء فأهلاً وسهلاً،

وإن لم يأتِ فما فاتنا شيء،

آمنا به، وصدقنا رسوله، وأقمنا شرعه، والموعدُ الجنة بإذن اللّه!

127

في كتاب ميزان الاعتدال للإمام الذهبي:
قال في ترجمته لأبي نعيم الأصبهاني: تُكُلِّمَ فيه بلا حُجَّة،
ولكن هذه عقوبة من اللّه لكلامه في «ابن منده» بهوى!
من سُنة اللّه في الكون أنه ما سقى أحدٌ أحداً من كأسٍ إلا شربَ منها!
ماتَ ابن سيرين رحمه اللّه مُفلساً في السجن،
وقال قبل موته: كنتُ أنتظِرُ هذا منذ عشرين سنة،
عيَّرتُ رجلاً، فقلتُ له: يا مُفلس،
وكان عبد اللّه بن عمر يقول:
لو عيَّرتُ امرأة بالحمل، لخشيتُ أن أحبل!
نحن حين نُعامل الناس إنما نزرعُ ما سنحصده غداً،
أيامنا القادمة هي غراسنا اليوم!
كل عينٍ أبكيتَها فانتظِر السَّداد من دموعكَ،
وكل خاطرٍ كسرته، كسرُ خاطرِك مقابله مجرَّد وقت،
وكل يد مساعدةٍ قدَّمتها للناس هي يدٌ ستراها غداً تُساعدكَ،
وكل تفريج همٍّ عن إنسانٍ هي خبيئة لكَ حين ينزل بك هم،
لا أحد أعدل من اللّه، لا أحد!

128

في كتابه «خُرافات صينية» يروي «دايان دي بريما»،
أنه كان في قديمِ الزمانِ حطَّابٌ أحبَّ المالَ أكثر من
أي شيءٍ في الحياة.
وكانَ كُلما باعَ الحطبَ الذي يقطعه من الغابة،
وضعَ النقودَ في صندوقٍ مُحكمِ الإغلاق،
ولم يحدثْ مرَّةً أن فتحَ الصندوق ليأخذ منه شيئاً، لم يكُن يفتحه
إلا ليضع فيه!
وفي أحدِ الأيام، وأثناء اقتطاعه للحطب، هجمَ عليه نمرٌ،
فحاولَ أن يهربَ منه، ولكنه سُرعان ما تعثَّر، فحملَهُ النمرُ بفمه!
ورأى ابنُ الحطَّابِ ما حلَّ بأبيه، فأخذَ ساطوراً ولحقَ بالنمر،
وبما أنه كان أسرع من النمرِ لأنه كانَ يحملُ رجلاً في فمه،
أدركَهُ قبل أن يدخلَ به الغابة،
ولم يكُن أبوه مُتأذياً لأن النمر كانَ يُمسكُ به من ثيابه!
وعندما رأى الحطَّابُ أن ابنه على وشكِ طعنِ النمرِ بالساطور،
قال له: لا تُتلِفْ جلد النمر، اقتله دون إحداث ثقوبٍ فيه، إنَّ جلده
يُساوي ثروة!
وبينما كانَ الابنُ يستمعُ إلى تعليماتِ أبيه،
ركضَ النمرُ إلى الغابة، مُبتعداً على نحوٍ مفاجئ،
حاملاً معه الحطَّاب حيث لا يستطيع الابنُ اللحاقَ به، وسُرعان ما
افترسه!

وعن البُخلِ والبُخلاء قالوا:

- البُخلُ هو أن يرى الرجل ما يُنفقه تلفاً وما يُمسكه شرفاً/ الحسن بن علي بن أبي طالب.

- إذا أرادَ اللّه بقومٍ شراً جعلَ أرزاقهم بأيدي بُخلائهم/ محمد بن المنكدر.

- لو كان البخلُ قميصاً ما لبسته، ولو كانَ طريقاً ما سلكته/ أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز.

- قعدتُ مع أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، والناسُ يومئذٍ كثير فأجمعوا،
أنهم لا يعرفون رجلاً صالحاً بخيلاً/ حبيش الثقفي.

- ما في القلبِ للأسخياء إلا حب ولو كانوا فُجاراً، وللبُخلاء إلا بغض ولو كانوا أبراراً/ يحيى بن معاذ.

- الجُبنُ والبُخلُ قرينان/ ابن القيم.

- البخيلُ يقتِّرُ على نفسه ويكدِّسُ المال لغيره/ جاك بريغر.

- المتكبرُ والبخيلُ مهما كانتْ مزاياهما، لا يستحقان الاهتمام/ كونفوشيوس.

- البخيلُ شخصٌ يعيشُ طيلةَ حياته دون أن يتذوقَ طعمَ الحياة/ بوشكين.

- البخيلُ مثل كفن الميت ليس له جيوب/ أنيس منصور.

- البخيلُ لماله أما ماله فليس له/ تشيخوف.

- قمةُ الجنونِ أن يعيشَ المرءُ فقيراً ليموت غنياً/ هاربيا ريمانا.

- البُخلُ والجُبنُ والحِرصُ غرائزُ شتى يجمعها سوء الظن باللّه/ العقاد.

- البخيلُ فقيرٌ لا يُؤجر على فقره/ ابن القيم.

129

روى ابن عساكر في تاريخ دمشق، والخطيب في تاريخ بغداد،
وابن الجوزِّي في تاريخ الملوك:
إن وكيعَ القاضي قال: كنتُ أتقلَّدُ لأبي حازم القاضي،
أيام المعتضد باللّه الخليفة وقفَ الحسنَ بن سهل،
فلما استكثر المعتضد من بناء القصور،
أدخل في قصرٍ له بعض وقف الحسن،
وبلغت السنة آخرها، فجمعتُ كل الخَراج إلا ما كان عند الخليفة.
وجئتُ بالمال لأبي حازم، وقلتُ: جمعتُ الخَراج، وأريدُ أن أقسمه.
فقال: وجمعتَ معه ما على الخليفة؟!
قلتُ: لا!
فقال: فلا تقسمه حتى تأتي الخليفة، وتطالبه بالذي عليه!
فقلتُ: وإنْ غضبَ؟
فقال: اجعلْ رضى اللّه أولاً!
اِذهبْ إليه، وقُلْ له: يقول لكَ: أبو حازم، هاتِ ما عليكَ من الخراجَ!
فذهبتُ مرتجفاً، وأدخلوني عليه، فقلتُ:
منعني أبو حازم من قسمة الخراج، حتى تؤدي ما عليكَ منه!
فسكتَ الخليفة ساعة مفكراً، ثم قال: نِعمَ القاضي أبو حازم!
فكم لكَ عندنا؟
قلتُ: أربعمئة دينار.
فنادى على خادمه، وقال له: اِدفعْ له ما عليه لنا!
فأُعجبَ الناس بأبي حازمٍ، وكان عندهم مُقدَّماً إلى أن مات!

يا له من دِينٍ، يوم صار فينا سلوكاً، سُدْنا به العالم، وحملنا لواء البشرية!

ويوم فرطنا فيه، كنا كثيرين ولكن غثاء، كغثاء السيل!

ما دانتْ لنا إلا بالعدل، بأن يأخذ المرءُ حقَّه ولو كان أضعف الناس،

وبأن يؤدي المرءُ ما عليه ولو كان الخليفة!

ولِلّهِ در العلماء والخلفاء الأوئل !

للّه در أبي حازم القاضي يعرف أن لا أحد أكبر من الحق،

فيرسلُ وكيعاً إلى الخليفة ليدفع ما عليه،

والخليفة هو الذي عيَّنه، وهو الذي يستطيعُ عزله،

ولكنه يعرفُ أنه وإن تولى هذا الأمر للخلِيفة،

فليقوم به للّه أولاً، لا للخليفة،

وهذا هو الفرق بين رجل الدولة وبين الذيل التابع الذليل!

ولِلّهِ درُ الخليفة كذلك، لم تأخده العزة بالأثم،

ولم يرَ نفسه أكبر من الحق رغم أن كل مقاليد السلطة بيده،

لم يقل من هذا الذي يجرؤ أن يقول للخليفة اِدفعْ ما عليكَ!

ولكن على العكس من ذلك تماماً، أدّى ما عليه بتواضع،

وقد كان قادراً على أن لا يفعل،

ولم يؤذِ القاضي رغم أنه كان قادراً على أن يفعل!

الأمر بهذه البساطة، أن يقوم كل إنسان بما عليه بإخلاصٍ وضمير، مستشعراً مراقبة اللّه أولاً، بلا محاباة ولا تمسيح جوخّ!

وأن يؤدي كل إنسان ما عليه من واجبات، ويدفع ما عليه من حقوق،
دون أن يجعل الأمر مسألة شخصية!

حضوركَ إلى عملكَ في وقته هو واجبك الذي عليكَ أن تقوم به،
دون أن تشعر أنكَ تُسدي للبشرية خدمة جليلة،
وخدمتكَ للناس مقابل الأجر الذي تتقاضاه هو واجبك،
وكل مالٍ تأخذه دون أن تقوم بما عليكَ، هو مال دخلَ فيه بعض الحرام،
وهذا ما لا يجب أن ترضاه على نفسك،
بغض النظر عن سخط المدير عليك بسبب تأخرك،
أو تذمر المراجعين منكَ بسبب تلكوئكَ!

متى ما صار القيام بالواجب أمراً بديهياً، وإدراك الحق فضيلة،
وقتها فقط يمكننا أن نقول هذه الأمة ستستردُّ مجدها!

130

روى الخطيب في تاريخ بغداد، والمزيُّ في تهذيب الكمال:
إنَّ إبراهيم بن ديزيل قال: لما دُعي عفَّان للقول بفتنة خلق القرآن،
كنتُ آخذاً بلجام حماره، فلما حضرَ عُرِضَ عليه القول،
فأبى أن يقول بخلق القرآن!
فقيل له: يُحبسُ عطاؤكَ!
وكان يُعطي في كل شهر ألف درهم!
فقال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾
ولما رجع إلى داره جلسَ في غرفةٍ وحده،
وفي الدار أربعين إنساناً هو معيلهم ولا أحد غيره.
فطُرِقَ عليه الباب، فدخلَ رجلٌ سمَّان من أهل السوق،
ومعه كيسٌ فيه ألف درهم، وقال له:
ثبَّتكَ اللّه مثلما ثبَّتَ هذا الدين، هذا لكَ، ولكَ مثله كل شهر!

لكل إنسان مجاله في هذه الحياة، وعدد الطرقات إلى اللّه لا تُعدُّ ولا تُحصى،
وكل واحدٍ منا يستطيعُ أن يفعل الكثير،
وأن يعبد اللّه تعالى في مهنته وتخصصه!
قد لا يفتح اللّه عليكَ بحفظ القرآن الكريم،
ولكنكَ صاحب مالٍ، افتحْ لكَ دار تحفيظ، وموِّلها،
أو تكفل بمصاريف دارٍ مفتوحةٍ، وكل حرفٍ من المصحف هناك

لكَ أجره!

قد لا يعطيكَ اللّهُ مالاً، ولكنه أعطاكَ قلماً سيالاً، وبلاغةً ساحرة، وظِّفها في الحق، دُلَّ الناس على اللّه،

أَرْشِد التائه، ونبِّه الغافل، وعظ العاصي،

أشِدْ بموقف الحق، وعرِّ موقف الباطل، وهذا واللّه عبادة عظيمة.

في عيادتكَ يُمكنكَ أن تُخصصَ يوماً للعلاج بالمجان،

أو يمكنكَ كل يوم أن لا تأخذ أجرة من مريضٍ تعرفُ أنه مسكين،

ما عُبدَ اللّه تعالى بشيءٍ أحب إليه من جبر الخواطر!

في جامعتكِ فتيات كثيرات غير محجبات،

ابتسامة عذبة، هدية خفيفة ولو خاتم تسبيح،

موعظة بقلب حنون، كثيرات منهنَّ سيأتين إلى اللّه،

وكل واحدةٍ منهن لكِ مثل أجرها!

لستَ عالمَ فقهٍ ولا حديث، لا شأن لك بالتجويد والمواريث،

ولكنك تحفظ الفاتحة، علمها لطفل صغير،

ليقرأ بها طوال عمره، ويجري عليكَ مثل أجره!

لستِ طبيبة ولا مهندسة، ولا عندكِ وظيفة،

ولكنكِ ربة بيت بين يديها أولاد وبنات،

كلهم بين يديك غَضٌّ طريٌّ كالعجين في يد الفرَّان، شكِّليهم ليكونوا للّهِ،

ما أدراك قد يكون بينهم حافظة قرآن، أو فاتح بيت المقدس!

نستطيعُ أن نُحدِثَ فرقاً كبيراً عندما نعبدُ اللّه حقاً في الثَّغر الذي جعلنا عليه،

وفي النعمة التي حبانا إياها!

131

روى الخطيبُ في تاريخ بغداد، والمزيُّ في تهذيب الكمال:
إنَّ محمد بن الطحان قال: كنا عند عاصم بن علي، ومعنا جماعة من الفقهاء،
وأحمدُ بن حنبل يُجلدُ في ذلك اليوم!
فجعلَ عاصم يقولُ: ألا رجلٌ يقوم معي إلى الخليفة فنكلمه أن يتقي اللّه.
فما أجابه أحد!
فقال إبراهيم بن الليث: أنا أقوم معكَ.
ولكن دعني حتى أذهب إلى بناتي فأوصيهنَّ، فما أظن الخليفة إلا يقتلنا!
فعادَ بعد ساعة، وقال: ذهبتُ إلى بناتي، فبكين جميعاً،
ووجدتُ في الدار ابنةً لي قد جاءت من واسط لزيارتنا،
فقالتْ لي: يا أبي، بلغنا أن الخليفة قد أخذ أحمد بن حنبل،
فضربه بالسوط على أن يقول: القرآن مخلوق.
فاتقِ اللّه، ولا تُجبه إن سألكَ،
فو اللّهِ أن يأتينا نعيُكَ، أحبّ إلينا أنكَ تقولُ بخلق القرآن!

إنها نعمة أن يجد المرءُ في بيته من يعينه على الحق، ويحمله عليه حملاً،

وإنها لغربة أن يكون المرءُ في وادٍ وأهل بيته في وادٍ،
فمهما كان العالم في الخارج جميلاً،
فلا يعني هذا الجمال شيئاً إذا كانت البيت ساحة حرب!
ومهما كان العالم في الخارج قاسياً وصعباً،
فإنَّ هذه القسوة تلين، وهذه الصعوبة تسهل، إذا كان البيت داعماً!
لن يغني عنكَ تصفيق العالم كله لكَ في الخارج، إذا كان أهل بيتك لا يقدرونكَ،
وكل الدنيا لا تستطيع هزيمتك إذا كنتَ قوياً بأحبابك!

إنها لنعمة من اللّٰه أن يجد الزوج زوجةً تُعينه على الحق،
إن نام عن الصلاة أيقظته، وإن قصَّرَ في صلة الرحم دفعته،
وإن تمهَّلَ في الصَدقة حثَّته،
وقد قال النبيِّ ﷺ: الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة!

وإنها لنعمة من اللّٰه أن تجد الزوجة زوجاً يُعينها على دينها ودنياها،
إن أرادت أن تُكمل علمها كان أمامها، وإن أرادت أن تحفظ القرآن شجَّعها،
وإن صامت تقضي أيامها صام معها يؤنسها،
وإن قصَّرتْ في طاعةٍ أخذَ على يدها،
وقال لها: شدي همتكِ، نريدُ أن ندخل الجنة معاً!

إنها لنعمة أن يُري اللّٰه سبحانه وتعالى عبده ثمرة جهده وتربيته،

أن يشهد تخرج ابنه وابنته من الجامعة،
وتكريمهم في حلقات التحفيظ، ومسارعتهم في الصدقة،
فهذا واللّٰهِ من النعيم المُعجَّل!

132

في كتاب نفحِ الطيب للمقريَ التلمسانيّ:
دخل أبو بكر بن سعادة وأخوه مدينة طليطلة،
فوفدا على أبي بكر المخزومي، فسألهما: من أين أتيتما؟
فقالا: من قرطبة.
فقال: متى عهدكما بها؟
فقالا: وصلنا منها الآن!
فقال: اقتربا أشمُّ نسيم قرطبة،
فاقتربا منه، فشمَّ رأسيهما، وقبَّلهما!
كانت العرب تعرفُ معادن الرجال،
بحنينها إلى أوطانها، ومراتع صباها،
وأحضرَ عبد الرحمن الداخل نخلةً من الشام،
وزرعها في رصافة الأندلس، علَّها تُخفف عنه وطأة الحنين،
وعلى مشارف مكة بكى النبيُّ ﷺ،
ونظرَ إليها مودعاً وقال:
واللّهِ إنك لأحب الديار إليَّ،
ولولا أن أهلكِ أخرجوني ما خرجتُ!

133

في العام 1954 أُقيم كأس العالم في سويسرا،
وقد رفضَ ستةٌ من اللاعبين الأيرلنديين البارزين المشاركة
في تلك البطولة،
بسبب إقامة مباراتين للمنتخب أيام الآحاد، وهو اليوم المخصص للصلاة،
فقد رأى السُّداسيُّ أن بقاءهم في أيرلندا، وحضور الصلاة،
في كنيسة «بلفاست الكُبرى» هو الحلُّ الأنسب!
وجاء قرار اللاعبين بعد أن رفضَ الاتحادُ الدوليّ لكرة القدم،
تقديم أو تأخير موعد المباراتين إلى يومٍ غير الأحد!
والجدير بالذكر أن المنتخب الأيرلندي لم يخسر في أي من المباراتين،
فقد انتهيتا بالتعادل، ولم يُفوّت اللاعبون الصلاة!

لم يصِفْ أحدٌ يومها هؤلاء اللاعبين بالمتشددين،
على العكس تماماً لقد أشاد بهم الجميع،
فقد كان ما زال شيء من رمق الفطرة في أوروبا!
ومشكلة هذا الكوكب مع أوروبا أنها تريدُ أن تحمل الناس على ما تراه،
وكل من خالفه فهو متخلف ورجعي وغير متحضر!
فمنذ أربعين سنة فقط كان الشذوذ في أوروبا جريمة يعاقبُ عليها القانون،
وكان على جميع العالم أن يرى هذا الرأي،
واليوم صار العكس هو الجريمة هناك، وبناءً عليه،

على الجميع أن يُغيّروا آراءهم لأنّ أوروبا غيّرتْ رأيها!

كلنا شاهدنا صورة المنتخب الألمانيِّ في مباراته الافتتاحية ضد اليابان،
في بطولة كأس العالم في قطر،
حيث وضع اللاعبون أيديهم على أفواههم كاحتجاج على منعهم،
من دعم الشذوذ الذي كانوا يسجنون من
يدعمه في الماضي القريب!
والمشكلة أنهم يُحاضرون في حرية التعبير عن الرأي،
ولكن جرّب عندهم أن تُشكك بأرقام ضحايا المحرقة
حتى يتم سجنك!
ليس الجريمة هو الإنكار فقط، ولكن مناقشة الأعداد أيضاً!
وعندما عبّر «مسعود أوزيل» عن رأيه في قضية «الإيغور» في الصين،
شنوا عليه حرباً إعلامية شعواء، انتهت باعتزاله اللعب دولياً،
وقال قولته المشهورة: عندما نفوز فأنا ألماني، وعندما نخسر فأنا مهاجر تركي!

134

في كتاب تاريخِ الإسلام للإمام الذهبيّ:
مرضَ يزيد بن حبيب الأزديُّ الفقيه، فعاده حوثرة بن سهيل أمير مصر،
فسأله: يا أبا رجاء ما تقولُ في الصلاة في ثوب أصابه دم برغوث؟
فقال له يزيد: تقتلُ خَلْقاً كل يومٍ، وتسألني عن دم البراغيث!
وما أكثر هذه النماذج في الناس،
يأكل أحدهم حقَّ إخوته من الميراث،
ويسأل عن بلع الماء سهواً أثناء المضمضة في الصيام!
تزني إحداهُنَّ، وتسأل عن حكم وصل الشَّعر،
يرمي أباه وأمه في دور العجزة، ويسأل عن المسح على الجوارب!
يقطع رحمه، ويسأل عن خضاب اللحية!
لا شيء في هذا الدِّين قليل، أو مستهان به،
ولكن هذا الدِّين أولويات أيضاً!
أشياء كثيرة أولاً، لُبَّ، وعُمقٌ، ثم بعد ذلك بقية التفاصيل!

135

يروي ابنُ القيِّم في كتابه القيِّم «مفتاح دار السعادة»،
إنَّ أحدَ العُلماء ركبَ مع جماعةٍ من التُّجار في سفينة،
فلمَّا صاروا في عرض البحرِ، انكسرتْ بهم سفينتهم،
وغرقتْ وغرقَ معها كُل المال والتجارة،
فأُنقِذوا من قِبَلِ الصيادين، وحُمِلوا إلى أقربِ مدينة.
أصبحَ التجارُ في ذلِّ الفقرِ بعد عِز الغنى،
أما العَالِم فجلسَ في حلقةٍ في المسجدِ يُعلِّمُ الناس،
فذاعَ صيته، وعيَّنه الوالي على القضاء!
فلمَّا أرادوا الرُّجوع، حزمَ العَالِمُ أمتعته معهم،
فجاءَ الوالي والناسُ يسألونه أن يبقى معهم، فقبِلَ منهم ذلك.
فقالَ له التُّجار: هل لكَ من رسالةٍ إلى قومِكَ وأهلِ بلدِكَ؟
فقالَ لهم: نعم، قولوا لهم: إذا اتَّخذتُم مالاً، فاتَّخِذوا مالاً لا يغرق
إذا انكسرتِ السفينة!

كُلُّ مهارة يتعلَّمُها الإنسان هي مالٌ لا يغرق،
ولستُ أُبالغُ إذ أقول إن ثروةَ الإنسانِ الحقيقيةِ هي ما في رأسِهِ لا
ما في جيبِه!
لسببٍ بسيطٍ أن المعرفةَ تجلبُ المال، ولكن المال لا يجلب
المعرفة!
ولستُ أُقَلِّلُ من قيمةِ المال، على العكسِ تماماً،

قاتلَ اللّهُ الحاجةَ ففيها ذُل، وإراقة ماءِ الوجه، ولكن المال يذهبُ والمعرفة تبقى!

توالتِ الأحداثُ السياسيةُ والصراعاتُ في بلادِنا في السنواتِ الأخيرة،
ونتجَ عنها حركة هجرة غير مسبوقة،
وخرجَ الناسُ هاربين من الموتِ بثيابِهِم التي عليهم،
لا يحملون معهم إلا الأفكار التي في رؤوسهم، والمهارات التي سبقَ وأتقنوها،
وكل صاحب فكر، أو مهنة، أو حرفة مهما كانت،
سهَّلتْ على صاحبِها الحصول على عمل!
النجارُ لم يحملْ ورشته ولكنه حملَ مهارته فوجدَ هُناك ورشة،
والطبيبُ لم يحملْ معه عيادته، ولكنه حملَ مهارته، فوجدَ هُناك عيادة أو مستشفى!

البيوتُ، والعماراتُ، والأراضي تركها الناسُ خلفَ ظُهورهم،
لأنها ببساطةٍ لا تُحمل من بلدٍ إلى بلدٍ،
ووحده اللّه يعلم إن كانوا سيعودون إليها أم لا!
فأكثِروا من المالِ الذي لا يغرق!

136

في كتاب الجواهر المضيّة لمحمد بن أبي الوفاء القرشيّ:
باتَ أبو جعفر النَّسفي ليلةً مهموماً من الفقر،
فوقعَ في خاطره فرع من فروع مذهب الحنابلة وكان من أئمتهم،
فأُعجبَ به، ووقف قائماً يرقص في داره،
ويقول: أين الملوك؟ أين ابناء الملوك؟
فسألته زوجته عن ذلك، فأخبرها، فتعجَّبتْ!
العبادة والعلم إذا تمكنا من القلب،
تحققتْ بهما لذة لن يفهمها إلا من عرفها،
كان إبراهيم بن أدهم يقول عن قيام الليل:
لو علمَ الملوك ما نحن فيه من النعيم لجالدونا عليه بالسيوف،
لن تعرفَ اللذة التي يشعر بها المُتصدق إلا إذا،
صارت الصَّدقة شيئاً داخلاً فيك كلحمك ودمكَ،
ولو دخلتَ قلبه، ورأيتَ ما فيه من فرحٍ،
لظننتَ أنه الآخذُ لا المُعطي،
لن تعرفَ لذة الذِّكر إلا إذا صار يجري على لسانك جري الماء،
ولا لذة القرآن إلا إذا صرتَ تجد حلاوة الحروف، في فمك من كثرة ترداده،
لن تعرفَ لذَّة أن تقرأ بيت شعر جميل،
أو خاطرة حلوة، أو رثاء أليم، أو غزل فاتن،
إلا عندما تصبحُ القراءة عندكَ نُزهة،
ثمة أشياء جميلة في هذه الحياة مسكين من لم يعرفها!

137

من حكايا الإغريقِ القُدماء التي تدورُ على ألسنةِ الحيوانات،
أنَّ ذئباً قد ضَمُرَ حجمه، وظهرتْ عظامُ صدره،
لأنَّ الكلاب كانتْ بارعة جداً في إبعاده عن الأغنام!
فالتقى يوماً بكلبٍ تبدو عليه الصحة والسُمنة،
فقال في نفسه: لو أنَّ لي قوةً لمزّقتُه بأسناني وأكلتُه.
ولما رأى عَجزه، وقلةَ حيلته، أقبلَ على الكلبِ يمدحه قائلاً:
تليقُ بك هذه الصحة والقوة يا حارس القطيع الأمين!
فقالَ له الكلب: بإمكانكَ أن تصيرَ مثلي، اُترُكَ هذه الناحية من الغابة،
وتعالَ أَقِمْ عندنا، حيثُ الطعامُ وفير!
فقالَ له الذئب: وما الطعامُ هناك؟
فقالَ له: ألذُّ الأطعمة، وعظامُ الدجاج، وطبطبةٌ على ظهركَ من يدِ السيِّد!
سالَ لُعابُ الذئبِ من كلامِ الكلب، وقررَ أن يمضيَ معه،
وأثناء المسيرِ لاحظَ أثراً في رقبةِ الكلب، فقالَ له: ما هذا؟
فقالَ الكلب: هذا أثرُ السلسلةِ التي يربطُني بها سيدي.
فقالَ الذئبُ: إذن، لستَ حُراً في الرواحِ والمجيء!
فقالَ الكلب: أحياناً، ولكن لا يهم ما دمتُ أحصلُ على كلِّ شيء.
فقالَ له الذئبُ: إني أختارُ الجوعَ مع الحريةِ على السُّمنةِ والسلسلة!
امضِ في طريقك، العبيدُ لن تفهمَ أبداً أن الحريةَ أثمن من الخُبز!

الحريةُ أثمنُ من الخُبز!
هذه ثاني أجمل مقولةٍ قرأتُها عن الحرية،
أما الأولى فقول عُمر بن الخطاب لعَمرو بن العاص:
يا عَمرو متى استعبدتُم الناس وقد ولدتهم أُمهاتهم أحراراً!

تسابقَ ابنٌ لعمرو بن العاص وهو يومذاكَ أمير مصر مع قبطي،
فسبقه القبطيُّ، فجلدَهُ وقال له: أتسبقُ ابن الأكرمين؟!
ولأنَّ الظُلم مُر، واستعباد الناس لا يُستساغ،
يأتي القبطي من مصر إلى المدينةِ ويرفعُ شكواه إلى الفاروقِ،
الذي يُرسِلُ في طلبِ عمرو وابنه، فلمَّا حضرا بين يديه،
ناولَ درته للقبطي وقال له: اِضربْ ابن الأكرمين!
ثم قالَ لعمرو: يا عمرو متى استعبدتُم الناس وقد ولدتهُم أمهاتهم أحراراً!

ما جاءَ هذا الدين إلا ليُحرِّر الناس،
ليُحرِّرهم من استعبادِ الآخرين لهم أولاً، ومن استعبادِ أنفسهم لهم ثانياً،
فالإنسانُ بلا دينٍ عبدٌ لغرائزِهِ ومُيُولِهِ وأطماعِهِ،
ولا شيء يُؤَدِّبُ هذه الغرائز إلا الدين،
لهذا نجدُ الإسلامَ العظيمَ يقفُ وسطاً مُعتدلاً بين أولئكَ الذين أطلقوا غرائزَ الإنسان،
وبين أولئكَ الذين كبتوها!

138

في كتاب العود الهنديّ لعبد الرحمن السقَّاف:
قيل لأحد العقلاء: كم لكَ من صديق؟
فقال: لا أدري، لأن الدنيا مُقبلة عليَّ والمال عندي كثير،
وإنما أعرفُ ذلكَ إذا أدبرت الدنيا عني!
في الشدائد تُعرف معادن الرجال،
ووجوه الناس الحقيقية نعرفها إذا احتجنا أكتافاً،
الأيدي التي لنا فعلاً، ليست تلك التي تصفق لنا ونحن نرتقي،
وإنما هي التي تنتشلنا إذا سقطنا!
ولكن على الإنسان أن يكون متواضعاً وهو في طريق الصعود،
لأنه في الغالب سيقابل الأشخاص أنفسهم في رحلة نزوله،
رأينا الذي لم يكن يُدخلُ عليه مكتبه إلا بواسطة،
فلما أُحيل إلى التقاعد صار يبحث عن واسطة لتحصيل راتب تقاعده!
نحن مأمورون أن نُحسنَ إلى الناس دون انتظار المقابل،
فإن أثمر الإحسان حمدنا، وإن لم يثمر فقد وقع الأجر على الله!

139

روى أبو الحسن الأندلسي في كتابه الماتع «تاريخ قُضاة الأندلس»،
أن «بدرون الصقلي» دخل على الأمير باكياً، وكان أحب خدم الأمير إليه!
فقال له الأمير: ما يبكيك؟
فقال: يا مولاي، عرضَ لي الساعة مع القاضي ما لم يعرض لي مثله قط،
ولوددتُ أن الأرضَ انضمَّتْ عليَّ ولم أقف بين يديه!
فقال له الأمير: وما ذاك؟
فقال: ادَّعتْ عليَّ امرأة عند القاضي،
فأرسل معها إليِّ رسالة عليها ختمه، ويأمرني بالحضور بين يديه،
فقلتُ: إني في شغل مولاي الأمير، وسأكتبُ إلى القاضي حين أنتهي.
ثم لم ألبث إلا يسيراً حتى جاءت شرطة القاضي، وقبضتْ عليَّ، وحملتني إليه!
فلما دخلتُ عليه نهرني، وقال: تمتنعُ عن القدوم إليَّ، ولا تعبأ بكتابي إليكَ؟
فقلتُ: شغلني شغل الأمير.
فقال لي: وهذا القضاء شغل الأمير، أعِدْ إلى المرأة حقها، وإلا أمرتُ بجلدكَ أمام الناس!
فلما لم أجد بداً، نزلتُ على أمره،
أفترضى أن يكون هذا لي، ومكاني بين خدمك على الذي تعرفه؟!

فقال له الأمير: يا بدرون، هوِّن عليكَ، إن مكانك عندي تعرفه،
فسلني به ما شئتَ من حوائجك أقضيها، إلا أمر القاضي!
فهذا باب قد أغلقناه، فلا نجيب إليه أحداً من أبنائنا، ولا إخواننا،
ولا أبناء عمومتنا، فضلاً عن خدمنا،
والقاضي أدرى بما فعل، وأعلم بما حكم!

بهذا العدل سُدنا العالم قروناً، وحملنا مشعل العلم والحضارة دهوراً،
بالقاضي الذي يعرف منزلة «بدرون» عند الأمير،
ثم لا يحفل بها لأنه لا أحد أكبر من الحق، ولأن الناس أمام القضاء سواء!
وبالأمير الذي لا يرى أن في إحضار خادمه إلى القاضي نيلاً منه وانتقاصاً،
وإنما هو من إقامة العدل الذي أُمر الأمير به قبل أن يُؤمر به القاضي!

إن اللّه تعالى ينصرُ الدولة الكافرة العادلة على الدولة الظالمة المسلمة،
ويستجيب دعاء الكافر المظلوم على المسلم الظالم،
لا لأنه سبحانه يحبُّ الكافر ويبغض المسلم، حاشاه جلَّ في علاه،
ولكن لأنه يُحبُّ العدل ويكره الظلم!

والحق يُقال أننا اليوم لم نُؤتَ من قِبل أعدائنا إلا لأننا أُوتينا من قِبل أنفسنا أولاً!

ثم لا تبحثوا عن العدل عند الحكام قبل أن تبحثوا عنه في أنفسكم،

في شركاتكم، وتعاملكم مع موظفيكم، في بيوتكم وتعاملكم مع أهليكم وخدمكم،

في الطرقات وتعاملكم مع البائع المسكين،

وكناس الطريق، وعامل محطة الوقود، وأجير صاحب البقالة!

العدل كالحُب، بذرٌ أولاً ثم حصاد، عندما نبذر العدل نحن أولاً،

عندما نقيمه في أنفسنا وبيوتنا ومجتمعنا، سنحصل عليه كأمة،

أما قبل هذا فسنبقى نندبُ غائباً لن يأتي!

140

في كتاب الفتح الربانيّ للإمام الشوكانيّ:
أن «فيثاغورس» فيلسوف اليونان وعالمها قال:
الإنسان الذي اختبرته بالتجربة،
فوجدته لا يصلحُ أن يكون صديقاً وخليلاً، احذَرْ أن تجعله لكَ عدواً!
إنَّ أحمق ما يفعله المرء في حياته،
أن يجعل الناس فئتين: أعداء وأصدقاء،
والحقيقة إن العاقل يجعل أكثر الناس بين بين،
فلا يدنيهم دُنُوّاً يسمحُ لهم بكسره،
ولا يقصيهم إقصاءً يجري عليه شرُّهم،
إنَّ المنشغل بالناس لن يجد وقتاً لنفسه،
وكثير الالتفات لن يبلغ وجهته،
ثمة خُلقٌ نبيل اسمه التَّرفع،
أن لا تخوض المعارك لا جُبناً، ولا خشية من الخسارة،
ولكن لأن جهدكَ يجب أن ينصبَّ في شيء أكثر أهمية،
ولأن بعض النصر تافه، تافه ولو تحقق!

141

في كتابه «مجموعة قصص شعبية» يروي «ناثان أوسوبيل» القصة التالية:
أصابتْ مِحنةٌ عظيمةٌ مدينةَ نوتردام،
فقد قتلَ إسكافيٌّ المدينة واحداً من زبائنه. وجِيء به للمثول أمام المحكمة،
وحَكَمَ عليه القاضي بالإعدام شنقاً!
وعندما تُلِيَ الحُكمُ، نهضَ أحدُ رجال المدينة وصرخ:
اسمعني من فضلك يا سيادة القاضي
لقد حكمْتَ بالإعدامِ على إسكافي المدينةِ الوحيد،
فإن شنقته فمن سيُصلحُ أحذيتنا بعد ذلك؟
فصرخَ جميع أهالي نوتردام الحاضرين: نعم من يُصلحُ أحذيتنا،
نحن نحتاجُ الإسكافي ولن نسمحَ للعدالةِ بقتله!
عندها هزَّ القاضي رأسَهُ وقالَ لهم: يا أهل نوتردام الطيبين،
ما تقولونه صحيح جداً، فبما أنَّ لدينا إسكافياً واحداً،
فإن تركه يموتُ خطأ فادح في حقِّ الجميع.
ولكن عندي رأي آخر، بما أنه لدينا أكثر من شخصٍ،
يقومون بإصلاحِ أسطُحِ البيوت، فما رأيكم بأن نشنقَ أحدهم؟
فأثنى الجميع على رأيِ القاضي، وأخذتْ «العدالة» مجراها!

هذه قصةٌ خُرافيةٌ لا شك، ولكن في طيَّاتها معنىً لاذعاً،

وهو أنه يحدثُ كثيراً أن تُصبحَ العدالة مُجرد مسخرة!
أما في عالمِ الحقيقةِ فإنَّ كثيراً من الدولِ تتبنَّى قوانين،
تكادُ تكونُ أقرب إلى النِكات منها إلى القوانين، ولستُ أدري بمَ
كان يُفكرُ الشخصُ الذي سنَّها،
أو الأشخاصُ الذين دوَّنوها في كتبِ القانون!

في إيرلندا مثلاً يُمنعُ شرب الكحول أمام الأبقار!
ولا أعرف حكمة من وراءِ هذا القانون غير الخوف على
الأبقارِ من الانحراف!
وفي مدينة كليفلاند الأمريكية يُمنعُ صيد الفئران دون رُخصةِ
صيدٍ رسمية!
فإذا وجدْتَ فأراً في بيتك تخبره أن هذه ليستْ مدينة سائبة، وأن
فيها قانوناً،
وأنك ستتقدمُ بطلبٍ إلى الجهاتِ المُختصةِ ليسمحوا لكَ باصطياده،
وإلى ذلك الحين فَلَهُ حق السكنِ والمأوى!
وفي النمسا يُمنعُ تناول المثلجات أمام البنوك!
لا أدري لماذا يُسمحُ بهذا أمام المستشفى، ومركز الشرطة،
ويُمنعُ أمام البنك،
ربما يخشون أن يسيلَ لُعابه!
وفي سويسرا يُمنعُ سحبُ «سيفون المرحاض» بعد العاشرة مساءً!
أفهمُ أن المقصود حماية الجيران من الإزعاج،
ولكن ماذا يفعلُ من اضْطُرَّ لاستخدامِ المرحاضِ في هذا الوقت!

أحياناً أحمدُ اللّهَ تعالى أن كوكب الأرض،
هو الكوكب الوحيد المأهول بالسكانِ في هذا الكون،
وإلا كنا سنُصبحُ مسخرة لسكانِ الكواكب الأخرى!

142

في البدايةِ والنّهايةِ لابن كثير:
قال في ترجمته للأمير «بلكابك سرمز»،
قُتل عام 493 للهجرة، ضربه باطنيٌّ بسكين في خاصرته،
وقد كان يتحرّزُ منهم كثيراً، ويلبسُ درعاً تحت ثيابه،
إلا في تلك الليلة لم يدَّرِعْ!
كل مخلوقٍ يسيرُ إلى قدره برجليه!
وقديماً قالت العرب: يُؤتي الحَذِرُ من مأْمنِه!
الطلقة تُردي العصفور وهو في حضن الغصن،
والموتُ يختبئ للسمكة في الطُّعم!
قرأتُ مرَّةً عن رجل أفنى سنواتٍ من عمره في بناء بيتٍ جميل،
أمسكته الكهرباء، ومات في أول ليلة له في بيته الجديد،
لم يكن يعرفُ أنه يُشيِّدُ قبره!
السيارة الفارهة التي كانت حلماً قد تصبح تابوتاً،
والوظيفة المرموقة قد يموت الإنسان وهو غارقٌ فيها،
وعلى الأسِرَّة الدافئة تكون أكثر المنايا،
لكل إنسانٍ طريقة في المغادرة،
ولكل موتٍ سبب لم يكن بالإمكان تفاديه،
الشيء الوحيد الذي يمكن لنا أن نفعله أن نكون على استعداد!

143

قبل ثلاثة آلاف سنة تقريباً استفاقتْ إسبارطة على خَطْبٍ جللٍ،
«هيلانة» المرأةُ فائقةُ الجمالِ وزوجة شقيق الملك،
قد هربتْ مع «باريس» الابن الثاني «لغريام» ملك طُروادة.
غضبَ يومها ملكُ إسبارطة غضباً شديداً،
وقال لشقيقه: لا تبتئسْ، سأُعيدُ «هيلانة» إليك.
وفي ذلكَ اليوم جمعَ الإسبارطيين، وخطبَ فيهم خطبةً عصماء،
عن الشرفِ المُنتَهَكِ للبلاد،
كيف لابن ملك طُروادة أن يستهينَ بهم إلى هذه الدرجة،
حدَّثهم مُطوَّلاً عن الثأرِ للعِرض، وعن الثورةِ للشرف،
وأنه لا بديل عن الحربِ لترميمِ شيءٍ من كرامةِ البلادِ المهدورة!
وما هي إلا أسابيع حتى كانتْ أساطيل إسبارطة الحربية،
تضربُ حصاراً خانقاً على طُروادة المدينة الحصينة جداً على الغُزاةِ على مرِّ التاريخ!
جيشُ إسبارطة يملأُ الأرجاءَ، وجيشُ طُروادة مستعدٌ للدفاعِ حتى آخر جندي،
ولكن «غريام» ملك طُروادة نزلَ ليرى مطالب الإسبارطيين،
علَّه يُجنِّب المملكتين هذه الحرب.
جرتْ مفاوضات سِرية بين الطرفين،
تخلَّلَها اقتراح من «باريس» عشيق «هيلانة» إلى زوجها،
قال له: لنتبارز، إن قتلتَني تأخذ زوجتك وترجع،
وإن قتلتُكَ تبقَ «هيلانة» ويرجعُ جيشكم عنّا.

وافقَ زوجُ «هيلانة» على جناحِ السرعة،
ولكن الملك قبضَ على يدِ أخيه وقالَ: نحتاجُ وقتاً للتشاور!
وعندما اختلى بشقيقه قال له: لستُ مع هذه المُبارزة.
فقال له: هل تشُك بقدرتي؟
فقال له الملك: أبداً، أعرفُ أنكَ ستقتله بعد دقيقةٍ من بدايةِ المُبارزةِ،
ولكني لم آتِ بهذه الجيوش لأجل زوجتك الشَّبِقة،
لقد جئتُ لأجلِ طُروادة يا عزيزي!

الأسبابُ المُعلنةُ للحروب ليستْ هي الأسباب الحقيقية في الغالب!
ولكن الساسة يُغلِّفون الحروب بمبادئ نبيلة،
ليُقنعوا الناسَ بخوضِها أولاً، وتقبل خساراتهم فيها ثانياً!
الموتُ في سبيلِ الشرفِ يلقى استحساناً عند الناس،
لهذا أخبرَ الملكُ شعبَهُ أنها حربٌ من أجلِ الشرف،
أما الموتُ لتوسيعِ الممالكِ فليسَ ذا بالٍ عند الناسِ،
لهذا أخفى الملكُ السببَ الحقيقي للحرب!

برأيي أنَّ كُل الحروب في التاريخ كانتْ لأجلِ الاقتصادِ، والتوسُّعِ والسيطرةِ،
إني أُوافقُ «وينستون تشرشل» قوله:
لا تبحث عن أسبابِ الحربِ في مُستودعاتِ البارودِ وإنَّما في أهراءاتِ القمح!

وحده الإسلام العظيم سلَّ سيفَهُ لأجلِ العقيدةِ، ولأجلِ فكرةٍ نبيلةٍ، أمَّا بقية الأممِ والحضاراتِ فكانوا حفنة غُزاةٍ يُخفون ما لا يُظهرون!

144

في كتاب ترتيبِ المداركِ للقاضي عياض:
كان الإمامُ مالك في بيته، فاستأذن عليه صديق له، فأذِنَ له،
وكان لمالك بطيخة في ناحية من الغرفة،
فرمى بمنديل عليها يغطيها،
فدخل الرجل، فقال له مالك: اجلِسْ ها هنا.
فأبى أن يقعد إلا على المنديل، فانشقتْ تحته البطيخة!
فقال له مالك: يرحمك اللّه، نحن أعلم بعوار منزلنا منك!
للبيوت آداب لخَّصها العرب بقولهم:
اُدْخُل البيوت أعمى، واجلِسْ فيها أصمًّا، وغادِرْها أخرسَ!
إذا رأيتَ ما يكره أهل البيتِ أن تراه فأشِحْ نظركَ،
وإذا سمعتَ ما يكرهون أن تسمعه فلا تحتفظ به،
وإذا رأيتَ أو سمعتَ، فلا تخرج لتتحدث،
البيوت عورات، والعوراتُ تُستر،
ومن أدخلكَ إلى بيته فقد ائتمنكَ، فلا تخُنْ الأمانة،
ومن أدناكَ من موطن سرِّه، فلا تفضحه،
وتذكرْ دوماً: «كُلُّكَ عوراتٌ وللناسِ ألسُنُ»!

145

في «المُختار من نوادرِ الأخبار»،
أنَّ أبا معتوقٍ وهو من فُقهاء مدينة حمص،
قد دخلَ على الحَكم بن الطلب بن حنطب وهو في سكراتِ الموت.
فقال: اللهمَّ هوِّن عليه، فإنه كانَ كريماً، سخياً، شهماً،
معطاءً، واصلاً للرَّحِمِ والصَّحبِ!
فجعل وجهُ الحكم بنِ الطلب يُشرقُ ويُنيرُ، ثم فتحَ عينيه، وقالَ له:
يا أبا معتوقٍ، إنَّ ملكَ الموت يقولُ لكَ: إنِّي بِكُلِّ سخِيٍّ رفيق!
ثم فاضتْ روحه!

تأمَّلوها بعُمق، تأمَّلوها بقلب، إنِّي بِكُلِّ سَخِيٍّ رفيق!
كُلنا نخشى لحظة نزع الروحِ من الجسد،
لأننا نعرفُ أنها لحظة الإخبار بنتيجةِ امتحانِ الدُنيا الذي
نخوضُ غِماره،
فإن كانتْ تلكَ اللحظة يسيرة فما بعدها أيسر، وإن كانتْ شديدة
فما بعدها أشد!
وأجمل ما قالَ الأوائل: الخواتيمُ ميراثُ السوابق!

إنِّي بِكُلِّ سَخِيٍّ رفيق!
والسخاءُ ليسَ بالمال فقط، وإن كانَ هذا أجمل السخاء،

فبالمال يُشبِعُ الكريمُ بطنَ الجائع، ويُخففُ ألمه
بعلبةِ الدواءِ يشتريها له،
ويحفظُ كرامته بالدَّينِ يقضيه عنه، ونِعم المال الحلال في يدِ
العبدِ الصالح!
والسخاءُ بالحُبِ أيضاً، بكلمةٍ حانيةٍ تُقالُ للزوجة، بغزلٍ في لحظةِ
تعب،
باحتمالِ المزاجِ المُتقلب!
بجبرِ خاطرِ ابنٍ أخفقَ في دراسته، لأنَّ الاحتواء في هذه المواقف
أجدى من العتب!
باحتواءِ ابنةٍ فسختْ خُطوبتها، لأنَّ المكسور يحتاجُ في هذه اللحظةِ
حُضناً،
أكثر من حاجته لأيِّ شيءٍ آخر!
والسخاءُ بالتغاضي أيضاً، بالتجاهلِ الذي يَئِدُ الخلافاتِ في مهدها،
بصديقٍ خانه نُبله على غيرِ عادة فلم تنسَ له تاريخه المشرق معكَ،
بأخٍ نازعكَ فآثرْتَ صلةَ الرحمِ على الانتصارِ في الموقف!
بجارٍ أساءَ فكنتَ معه خير ابني آدم!
بهذه الأمور تزدادُ الموازين!
بهذه الأمور تهونُ لحظات الدُنيا الأخيرة!

146

في كتاب هجرة علماء الأزهر للشيخ أسامة الأزهري:
جاء في ترجمة عز الدين القسام أنه لما،
نفد ماله أيام دراسته في الأزهر،
أشار على عز الدين التنوخي أن يصنعا حلوى الهريسة ويبيعانها،
فاستفظع التنوخي الأمر وقال: ولكني أخجل من المناداة على الهريسة،
فقال له القسام: أنا أصيح على بضاعتنا،
وبهذا تمكنا من إكمال الدراسة!
ليس في الحلال أمر يُخجل مهما كان بسيطاً،
وليس في الحرام شيء يدعو إلى الفخر مهما كان أنيقاً،
اليد المتسخة الساعية إلى الحلال عِزّ،
والجسد المنهكُ في البحث عن اللقمة الحلال جهاد،
الحلال يكفي وإن قلَّ، والحرام لا يُشبعُ وإن كثُر،
وفي الأثر، قال رجل لعيسى عليه السلام: أَوصِني،
فقال له: اُنظُرْ إلى رغيفك من أين هو!

147

في الصين، وقبل ألفين وخمسمئة سنة تقريباً ظهرتْ «مملكة وو»،
وبدأتْ تفرضُ نفسَها قوة جديدة يُحسبُ لها حسابٌ على الأرض!
ولكن كان ينقصُها التاريخ والحضارة،
وهما إرثٌ سيُحَقَّقُ إن تمكنتْ من السيطرةِ على «المملكةِ الوسطى»،
صاحبة الإرثِ الحضاري والتاريخي الكبير!
وزَّع ملكُ «وو» جيشه في أكثر من جهة،
ولكن وزيره «هسيو» حذَّره من هذا، وقالَ له:
ركِّز في حربِكَ ضد عدو واحد، لا تُقاتل أكثر من مملكةٍ في وقتٍ واحد.
ضحكَ الملكُ من نصيحةِ وزيره، وقالَ له بشيءٍ من الاستعلاءِ والغرور:
أنتَ جبان يا «هسيو»!
وعندما أمرَ الملكُ وزيرَه أن يخوضَ حملةً عسكريةً ضد مملكة «يويه»،
رفضَ أن يُنفذَ الأمر لأن هذا سيجعلُ المملكة مكشوفة،
لا بُدَّ أن تبقى فيها قوة تُدافعُ عنها إن تعرضتْ لهجوم،
عدو واحدٌ يكفي يا جلالة الملك، يكفي، لا تستعدِ الجميع!
هذا آخر ما قاله «هسيو».
اعتبرَ الملكُ هذا خيانةً، وعصياناً للأوامر، فأمرَ وزيره أن يقتلَ نفسه أمامه.
وقبل أن يغرسَ «هسيو» الخنجرَ في صدره،

قال للملك: عندما تفيضُ روحي، اقتلعْ عينيَّ، وضعهما على بوابةِ المملكةِ،
أُريدُ أن أرى جيوش الأعداءِ عندما تجتاحها!
قتلَ «هسيو» نفسه تنفيذاً لأمرِ الملك، وقامَ الملكُ بقلعِ عيونه،
وعلّقَهُما على بوابةِ المملكةِ في خطوةٍ هازئةٍ أخرى!
ولكن لم يمضِ وقت طويل حتى سمعَ ملكُ «المملكةِ الوسطى»،
بفراغِ مملكةِ «وو» من جيشِها،
فَقادَ حملةً عسكريةً ضخمةً ضدها واحتلَّها،
وعندما طوَّقوا قصر الملك المغرور شعرَ أن عيون وزيره ترمقه بنظراتِ الشماتة،
فقررَ أن ينتحر، وهكذا انتهتْ مملكة «وو» إلى غيرِ رجعة!

لا شيء يجعلُ المرء مغروراً كالنجاح،
ولا شيء يجعلُ المرء حكيماً وحذراً كالفشل!
لهذا خافوا على الذين نجحوا بسرعةٍ،
أكثر مما تخافون على الذين تعثَّروا أول الطريق!
النجاحُ مدعاةٌ للغرور، والغرورُ مقبرةُ الأبطال،
وحدهم الذين لا تُسكرهم نجاحاتهم يبقون في القمة!
أما الفشل فمدرسةٌ بحد ذاتها، إنه يكسرُ النفس، ويقضي على الاستعلاء،
ويُعلِّمُنا دقةَ الحسابات، ولا يذيقنا، ألمَ السقوط،

والذين يتعلمون الدرس من الفشلِ غالباً ما يُحققون نجاحات ساحقة،
أو بالأحرى لا يُوجد ناجحٌ إلا وكان له عثرة!

لا تُشَتِّتْ قِواك، الذي يخوضُ أكثر من معركةٍ في وقتٍ واحدٍ يُستنزف!
والذي يريدُ كل العصافير التي على الشجرة في الغالبِ يخسرُ العصفور الذي في يده!
لا أعلم حكمة اللّٰه تعالى وراء خلقه السماواتِ والأرض في ستةِ أيام،
وقد كان قادراً على أن يخلقَها في جزءٍ من الثانية،
ويُخيَّلُ إليَّ أنه أرادنا أن نتأنى!

148

في كتاب مرآةِ الزَّمان لسبط ابن الجوزي:
جاء في ترجمة عبيد اللّه بن الحسن أن رجلاً شتمه،
فقبض عبيد اللّه على لحيته وقال:
شيبتي تمنعني أن أردَّ عليك!
وأنتَ، إن لم يكُن لكَ شيبة تمنعُكَ،
فلكَ دِينٌ علَّمكَ أن تُعْرِضَ عن الجاهلين،
ولكَ أبوان علَّماكَ أن لا تكون كأولاد الشوارع،
ولكَ سُمعة اجتهدتَ تبنيها فلا يهدمها لكَ تافه،
ولكَ هدف تسعى إليه، ورسالة تُؤديها، فلا يشغلك ناقص،
الإنكليز عندهم مثل شعبي جميل يقولون فيه:
لا تُصارع الخنزير في الوحل،
أنتَ ستتسخ، وهو سيستمتِع!

149

قال الزُّبير بن بكار: قالتْ بنتُ أُختي لزوجتي: خالي خير رجلٍ لأهله، لا يتخذ ضُرةً، ولا يشتهي جارية.
فقالتْ لها زوجتي: واللّهِ لهذه الكُتب أشدُّ عليَّ من ثلاثِ ضرائر!

وكانِ للأميرِ «ابن فاتك»، وهو من أُمراءِ مصر في القرنِ الخامسِ الهجري،
مكتبة ضخمة، كانَ يجلسُ فيها أكثر أوقاته ولا يُفارقها،
وكانتْ له زوجة داخَلَتّها الغيرة من الكُتُب!
فلمَّا تُوفيَ الأمير، نهضتْ هي وجواريها إلى المكتبة، وجعلتْ تبكيه وتندبه،
وتناولُ جواريها الكتاب بعد الكتاب ليُلقينه في الماءِ انتقاماً لانشغالهِ بها عنها!

وروى «ابن الجوزي» في كتابه «أخبار الظُّراف والمتماجنين» قال:
تزوجَ الفقيهُ «أبو عبد اللّه بن المحرَّم» امرأةً،
كانتْ تضيقُ ذرعاً بانشغاله بكتبه عنها، فاشتكتْ إلى أمها،
وفي ليلةٍ جلسَ أبو عبد اللّه يقرأُ في كتابٍ له، إذ جاءت حماته،
فأخذتْ الكتاب منه، ورمته أرضاً وقالت: هذاالكتابُ شرٌّ على ابنتي من ضُرَّة!

الفكرةُ أنَّ الكتب ليستْ عدوة للنساء، وإنما المرأة تكرهُ كل ما
يُشغل زوجها عنها!
فموقف زوجة كل من«الزبير بن بكار» و«ابن فاتك» و«أبو عبد الله
بن المحرَّم»،
مُشابهٌ لموقفِ زوجةٍ انشغلَ عنها زوجها بالصيدِ
حتى تولَّعَ به كثيراً،
أو بالجلوسِ في المقاهي مع أصحابه وتركها في البيت وحدها!
الفكرةُ في الانشغالِ وليستْ فيما يُشغِل!

على الزوجة أن تعرفَ أن للزوجِ هوايات وأشياء يُحبها،
يجدُ بها ذاته، ويشعرُ معها بسعادة! وأنه لا يُمكنه
أن يُعطيها وقته كله،
فيجلسُ قبالتها طيلة اليوم،
وللمرأةِ أيضاً هوايات يجب أن تُراعى،
وهناك مساحة خاصة بين الزوجين من الجميلِ الانتباهِ لها،
ومعرفةِ أنها ليستْ ضد الشريك!

وعلى الزوجِ أيضاً أن يعرفَ أن المرأة تحبُّ الاهتمام،
وتكرهُ أن تشعرَ أنها كأثاثِ البيت!
وأنَّ الأمور تحتاجُ إلى تسديدٍ ومُقاربة،
فلا ينشغل عنها بعمله وهواياته إلى درجةِ الإهمال،
ولا يترك عمله وهواياته ويجلسُ قبالتها!

150

في كتاب سُلّم الوصول لحافظ بن أحمد الحكمي:
جاء في ترجمة مسعود بن عمر التفتازي:
تناظر مسعود مع الجرجانيّ في مجلس السلطان،
وكان لسان الجرجانيّ أفصح من قلمه،
والتفتازي بالعكس، لهذا رجَّحوا كلام الجرجاني عليه،
فحزن حزناً شديداً، واغتمَّ، فماتَ كمداً من هذا!
هذه الدُّنيا أُعطيات، ولم يُعطَ أحدٌ كل شيء!
يُفتح فيها على الإنسان باب، ويُغلقُ دونه أبواب،
أحمد شوقي لم يكن يُحْسِنُ إلقاء الشِّعر أبداً،
أميرُ الشعراء كان يعطي قصائده لمن يلقيها نيابةً عنه،
وقال الإمام الذَّهبيُّ مترجماً لسيبويه:
كان مع فرط ذكائه وعبقريته حُبسه في عباراته، وانطلاقة في قلمه!
فانظُرْ إلى الباب الذي فُتحَ لكَ، واركض فيه ركض الريح،
وإلى الباب الذي أُغلِقَ أمامكَ، واطرُقه برفقٍ،
وانشغال الإنسان بما يُجيد، أفضل من تكلف ما لا يُحسِن!

151

في العام 1997 تم اختطاف «فيكتور كينتانا» النائب الفيدرالي في المكسيك،
على يد قتلةٍ محترفين، تم استئجارهم من قبل ساسة فاسدين،
كان فيكتور يفضح صفقاتهم المشبوهة!
قيدوه بالحبال، وبطحوه أرضاً، وانهالوا عليه ركلاً ورفساً،
ثم جلسوا يشربون الخمر في جلسة أخيرة قبل
أن يُطلقوا الرصاص عليه!
ثم دخلوا في حوارٍ حول كرة القدم، عندها دسَّ فيكتور نفسه في الحوار،
وراح وهو ينزف دماً من أنفه يسردُ عليهم قصصاً من كتاب «إدواردو غليانو»
كرة القدم في الشمس والظل!
قايضَ كل قصةٍ يعرفها بدقائق من عمره، تماماً مثلما قايضتْ شهرزاد،
قصة مقابل ليلة جديدة من حياتها!
وراحت الدقائق تمشي، والقصص تُسرد!
وأخيراً تركه القتلة هناك، مضروباً بشدة، مضرجاً بدمه،
وقالوا له: لقد استلطفناك، أنتَ تعرف الكثير عن كرة القدم!

أنقذت القراءة عن كرة القدم حياة فيكتور من موت محتم،

من كان يتخيل أن كتاباً يقرأه المرءُ يمكن أن يجدي نفعاً،
وهو على بعد ثوانٍ من تلقي رصاصة في رأسه؟
ولكن هذا هو الذي حدث!
وكما فعلت القراءة بأنها غيَّرتْ حياة أشخاصٍ كثيرين، وقلبتها رأساً على عقب،
كذلك فعلتْ كرة القدم!
الكثير من النجوم الذين تعرفونهم كانوا في طفولتهم فقراء جداً،
يلعبون حُفاةً لأنهم لا يملكون ثمن الأحذية!
ولكن إصرارهم، موهبتهم، إيمانهم بأنفسهم، جعلهم مشاهير وأثرياء!

وعلى سبيل المثال لا الحصر، اللاعب الخلوق جداً،
والإنسان الرائع كثيراً «ساديو ماني»، لاعب ليفربول
سابقاً، وبايرن ميونيخ حالياً،
لم يكن يجد طعاماً في طفولته، ونام لياليَ كثيرة جائعاً،
ولكنه اليوم يُطعم عشرات الالاف من الفقراء في بلده السنغال!
الظاهرة البرازيلية رونالدو، كان بعد التتويج بكأس العالم،
يشتري عشرات السترات الجلدية في وقتٍ واحد،
الشيء الذي لم يكن النجم البرازيلي الآخر «كاكا» يفعله،
وعندما حلل علماء النفس هذا التصرف، قالوا:
جاء كاكا من أُسرة غنية، كان في أعماقه جرّبَ كل هذا الترف،
أما رونالدو فكان حرمان الطفولة كامناً فيه،
كان في لا وعيه ينتقم من كل معاناة الطفولة!

152

روى الإمام «أحمد بن حنبل»،
أنه لما فُتِحَتْ جزيرة قبرص، ودخلتْ تحت حكم المسلمين،
كان الصحابي الجليل «أبو الدرداء» من ضمن الفاتحين،
وانشغلَ المسلمون يومها بما فتح اللّه عليهم، بينما جلس أبوالدرداء وحده يبكي!
فقال له «جُبير بن نُفير»: ما يبكيك في يومٍ أعزَّ اللّه فيه الإسلام وأهله؟
فقال أبو الدرداء: ويحكَ يا جُبير، ما أهون الخلق على اللّه عزَّ وجل،
إذا أضاعوا أمره، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك،
ترجو أمر اللّه، فصاروا إلى ما ترى!

كانت العربُ في الجاهلية قبائل متناحرة، يغزو بعضها بعضاً،
وتدور بينهم الحروب على الكلأ والماء،
بعضهم يتبع الروم، وبعضهم يتبع الفرس،
والذي لم يكن لا هنا ولا هناك، كان يخوض الحروب الطوال لأجل سباق نوق!
ثم نظر اللّه تعالى إليهم نظرة عطف، فتحنن وتكرَّم،
وأرسل لهم خيرة أنبيائه ورسله،
فقلبَ به الدنيا رأساً على عقب، وغيَّر وجه الأرض إلى الأبد!
حولهم من رعاة ماشية إلى قادة أُمم، وصانعي حضارة!

ومن متنازعين فيما بينهم إلى قوة مهولة متحدة أمام أعدائهم!
وفي بضع سنين حطموا الإمبراطوريات التي كانوا يتبعونها!

إنه لم يُغيِّر وسائل الإنتاج كما تدعي الشيوعية أنها لا تغيير للمجتمعات إلا بها!
ولم يُحرِّر الاقتصاد، ويُنشئ الشركات العملاقة العابرة للقارات، كما تدعي الرأسمالية أنه لا تغيير للمجتمعات إلا بها!
لقد هدم أفكار الجاهلية، وبنى بدلاً منها عقيدة راسخة!
لم يصنع المحاريث، ولا طوَّرَ أدوات الزراعة، ولم يُنشِئ أسواقاً للأسهم كذلك!
وإنما دخل إلى قلوب العرب، أنارها بكلمة التوحيد،
ودخل إلى عقولهم فأراهم حقيقتهم وحقيقة الدنيا، وحمَّلهم أمانة الدعوة،
حتى دخل ربعي بن عامر على كسرى وقال له:
نحن قوم بعثنا الله لنُخرج العباد من عبادة العباد، إلى عبادة رب العباد!

ما قامت لنا قائمة إلا بهذا الدين، ولن تقوم مجدداً إلا بهذا الدين!
وما قامت حضارة الأندلس التي كانت منارة الدنيا إلا تحت عباءة هذا الدين،
وما هُنَّا على الأمم إلا لأننا أولاً هُنَّا على الله حين تركنا أمره!

فينا الصالحون نعم، وبيننا عُبَّاد كثر هذا صحيح،
ولكننا نهاية المطاف أمة لا أفراداً،
ولن نعود سيرتنا إلا عندما تعود الأمة صالحة كرجل صالح!

153

في كتاب تاريخِ بغداد للخطيبِ البغداديّ:
جاء في ترجمة إبراهيم بن رستم:
أن وزير الخليفة أتاه وعنده أصحابه الفقهاء، فلم يقُمْ له،
فقال له إشكاب: عجباً لكَ، يأتيك وزير الخليفة،
فلا تقوم له من أجل هؤلاء الدَّباغين عندكَ!
فقال له رجل من أصحاب إبراهيم: نحن من دبَّغَ الدِّين،
الذين رفعوا إبراهيم بن رستم حتى جاءه وزير الخليفة!
إذا وصلتَ إلى القمة، فلا تنسَ الأيادي التي أمسكتكَ،
كُنْ ممتناً لكل من علَّمكَ حرفاً، ونفعكَ بكلمة،
لكل من أعطاكَ نصيحةً، وأسدى إليكَ معروفاً، وأقالَ لك عثرةً،
لا تنسَ تلكَ الأم التي أمسكتْ يدكَ لتكتب على السَّطر،
ولا ذاكَ الأب الذي كدَّ وتعبَ ليكون لكَ قلم ودفتر،
ولا أولئك الإخوة والأخوات الذين رافقوكَ في رحلة العمر،
ولا تلكَ الزوجة التي شاركتكَ رحلة الشقاء حتى وصلتَ،
وتذكر دوماً قول دُعبلٍ الخُزاعي:
وإنَّ أولى البرايا أن تُواسيه،
عند السُّرورِ الذي واسكَ في الحَزنِ،
إنَّ الكِرام إذا ما أيسروا ذكروا،
من كان يألفُهم في المنزلِ الخشِنِ،

154

كانَ «آل كابوني» أحد أشهر رجال المافيا، وأشدهم إجراماً في التاريخ،
ولم يكُن أحدٌ يجرؤُ على العبثِ معه،
أعداؤهُ وأصدقاؤهُ كانوا يخشونه على حدٍّ سواء!
وفي يومٍ من الأيام دخلَ عليه رجل بثيابٍ أنيقةٍ،
عرَّف عن نفسه بأنه «الكونت فيكتور لاستينغ».
وقالَ له: يا سيد كابوني أَعِدُكَ إن أعطيتَني مبلغ خمسين ألف دولارٍ،
أن أستثمرَها لكَ، وأردَّها في شهرين!
لم يكُن آل كابوني يثق بأحد، ولكنه على غيرِ عادتِه أعطى الرجلَ المبلغَ الذي طلبَه!
ذهبَ لاستينغ بالمال، ووضعه في خزنةٍ حصينةٍ،
وطوال شهرين لم يفعلْ شيئاً، وعندما انقضى الوقت،
أخذَ المبلغ وعادَ به إلى آل كابوني، وقال له: سيدي أنا أعتذرُ منكَ، لقد فشلتْ خُطتي!
تحسسَ آل كابوني مسدسه، وقبل أن يُخرجَه من جنبه،
سارعَ لاستينغ بالقول: كنتُ أتوقعُ أن يتضاعفَ المبلغ،
ولكن الأمور لم تَسِرْ على ما يُرام، هذا مالك لم ينقص دولاراً واحداً!
قالَ له آل كابوني: أعرفُ أنك محتال،
وقد كنتُ أتوقعُ أن أحصلَ على مئةِ ألف، أو لا شيء،

ولكن أن يعودَ لي المبلغ فقط فَلَمْ أتوقع هذا!
قال له لاستينغ: لستُ محتالاً، أنا مُستثمرٌ ماهر وفشلتُ هذه المرة،
أرجو أن تُسامحني، إني لا أجد مالاً كي أرجع إلى بيتي، ولكنِّي لم
أشأ أن أغدرَ بك!
عندها أخذَ آل كابوني خمسة آلاف دولار من المبلغ، وأعطاها لهُ
وقالَ:
لا بأس يا صديقي، يحدثُ أن نُخفِقَ جميعنا بأمرٍ ما!
كانتْ الخمسة آلاف دولار هي ما أراده لاستينغ منذُ البداية!

عليكَ أن تعرفَ منذ البدايةِ ما الذي تُريده!
لا تمشِ في طريقٍ ما لم تعرف إلى أين ستصل،
أول درسٍ يتعلمُه الطيارون هو الهبوط،
وذلك أن المهارة لا تكمُن في بدءِ الشيءِ وإنما في إنهائه!
قالَ مُعاوية لعمرو بن العاص مرَّةً: ما بلغَ من دهائك؟
فقالَ عمرو بن العاص: إني لا أدخل في أمرٍ إلا وعرفتُ كيف أخرجُ
منه!
فقالَ له مُعاوية: أما أنا فلا أدخلُ في أمرٍ أُريدُ أن أخرجَ منه!
دهاءُ عمرو بن العاص يكمُنُ أنه يستطيع إصلاح الأشياء التي تطرأ،
ولا يستغني الإنسانُ عن ترميم خُطته، أو التعامل مع أمرٍ طارئ!
أما الدهاء الأكبر فهو قول مُعاوية،
ألا تمشي أساساً في طريقٍ تُريدُ أن ترجعَ منه يوماً!
الوجهةُ يا عزيزي، الوجهةُ أهمُّ من السرعة!

155

في كتاب روضة العقلاء لمحمد بن حبان البستيّ:
أن سُفيان بن عُينية قال لمسعر بن كدام:
أَتحِبُّ أن يُخبركَ رجل بعيوبك؟
فقال: أما أن يجيءَ فيوبخني بها فلا،
وأما أن يجيء ناصحاً فنعم!
وكُلُّنا واللّهِ كمسعر بن كدام،
إذا قيلت لنا النصائح بحُبٍّ وجدناها كالهدايا،
وإذا قيلت باستعلاءٍ تأذينا منها كما نتأذى من السِّهام!
قبل أن تُلقيَ المضمون، فكِّرْ بالأسلوب،
قدِّم المضمون على طبقٍ من لُطف،
تخيَّرْ أفضل المفردات، وأيسرها، وألينها على القلب،
من يريدُ أن يدخل كلامه في القلب،
عليه أن يدخل هو القلب أولاً،
الناسُ إذا أحبَّتْ، استمتعتْ، وأطاعتْ،
وإذا كرِهَتْ، نفرَتْ، وعصَتْ،
وتأمل معي قول ربِّكَ سبحانه لنبيِّك ﷺ:
﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

156

روى ابن كثير في البدايةِ والنهاية،

أنه لمَّا أفضتِ الخِلافة إلى بني العباس، اختفى رجالٌ من بني أُمية، منهم إبراهيم بن سُليمان، ولم يزلْ مُختفياً حتى أعطاه أبو العباس السَّفاح أماناً،

وأدناه منه لِما كانَ فيه من علم وأدب،

وفي ذات يوم قالَ له السَّفاح: يا إبراهيم قد لبثْتَ زماناً مُختفياً منا، فحدِّثني بأعجبِ شيءٍ كانَ في اختفائك!

فقالَ له إبراهيم: خرجتُ إلى الكوفة متنكراً،

فلقيتُ في الطريقِ رجلاً حسن الهيئة، وهو راكب فرساً ومعه جماعة من أصحابه.

فلمَّا رآني مُرتاباً قالَ لي: ألكَ حاجة؟

قلتُ: غريبٌ خائفٌ من القتل!

فقالَ لي: ادخُلْ داري!

وأكرمَ ضيافتي، وأقمتُ عنده طويلاً فمَا سألني مَن أنا، ولا ما حاجتي!

وكانَ كل يوم يخرجُ صباحاً ويعودُ مساءً كالمُتأسِّفِ على شيءٍ فاته!

فقلتُ له: كأنكَ تطلبُ شيئاً؟

فقال: نعم، إبراهيم بن سُليمان قتلَ أبي، وقد بَلَغَني أنه مُتَخَفٍّ وأنا أبحثُ عنه!

فضاقتْ بي الدنيا، وقلتُ في نفسي: قادتني قدماي إلى حتفي!

ثم قلتُ له: هل أدلكَ على قاتلِ أبيك؟

فقال: أوَ تعرفه؟
قلتُ: نعم، أنا إبراهيم بن سُليمان!
فتغيَّرَ لونه، واحمرَّتْ عيناه، وسكتَ ساعة، ثم قال:
أمَّا أبي فسيلقاكَ يوم القيامة عند حاكم عدل!
وأمَّا أنا فلا آمن عليكَ من نفسي، ولا أُرِيدُ أن أقتلَ ضيفي!
ثم قامَ إلى صندوقٍ له، وأخرجَ منه صرةً من الدراهم، وقال:
خُذْها، واستَعِنْ بها على اختفائك، فإنَّ القوم أيضاً يطلبونك!
فهذا أكرم رجلٍ رأيته يا أمير المؤمنين!

يا للرجالِ ما أجملهم حين تُزينهم الأخلاق!
يا للمروءةِ كم تزيدُ المرء بهاءً وحُسناً!
يا للعفو كيف يرفعُ الناس مقاماً ما كانوا بَالِغِيه بالانتقام!
يا للصدقِ كيف يُنجي وإن بدا أنه عكس ذلك!
يا للمعروفِ كيف يُقيِّدُ الكريم، فيجعله كالعبدِ لمن أحسنَ إليه!
يا للمواقفِ كيف ترفعُ الناس أو تضعهم!
يا للسيرةِ الحسنةِ كيف تُروى في مجالسِ المُلوك!
يا للقصصِ الماتعة، والأخبارِ الحُلوة التي تُخبرنا أنَّ هذا الكوكب صالح للعيش!
يا للتاريخِ حين يُكتبُ بأحرفٍ من نور!

157

في كتابِ نفحِ الطيب للمقريّ التلمسانيّ:
جاء في ترجمة الخليفة الأمويّ عبد الرحمن الناصر:
أنه حكم الأندلس خمسين سنة،
ووجد التلمسانيُّ ورقةً بخط الخليفة الناصر مكتوب فيها:
أيام السرور التي صفَتْ لي كانت يوم كذا وكذا،
فعدَّ أيام سرور الخليفة فإذا هي أربعة عشر يوماً!
كذلك هي الدُّنيا، دار كدر ومشقَّة،
فلا تحسدوا الناس على نصيبهم من الفرح لأن نصيبهم من الحُزن لا يُرى!
الفرق بين إنسان وآخر هي طريقة تعاطيه مع هذا الكدر،
البعض يعضُّون على جراحهم، ويكملون طريقهم بصمت،
والبعض يقفون في وسط الطريق يندبون!
لا يوجد إنسان إلا وفيه جرح ما،
ولا بيت إلا وتعصف فيه المشاكل،
ولا وظيفة إلا ولها مشقتُها ومنغصاتها،
ولو أنكَ كنتَ زمن الناصر لربما حسدته على ملكه وسلطانه،
هذا هو الذي تحسده عليه، أربعة عشر يوماً من الصفاء فقط!

158

في القرنِ السادسِ قبل الميلاد، كتبَ «إيسوب» كتابه الماتع «خُرافات»،
وكانَ مما جاءَ فيه، أنَّ بخيلاً باعَ كل ممتلكاته،
وحوَّلَ كل الذهبِ الذي تقاضاه إلى كتلةٍ ذهبيةٍ كبيرةٍ،
كي يضمنَ بقاءها أمامَ ناظِرَيه.
خبَّأ هذه الكتلة في حفرةٍ في الأرض، وراحَ يزورُها كل يوم ليطمئنَّ عليها!
لاحظَ أحدُ عماله ذهابَه المتكرر إلى تلكَ الناحية، فراقبه،
وعندما كشفَ سرَّه، انتظرَ عودته، وذهبَ إلى الحُفرة، وأخذَ كتلةَ الذهبِ لنفسه!
عندما عادَ البخيل، ورأى الحفرةَ فارغة، بكى وانتحبَ ومزَّقَ شعره!
ولكن جاراً له قال: توقَّفْ عن تعذيبِ نفسك، وضَعْ حجراً في تلكَ الحُفرة،
وفكِّرْ أنها تلك الكتلة الذهبية، فبما أنكَ لم تكُنْ تقصد أن تستخدمَها،
فإن أي واحدة من الكُتلتين ستفي بالغرض!

إن لم يكُن من عقابٍ للبخيلِ غير أنه يعيشُ في الدنيا عيشَ الفقراء، ويُحاسبُ حسابَ الأغنياءِ لكفاه!
قرأتُ أقوالاً كثيرةً عن البُخلِ والبُخلاء، فما أعجبني أكثر من قولِ

المنفلوطي:

البُخلاءُ جِمالٌ عطشانة، والمياهُ محملةٌ على ظهرها!

ولا شكَّ أن المعنى الذي أوردَهُ المنفلوطي قد استقاه من قولِ طَرَفَة بن العبد:

وأمـرُّ مـا لقيـتُ مـن ألـم الهـوى   قُـرب الحبيـبِ ومـا إليـه وصـولُ

كالعيـسِ فـي البيـداءِ يقتلهـا الظمـا   والمـاء فـوقَ ظهورهـا محمـولُ

إلا أن الحق يُقالُ إن المنفلوطي قد أجادَ التضمين!

برأيي أن البُخل ليس ثقافة، ولا طريقة عيش نابعة من فلسفةٍ،

أو وجهة نظر، بقدرِ ما هو مرض!

وهذا المرضُ يقلبُ الأشياءَ في الحياة، إنه يُحوِّلُ المالَ من وسيلةٍ إلى غاية،

ومن خادمٍ إلى سيِّد!

إنه مرضٌ أعتى من الأنانية، فالأنانيُّ يحرمُ غيره ليستأثر هو،

أما البخيلُ فيحرمُ نفسه قبل الآخرين، تجده لا يُفارق الدرهمَ أو الدينارَ،

إلا وفارقتْ بعض روحه جسده،

فكانَ اللّه في عونِ من اُبتُلِيَ ببخيلٍ يعوله، فإنه الموت قبل الموت!

استمعتُ مرةً أثناءَ ممارسة رياضةِ المشي إلى مُحاضرةٍ للشيخِ سعد العتيق،

وقد قالَ فيها قولاً طربتُ له أيما طَرب،

قال: لكلِّ من لديه ابنة أو بنات، لا تُزوِّجْ ابنتك لبخيلٍ ولو كان يقومُ الليلَ كله،

ولو كان يصومُ النهارَ كله،

فإنك إن زوَّجتها لبخيلٍ فإنك تُدخلها النار قبل النار،

ولا تسألوا عن دينِ الرجل دون أن تسألوا عن خُلقه!

وليس بعد هذه النصيحة من كلامٍ يُقال!

159

في سير أعلام النبلاء للإمام الذهبيّ:
جاء في ترجمة سعد بن عبادة رضي الله عنه،
أن عجوزاً جاءته مستعطية، فقالت:
جئتُ إليكَ أشكو قلة الفئران في بيتي!
فقال: ما أحسن هذه الكناية،
املؤوا بيتها خبزاً، ولحماً، وسمناً، وتمراً!
كُنْ لماحاً، البعض عندهم حياء السؤال،
فرمم بحسن فهمكَ سوء حاجتهم إليك،
الحاجة إلى الناس مُرَّة، فحلَّها بذكائك،
ومياه الوجوه عزيزة على أهلها،
فإياك أن تضطرَّ إنساناً إلى إراقة ماء وجهه،
المنع بأدب، خير من العطاء بفظاظة،
وتأمل قول ربِّك،
﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾
وانظُرو إلى أدب موسى عليه السلام، لما سقى ماشية المرأتين،
تركهما، وتولى إلى الظل،
هكذا هم النبلاء، إذا أحسنوا ابتعدوا، كي لا يروا ذلَّ الأخذ في وجوه الناس!

160

روى «ابن الجوزي» في كتابه «التبصرة»،
أنَّ الخليفةَ العباسي المُعتضد، مرَّ في بعضِ أسفارِهِ بقريةٍ
فيها أرض قثّاء،
وهو نبات شبيه بالخيار،
فدخلَ بعض غلمانه أرضَ القثاء، وأخذوا منها!
فقامَ صاحبُ الأرضِ صارخاً، فحُمِلَ إلى الخليفة، وسألَهُ عن أمره.
فقالَ له: إنَّ بعض غلمانك أخذوا القِثاء من أرضي.
فقالَ له الخليفة: أتعرفهم؟
قال: نعم، هُم ثلاثة.
فجاءَ المُعتضد بغلمانه، وعَرَضَهُم أمام صاحب الأرض، فتعرَّفَ
على غُرمائه!
فأمرَ بهم المُعتضد أن يُقيَّدوا ويُسجنوا.
وفي الصباح، وجدَ الناسُ الثلاثةَ وقد قُتِلوا وصُلِبوا!
فصاروا يتحدَّثون عن سفكِ الخليفةِ للدماء، وأنه قتلَ
ثلاثة في شيءٍ لا يستحق!
ودخلَ الفقيهُ والعَالِمُ «الخوَّاص» على الخليفةِ وكان من جُلَسَائِه،
يُريدُ أن يُنكِرَ عليه!
ولمحَ الخليفةُ في وجهِ الخوَّاص غضباً يعرفه منه إذا أرادَ أن يُنكِرَ
عليه.
فقالَ له: إني أعرفُ في نفسِكَ كلاماً، فما هو؟
فقالَ له الخوَّاص: وأنا آمن؟

فقالَ له المُعتضد: نعم.
فقالَ الخوَّاص: تقتلُ ثلاثةَ غلمانٍ في بعضِ القِثاء،
لعمري هذا تجرُّؤٌ على الدماءِ يا أمير المؤمنين!
فقالَ له الخليفة: أتحسب أنَّ المصلوبين هم غلمان القِثاء؟
لا واللّهِ، هؤلاء لُصوص، قَتلوا وسَرقوا، فوجبَ قتلهم،
فألبستُهُم ثيابَ غلماني بعد قتلهم، وعرضتُهُم للناسِ،
حتى يقولوا إن كانَ قد قتلَ غلمانه لأنهم سرقوا،
فلن يرحمَ منا أحداً،
وما أردتُ إلا أن أُرهِبَ الجيشَ حتى لا يُفسِدوا في الأرض!

للّه درُّ الفقيه الخوَّاص، وللّه درُّ الخليفة المُعتضد!
عندما رأى الخوَّاصُ أن الخليفة قد أتى مُنكراً، لم يتزلَّف له،
ولم يمدحْ فِعلته لينال عنده الحُظوة، وإنَّما
أخبره بأن ما كانَ منه خطأ،
وأنه ما كانَ يجب أن يفعل.
إنَّ أكثر مصائبنا اليوم ليستْ في الحُكَّامِ، بقدرِ ما هي في الحاشية،
فالحاكمُ بشرٌ يُخطِئُ ويُصيب، ولو وجدَ من جُلسائه من ينصحه
ويُنكر عليه، لتغيَّرَتْ الأحوال،
ولكن قاتلَ اللّهُ التطبيلَ والمُطبِّلين!

وما أذكى الخليفة حين عرفَ أن الناس إنما ينظرون إليه وإلى حاشيته،

وأنه إذا رتعَ وأفسدَ وإياهم، فإنَّ الناس يقتدون بهم،
وإن استقامَ وإيَّاهم استقاموا،
وقد أرادَ أن يعرفَ الناس أن لا كبير أمام الحق،
وأن الكل تحت سقفِ القانون،
ولا شيء يُرسي دعائم الدُّوَلِ غير أن يكونَ الكل أمام القانون سواء!

161

في كتاب البدايةِ والنّهايةِ لابن كثير:

قال الفضل بن أبي عياش، كنتُ جالساً مع وهب بن منبه،

فأتاه رجل فقال له: إني مررتُ بفلانٍ وهو يشتمُكَ!

فغضبَ وهب وقال له: أما وجد الشيطان رسولاً غيركَ؟

وما أكثر رُسَل إبليس في زماننا،

وما أقلَّ رُسَل الملائكة!

إذا تكلَّم أحدٌ عن أحدٍ بسوءٍ في غيابه،

وجد الكثيرين يحملون هذا السوء ويبلغونه إلى صاحبه،

وإذا تكلم أحدٌ عن أحدٍ بخير في غيابه،

فلا يكاد يجد أحداً يحمل هذا الخير ويبلغه،

ما أكثر النَّمامين، وما أقل وائدي الفتن في مهدها،

أغلقوا الأبواب في وجوه النمامين، ولا تستمعوا إليهم،

وخذوها عندكم قاعدة:

النَّمام لا يُؤتمن ولو كان ما قاله حقاً!

من نقلَ لكم نقلَ عليكم، ومن نمَّ لكم نمَّ عليكم!

162

سمعَ التابعيُّ الجليلُ عبدُ الله بن المُبارك رجلاً سكرانَ يُنشِدُ شعراً ويقول:

أذلَّني الهوى فأنا الذليلُ

وليسَ إلى الذي أهوى سبيلُ

فأخرجَ ورقةً وقلماً، وكتبَ البيت!

فقِيلَ له: أتكتبُ بيت شعرٍ سمعته من سكران؟

فقال: رُبَّ جوهرةٍ في مزبلةٍ!

الحكمةُ ضالةُ المؤمن، يأخذها من أيِّ وعاءٍ خرجتْ، ومن أيِّ إناءٍ نضحَ بها،

ولو كانَ الناطقُ بها عدواً،

تماماً كما يُتركُ الباطلُ ولو قاله أحب الناسِ إلينا!

نحن لا نعيش وحدنا على ظهرِ هذا الكوكب،

هذه البشريةُ نهاية المطافِ أُسرة واحدة مهما حاولنا أن نُنكِرَ هذا، نقرأُ هُنا وهُناك، ونتعاملُ مع هذا وذاك، والعاقلُ كالنحلِ يقعُ على كُلِّ زهرٍ أينما نبتَ!

في أقوالِ أُدباء الغربِ أشياء كثيرة جميلة،

وعند شعراء الجاهلية حِكم رائعة،

وقد كانَ عُمر بن الخطاب مُعجباً بشعرِ زُهير بن أبي سُلمى،

ولم يقُلْ إنه رجل من أهلِ الجاهلية،
وإنما كانَ يتذوقُ حكمته ويتركُ شِركه،
لأنَّ أخذ قول عذب من مُخالفٍ في الدِّينِ والمُعتَقَدِ لا يعني أخذ دينه ومعتقده!

والاعترافُ بمزايا الآخرين من خُلُقِ الأنبياء، ألم ترَ أنَّ موسى عليه السلام قال: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً﴾!
وهَضْمُ الآخرين مُميزاتهم من خُلُقِ إبليس، ألم ترَ أنه قال: ﴿أنا خير منه﴾!
وقد بلغتْ عدالةُ النبيِّ ﷺ حداً جعلته يُقِرُّ بالحقِ الذي قاله يوماً شيطان!
فحينَ وضعَ أبا هُريرة على الصدقات،
قبضَ على رجلٍ يسرقُ من الطعام،
فأرادَ أن يرفعه إلى النبيِّ ﷺ،
فتعلَّلَ الرجلُ بالفقرِ وكثرةِ العِيال، فأشفقَ عليه أبو هُريرة وتركه!
وتكررَ المشهدُ في اليوم الثاني بحذافيره!
وفي كلِّ مرةٍ يسألُ النبيُّ ﷺ أبا هريرة: ما فعلَ أسيركَ البارحة؟
فيُخبره أنه وعده أن لا يعود،
فيقولُ لهُ النبيُّ ﷺ: أمَا إنَّه كذبكَ وسيعود!
وفي اليومِ الثالثِ حين قبضَ عليه، قالَ له:
لأرفعنَّكَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، وهذا آخر ثلاث مرات تزعمُ أنكَ لا تعود

ثم تعود!

فقالَ الرجل: دعني أُعلمك كلماتٍ ينفعكَ اللّه بها.

فقالَ أبو هريرة: ما هي؟

فقالَ له: إذا أَوَيْتَ إلى فراشكَ فاقرأ آيةَ الكُرسي،

فإنكَ لا يزال عليكَ من اللّه حافظ ولا يقربنَّك شيطان حتى تُصبح!

ولمَّا أخبرَ أبو هُريرة النبيَّ ﷺ بالأمر، قالَ له:

أمَا إنَّه صدقكَ وهو كذوب، تعلمُ من تُخاطبُ

منذ ثلاث ليالٍ يا أبا هريرة؟

فقال: لا

فقالَ له: ذاكَ شيطان!

الفكرة من كل هذا أن كل حقٍّ يُقبل، وكل باطلٍ يُرد،

والعبرة في القول لا القائل، والفعل لا الفاعل، وما عدا

ذلك هوى واستنساب!

163

في العام 1967، وفي ملعب كرة القدم الرئيسي في كولومبيا،
لم يكن هناك متسع لرأس دبوس، كان الملعب مزدحماً،
إنها المباراة النهائية بين أشهر فريقين في البلاد: «ميوناريوس وسانتافيه».
وفي اللحظة الأخيرة من المباراة التي كانت تشير إلى التعادل،
وقع «عمر ديفاني» مهاجم «سانتافيه» في
منطقة الجزاء دون أن يلمسه أحد!
أشار الحكم إلى ركلة جزاء!
وقف «عمر ديفاني» في مواجهة حارس المرمى،
وكان يرى أمامه فوزاً ملوثاً بالغش،
لقد رأى أنه لا يمكن له أن يتحمل هذه الكارثة الأخلاقية طوال عمره،
فلم يُسدد الكرة خارج المرمى فقط، وإنما سددها نحو خط التماس،
معلناً أنه لا يمكن أن يقبل بفوز رخيص!
هذا الفعل الشجاع تسبب له بكارثة، انهت حياته الكروية، ولكنه قال فيما بعد: لستُ نادماً أبداً، أنا أقف كل صباحٍ بفخرٍ أمام المرآة!

لطالما وقعتّ الأخطاء التحكيمية داخل المستطيل الأخضر،
وكلنا شاهدنا كم من الفرق خرجت من
منافساتٍ بسبب هذه الأخطاء،

وأخرى صعدت إلى منصات التتويج بهذه الأخطاء أيضاً،
وصحيح أن مارادونا كان معجزة كروية، إلا أنه سجل هدفاً في نصف النهائي بيده!
وحتى بعد أن أقرتّ الفيفا تقنية «الفار»،
أدى هذا إلى الحد من الأخطاء التحكيمية، ولكنه لم يقضِ عليه بالكُليَّة،
وعلى المستوى الشخصي كنتُ وما زلتُ أرى أنَّ هذه الأخطاء هي جزء من اللعبة،
بل هي بالأحرى جزء من الحياة عموماً!
فليس في ملاعب كرة القدم فقط يُظلمُ المتنافسون،
ولا في ميادينها فقط يأخذ أحدهم شيئاً ليس له!

وكرة القدم وإن كانت نهاية المطاف لعبة،
إلا أن مواقف النزاهة فيها شيء محترم، وتُرفع له القبعة!
كان بإمكان «عمر ديفاني» أن يسجل هدفاً من ركلة جزاء جائرة،
هذا قرار الحكم وليس قراره، وقد سجل لاعبون كثر أهدافاً من ضربات جزاءٍ جائرة!
ولكن اللاعبين بشر مثلنا جميعاً،
تختلفُ نظراتهم إلى الأمور، وإلى أنفسهم أيضاً،
وصحيح أن الجميع نهاية المطاف يتذكرون النتيجة وينسون تفاصيل المباريات،
إلا أن النزاهة في اللعب شيء يجب أن يُشاد به،

والإنسان الذي يرفضُ فوزاً بالغش ويُفضِّل الخسارة عليها،
هو إنسان فائز مهما قالت نتيجة المباريات عكس ذلك،
ليس هناك فوز أكبر من أن يربح المرءُ نفسه!

164

في كتاب شرحِ رسالة كلمة الإخلاص للحافظ ابن رجب:
راودَ رجلٌ امرأَةً عن نفسها في فلاةٍ ليلاً،
فأبتْ أن تُجيبه، وامتنعتْ منه،
فقال لها: ما يرانا إلا الكواكب!
فقالت له: يا رجل، فأين مُكوكِبُها؟!
درسٍ بليغ في استحضار مراقبة اللّه: فأين مكوكبها؟!
اللّهُ مطَّلعٌ، وإن غابتْ عنك عيون الناس،
الحفرة التي تحفرها لغيركَ رآها اللّه،
والوشاية التي مشيتَ فيها بهدوء اطلع عليها اللّه،
والنميمة التي همستَ بها سمعها اللّه،
وخراب البيوت الذي اجتهدتَ فيه نظَرَ اللّهُ إليه،
فيٍ كل أعمالكَ التي غابت عن عيون الناس تذكر:
اللّه رأى، والملائكة دوَّنَتْ!

165

قالَ عبدُ الله بن البواب، وكانَ من جُلساءِ المأمون:
كانَ المأمونُ يحلمُ حتى يُغيظنا في بعضِ الأوقات، فنقولُ في أنفسنا:
ألا يغضبُ هذا الرجل لنفسه وهو الخليفة!
وفي يومٍ من الأيامِ جلسَ على ضِفافِ دجلة ونحن معه،
فمرَّ رجلٌ وقال: أتظنون أن هذا المأمون ينبلُ في عيني وقد قتلَ أخاه؟
ولم يكُن الرجل يدري أنَّ هذا هو المأمون!
فواللهِ ما زادَ المأمونُ على أن تبسَّم، وقالَ لنا:
ما الحيلةُ عندكم حتى أنبلُ في عينِ هذا الرجل الجليل!

ودخلَ عُمر بن عبد العزيز المسجدَ في ليلةٍ مُظلمةٍ،
فمرَّ برجلٍ نائمٍ فتعثَّرَ به، فرفعَ الرجلُ رأسهُ وقالَ لعُمر: أمجنون أنتَ؟
فقالَ له عُمر: لا!
فهمَّ به الحرس يُريدون أن يُعاقبوه،
فقالَ لهم عُمر: دعوه، إنَّما سألني أمجنون أنتَ؟ فقلتُ: لا!

وروى ابنُ الأثيرِ في كتابه الماتع «الكامل في التاريخ»،
أنَّ صلاح الدين الأيوبي كانَ يوماً جالساً وعنده جماعة،

فرمى أحد خدمه خادماً آخر بحذاءٍ فلم يُصبه،
ووصلَ الحذاءُ إلى صلاحِ الدين فلم يُصبه، ووقعَ قريباً منه،
فالتفتَ صلاحُ الدينِ إلى الجهةِ الأُخرى يُحدِّثُ جليساً له، وتغافلَ
عنه ولم يُعقِّب!

في المستطرف أنَّ رجلاً سبَّ عبدَ اللّه بن عباس،
فلمَّا فرغَ، التفتَ ابن عباس إلى مولاه، وقالَ له:
يا عِكرمة، هل للرجلِ حاجة عندنا فنقضيها له؟!
فنكسَ الرجلُ رأسَهُ حياءً، وانصرف!

الفكرةُ أنَّ العقولَ والأخلاقَ بين الناس أرزاقٌ كالأموال،
منهم الفقير فيها ومنهم الغني،
ولا يخلو أن يتعرضَ المرءُ لموقفٍ مُستفزٍ من سفيه،
أو لوقاحةٍ من شخصٍ بينه وبين الأخلاقِ كما بين المشرقِ والمغرب،
فإن ردَّ عليه بمثلِ قوله، فقد نزلَ إلى مُستواه،
وإن تغاضى وحلمَ كان هذا رفعةً له، وزكاة عقله وخلقه،
فمن حارب الناسَ بسلاحهم فقد شَابَهَهُم!
ومن تغاضى وتغافلَ وأمضاها كانَ أسلم له في دينه وخلقه،
ألا وإنَّ في الحياةِ معارك المهزوم والمُنتصر فيها سواء،
فلا تخوضوها!

166

في كتاب المحاسن والأضداد للجاحظ:
وُجدَ في بعض خزائن ملوك العجم لوح من الحجارة، مكتوب فيه:
كُنْ لما لا ترجو أرجى منكَ لما ترجو،
فإن موسى عليه السلام خرج ليقتبس ناراً، فنُودِيَ بالنبوة!
إن اللّه تعالى يسوقُ الخير سوقاً من حيث لا نحتسب،
ويحملُ إلينا العطايا مغلفةً بالبلايا، فلا ندركَ هذا إلا بعد حين،
وإنكَ لو شهدتَ الخضر يثقب سفينة المساكين، لانتقدته،
ولكنك عرفتَ لاحقاً أن ذاك الثقب هو الذي أبقاها لهم،
ولو شهدته يقتل الغلام، لأنكرتَ عليه،
ولكنكَ عرفتَ لاحقاً أنَّ في هذا الألم، بلسم للجميع،
خراب قليل في الدنيا هو ثمن بخس لصلاح الاخرة!
كان في صلح الحديبية إجحافاً، وفي طياته فتحاً،
وفي طريق الهجرة طرد وخوف ومشقة، وفي أعماقه عزاً ودولة!
نحن لا نرى من المشهد إلا في حدود الفهم البشري القاصر،
أما اللّه سبحانه فيدبره بحكمته البالغة،
فإن استقام لك الفهم فاحمَدْ، وإن لم يستقِمْ لك فارضَ!

167

يُحكى أن ملكاً جباراً من ملوكِ فارس قرَّبَ إليه طباخه طعاماً،
فوقعتْ منه نقطة على ثيابه، فغضبَ الملكُ، وعلمَ الطباخُ أنه لا
محالة مقتول!
فأمسكَ الطباخُ بالإناء، وصبَّه كله على الملك!
فقالَ له الملك: ما حملَكَ على ما فعلتَ وأنتَ تعرفُ أني سأقتلكَ
بالنقطة، فكيف بهذا؟!
فقالَ له الطباخ: استحييتُ أن تقولَ الناسُ،
إنَّ الملكَ قتلَ طباخه وخادمه لسنواتٍ لأجلِ نُقطة طعامٍ أصابتْ
ثيابه،
فأردتُ أن يعظُمَ خطئي، ليُعذر الملكُ في قتلي!
فعفا عنه الملك، وأمرَ له بجائزة!

الحِلمُ من شِيَمِ النُبلاء، وكانتْ العربُ في الجاهليةِ تعده من مكارمِ
الأخلاق،
فجاءَ الإسلامُ وجعله زينة أخلاق الرجال!
على أنه يجب أن يُعلم أنه لا حِلم لمن لا قُدرة له،
فالحِلمُ إنما يكونُ عن قوة، وعن مقدرةٍ على الانتقام،
وإلا كان ذُلّاً يُحاولُ أن يُجمِّلَ نفسه، وعجزاً يتسترُ بعباءةِ التسامح!

سبَّ رجلٌ عبدَ اللّهِ بن عباس، فلما فرغَ،
التفتَ ابن عباسٍ إلى مولاه عِكرمة وقالَ له:
يا عِكرمة، هل للرجل حاجة فنقضيها له!
فنكَّسَ الرجلُ رأسه، واستحى ممَّا رأى من حِلم ابن عباس.

وشتمَ رجلٌ الصحابي الجليل أبا ذر،
فقالَ له: يا هذا، لا تُغرق في شتمنا، ودَعْ للصلحِ موضعاً،
فإنا لا نُكافئُ من عصى اللّه فينا بأكثرِ مما نُطيع اللّه فيه!

وشتمَ رجلٌ الإمام الشّعبي، فقالَ له الشعبي:
إن كنتَ صادقاً فغفرَ اللّه لي، وإن كنتَ كاذباً فغفرَ اللّه لكَ!

وأسمعَ رجلٌ عُمرَ بن عبد العزيز كلاماً يكرهه.
فقال له عُمر: لا عليكَ، إنما أردتَ أن يستفزني الشيطان بعزةِ السُّلطان،
فأنالُ منكَ اليوم ما تناله مني غداً، انصرِفْ غفرَ اللّهُ لكَ!

168

في كتاب نفحِ الطيبِ للمقريّ التلمسانيّ:
كان أهل الأندلس إذا رأوا شخصاً قادراً على العمل يستعطي،
سبُّوه، وأهانوه، ولم يتصدقوا عليه،
فلا تجد في الأندلس مستعطياً إلا صاحب عذر!
قلتُ: وهذا من فقه أهل الأندلس، وحُسن تدبيرهم!
فإن ظاهرة التسول كمهنة، أذية للناس،
وتشويه لمنظر البلد، وحرمان مستحق الصدقة فعلاً،
وأسوأ ما في هؤلاء المتسولين الذين اتخذوها مهنةً،
أن لا حياء عندهم، ولا ماء في وجوههم،
واللّٰهِ، ولا أحلفُ باللّٰهِ إلا صادقاً،
أنه مرَّةً سألني شاب كالجدار طولاً وقوةً صدقةً،
فقلتُ له: ولمَ لا تعمل، لا أنتَ مريض ولا عاجز،
فقال لي بكل وقاحة: وكم سيعطوني؟ هذه أربح لي!
فقلتُ له: ولكن فرق بين لقمة تأكلها بشرف ولقمة تأكلها بمذلة،
فقال لي: هي، هي!
وأدار لي ظهره ومضى!
لا تعطوا صدقاتكم لمن لا يستحق، لأنكم بهذا تشجعونهم،
أما مع المستحق، فإن لم يكن لك إلا رغيف، اقسمه بينك وبينه!

169

في صحيحِ البُخاري، أنَّ امرأتين خرجتا، ومع كلٍّ واحدةٍ منهما صبيّ رضيع لها،
فجاءَ الذئبُ وأكلَ أحدهما،
فادَّعتْ كل واحدة منهما أنَّ الذئبَ إنما أكلَ ابن صاحبتها!
فتحاكمتا إلى داود عليه السلام، وقصَّتا عليه القصة، فحكمَ به للكُبرى.
ثم اختصمتا إلى سُليمان عليه السلام، فقال:
ائتوني بسكينٍ أشقُّ الغلامَ نصفين، لكلٍّ منكما نصف!
فقالتْ الكُبرى: نعم.
وقالتْ الصُغرى: لا تفعل، فنصيبي فيه لها!
فقالَ للصُغرى: خُذيه فهو ابنكِ!

كانَ سُليمانُ عليه السلام داهيةً في القضاء، أعطاه اللّهُ منه حظاً وافراً،
ومن دهائه أنَّ رجلاً جاءه وقال: يا نبي اللّه، إن لي جيراناً يسرقون إوزي!
فنادى عليه السَّلام أنَّ الصلاةَ جامعة!
ثم صعدَ المنبرَ وخطبَ في الناسِ وقال:
ما بال أحدكم يسرقُ إوز جاره ثم يدخلُ المسجد والريش على رأسه؟!

فمسحَ رجلٌ رأسَه!
فقالَ سُليمان عليه السلام: خُذوه فإنه صاحبكم!

وحين أصابَ سُليمان الحُكْمَ في قصةِ المرأتين، ولم يُصِبْ في هذا داود عليه السلام،
فهذا لأنَّ اللّٰه تعالى فضَّل الأنبياء بعضهم على بعض،
وأعطى بعضهم ما لم يُعْطِ بعضاً،
فسُليمان عليه السلام في القضاءِ أبرع من داود عليه السلام،
وكلاهما بِنَصِّ القرآن أوتِيَ حُكماً وعلماً!
وقد كانَ هارونُ عليه السلام أفصحَ من مُوسى عليه السلام لساناً،
ومُوسى بلا خِلافٍ أفضل من هارون بالمُجمل!
فإذا تفاوتَ الأنبياءُ عليهم السلام أجمعين بما أعطاهم ربهم،
فمن بابٍ أَوْلَى أن يتفاوتَ الناسُ كذلك!
وحين غابَ عن داود الحكم وأصابه سُليمان عليهما السلام،
فمن بابٍ أَوْلَى أن يختلفَ الفُقهاء، ويُصيبُ أحدهم ويُخطئ آخر،
وكلهم مُجتهدٌ صاحبُ فضل، قاصدٌ وجهَ اللّٰه، ونفعَ الأمة،
فلا نتعصَّب للمذاهب، ولا نهضم حقوق الآخرين،
نعترفُ للجميعِ بأفضالهم، ونتقربُ إلى اللّٰهِ تعالى بحبهم!

170

استعارَ رجلٌ من أبي حامد، أحمد بن أبي طاهر الفقيه كتاباً،
فرآه أبو حامدٍ وقد وضعَ على الكتابِ عنباً!
ثم إنَّ الرجلَ سألهُ بعد ذلكَ أن يُعيرَهُ كتاباً آخر.
فقالَ له: تجيءُ إلى منزلي وتأخذه.
فجاءه في منزله، فأخرجَ له الكتاب في طبق، وناوله إياه!
فقال: ما هذا؟
فقالَ له: هذا الكتابُ الذي طلبته، وهذا الطبق تضعُ عليه ما تأكله!
فعلِمَ الرجلُ سوءَ فِعلته الأولى!

الناسُ كُتبهم عزيزةٌ عليهم، ولولا حُب النفع، واحتساب الأجر، ونشر الثقافة، وعدم رد المُستعير لمكانته في القلب، ما أعارَ أحدٌ لأحدٍ كتاباً!
فعلى مُستعير الكتبِ أن يحفظَ الكتابَ الذي استعاره،
وأن يُعيده سليماً مُعافى كما أخذه!
البعضُ حين يُعيدون الكتب التي استعاروها تجد أنَّهم تركوا عليها أثر الطعام،
وكأنه استعارَ الكتابَ ليُطعمه لا ليقرأه!
والبعضُ يُعيدُ إليكَ كتابكَ وآثار القهوةِ على صفحاته،
فيه دبوغ تُلوِّثُ الصفحات، وتنتهكُ بياضها!
والبعضُ قد يسكب كوب ماء عليه، عن غيرِ قصدٍ طبعاً،

ولكنه الإهمال وعدم الحرص،
فتأخذ كتابكَ وقد انتفشَ كأنه طاوس مزهوٌّ بجمالِ ريشه!
والبعضُ يعيدُ إليكَ كتابكَ وفيه خطوط ومُلاحظات على جملٍ
أعجبته!
يا أخي هذا كتابي وليس كتابك، وهذا عبثٌ مرفوض،
وعدم إحساس بالمسؤولية، ويدخلُ في بابِ تضييعِ الأمانة،
فالإنسانُ مُستأمَنٌ على ما استعاره!
والبعضُ أسوأ من الجميع الذين سبقَ ذكرهم،
وهو الذي يستولي على الكتاب استيلاءً تاماً!
يُذكرني هذا بقولٍ طريفٍ «لأناتول فرانس»:
لا تُعِرْ كتبكَ للآخرين، لأنهم لن يُرجعوها لكَ،
الكتبُ التي في مكتبتي هي التي أعارها لي الآخرون!

171

في كتاب الصداقة والصّديق لأبي حيان التوحيديّ:
قال الأصمعيُّ: دخلتُ على الخليل بن أحمد وهو جالس على حصير صغير،
فقال: تعالَ واجلِسْ بجانبي،
فقلتُ: أخشى أن أُضيِّق عليكَ!
فقال: لا يضيقُ سَمُّ خياط على متحابين،
ولا تتسعُ الدنيا كلها لمتباغِضين!
هكذا هي القلوب إذا أحبَّتْ دَنَتْ، وإذا كرهتْ نأتْ،
نحن نحملُ جبلاً حين نُحبُّ، ونراه خفيفاً،
ولكننا لا نحمل حصاةً لمن نبغض،
الذي نحبُّه نريده أن يقترب أكثر ولو كانت يدنا في يده،
والذي نبغضه نريده أن يبتعد أكثر،
ولو كان في القطب الشمالي ونحن في القطب الجنوبي،
المسألة لم تتعلق يوماً بالمسافات وإنما بالقلوب!

172

قالَ علي بن أبي حرارة: كانتْ أمي مُقعدة نحو عشرين سنة، فقالتْ لي يوماً: اِذهبْ إلى أحمد بن حنبل فَسَلْهُ أن يدعو الله لي، فإنَّه رجلٌ مُبارك!

فسرتُ إليه وطرقتُ بابه، فلم يفتح، وإنما قالَ وهو في بيته: من هذا؟

فقلت: رجلٌ من بغداد، سألتني أمي وهي مُقعدة أن أسألكَ أن تدعو الله لها!

فَسَمِعْتُهُ كالغضبان يقول: نحنُ أحوجُ إلى الدعاءِ من أمك!

فوقفتُ لا أدري ما أفعل،

فخرجتْ امرأة عجوز من الدار وقالتْ: أنتَ الذي كلَّمْتَ أبا عبد الله؟

قلتُ: نعم.

قالت: اِذهبْ فإني سمعتُه يدعو لأمك!

فعدتُ إلى البيت، وطرقتُ الباب، فخرجتْ أمي تمشي على رجليها، وفتحتْ لي الباب وقالتْ: أما قلتُ لكَ إنه رجلٌ مُبارك؟!

الصالحون بركة، محبتهم تقربٌ إلى الله تعالى، وتوقيرُهم عبادة، وطلبُ الدعاءِ منهم من بابِ استعطافِ اللهِ بأحبابه،

وقد كانَ أحمد بن حنبل من أهلِ الله وأحبابه، به حفظَ شرعه، وثبتَ مِلَّته،

وهذه ليسَت إلا إحدى بركاته!

جاءه رجلٌ من الشام وقد كانتْ أرض ثُغورٍ وجهاد،
وكانَ الإمامُ قد مُنِعَ من الحديثِ والتدريسِ والخروجِ إلى الصلاة،
فقالَ له: ما أكثر الداعين لك يا إمام!
فقال له أحمد: أسألُ الله أن لا يكون فتنة لنا، ولكن بِمَ ذاك؟
فقالَ له: كُنا إذا نصبنا المجانيق، ورمينا العدو، فأخطأنا،
نرمي في المرةِ الثانيةِ ونقول: اللهم هذا عن أحمد بن حنبل!
فنُصيب!

نُحِبُّ الصالحين، بلا إفراطٍ ولا تفريط،
لا نُغالي فيهم، ولا نهضمهم حقّهم، وسطيةٌ سمحاءُ بَيْنَ بَيْن!
وقد خرجَ عُمر بن الخطاب يوماً للاستسقاء،
فنادى على العباسِ بن عبد المُطلب، وجعله جنبه وقال:
اللهم إنَّا كُنَّا نستسقي بنبيِّك، وها نحن نستسقي بعمِّ نبيِّك!

أما متى ما ماتَ الصالحون فلا تُقصد قبورهم للاستشفاء،
ولا طلبِ المعونة والاستسقاءِ، فهذا من الشِركِ أعاذنا اللهُ وإياكم منه!

تقرَّبوا من الصالحين، أحبوهم، ووقروهم،
وسلوهم الدُعاء بما تظنون أن الصالح حبيب الله،
ثم إنَّ الأمر كله لله، إن شاء أعطى وإن شاءَ منعَ،
وإنه لا مُكْرِه له، ولكن الدعاء سبب!

173

أعطى أبو الطيِّب الطبري حذاءه إلى إسكافي ليُصلحه،
وكانَ الإسكافيُّ كثيرَ الأشغالِ كثيرَ الأعذار،
وكانَ كُلما رأى أبا الطيِّبِ قادماً إليه تذكَّرَ الحِذاء،
ووضعه في الماءِ ليُوهمه أنه سيُصلحه عمَّا قريب.
وكانَ أبو الطيِّبِ حين يرى هذا لا يشكُّ أنه سيقومُ بإصلاحِهِ فعلاً.
ولمَّا طالَ العهدُ بهما على هذهِ الحال، قالَ له أبو الطيِّب:
يا هذا إنَّما أعطيتكَ الحذاءِ لتُصلحه لا لتُعلمه السِباحة!

يبدو أنَّ بعضَ الأشياءِ لا تتغير على ظهرِ هذا الكوكب،
فالمُلاحَظ والمُعاش اليوم أنَّ إخلافَ الوعودِ في أهلِ الحِرفِ والمِهَنِ،
يكادُ يكونُ سمةً عامةً إلَّا من رَحِمَ ربي منهم!

تُقطعُ الكهرباءُ في بيتك فتتصلُ بأحدهم، فيقولُ لك: عشرُ دقائق أكونُ عندك!
وتمضي الساعةُ والساعتان والثلاث ولا يحضر،
وهذا الوقت يكفي أديسون لاختراعِ مِصباحٍ كهربائي،
فتبقى أنتَ في الظلمة، لأنَّ أخينا بِاللّهِ في ورشةٍ أخرى
ولا يُريدُ أن يطيرَ الزبونُ –الذي هو أنتَ– من يده!
ويكونُ عند الميكانيكي عشر سيارات للتصليح،

فلا يقول لكَ أنه مُنشغل، يطلبُ منكَ أن تركنَ سيارتك، وترجع بعد ساعة،
ولو استلمتها منه آخر النهارِ فقد أُوتيتَ حظاً عظيماً،
ولديهم قُدرة على اختراعِ الأعذارِ تجعلكَ تُصدق أحدهم مع إيمانكَ أنه يكذب!

ما كنتُ أعرفُ أنَّ على هذه الأرضِ هذه الكمية من الكذبِ، وإخلافِ المواعيدِ،
إلَّا حين شرعتُ ببناءِ منزلي!
كنتُ أركضُ وراء أحدهم كأنه سيعملُ لي صدقة لا سيتقاضى أجره!
لا أفهم ما المانع في أن يعتذرَ أحدهم عن ورشةٍ جديدةٍ،
إن كانَ لديه أُخرى يعملُ بها،
أو ما المانع أن يخبرَ أحدهم أحدنا عن الوقتِ الحقيقي الذي سيتمُّ فيه إنجاز عمله،
كل ورشةٍ تفتح له ذراعيها يرمي نفسه بها،
يحضر ويضعُ فيها عدة بسيطة، ويعملُ شيئاً يسيراً ثم ينصرفُ إلى غيرها،
وبهذا يكونُ قد حجزها، فلا هو أخذها ولا تركها لغيره،
كالذي يخطبُ فتاةً ويسافرُ ليحصل على جنسيةٍ ثم يعود،
يتركها كالمعلقةِ لا متزوجة ولا مطلقة، لا هي له ولا لغيره!
قليلٌ من الصدقِ يرحمكم الله، فإنَّ الله يُباركُ بالقليلِ من الرزقِ مع الصدق،
ويمحقُ الكثيرَ منه مع الكذب!

174

بمناسبةِ يوم العمال، زارَ الزعيمُ السوفياتي «خروتشوف» مصنعاً كبيراً،
ولفتَ نظره عاملٌ نشيط، فسألَ عن سيرته، فوجدَها حسنة،
فأمرَ أن يُعطى بيتاً وعربة.
ومرَّتِ الأيام، وفي يومِ العمالِ التالي، قامَ «خروتشوف» بجولته مرةً أخرى،
وزارَ ذات المصنع، ورأى العامل، وقالَ له:
ألسْتَ العامل الذي أعطيناه بيتاً وعربة؟
فقالَ له: ولكني لم آخذْ شيئاً!
فقالِ «خروتشوف» لمديرِ المصنع: لماذا لم تُنفذوا كلامي؟
فما كانَ من مديرِ المصنعِ إلا أن أحضرَ له جريدة «البرافدا»،
الجريدة الرسمية للحزبِ الشيوعي، وقال:
أعطيناه العربة والبيت، وهذه صورته يقفُ أمام البيت والعربة!
فقالَ «خروتشوف» للعامل: لقد أعطوكَ يا بُني، لكن يبدو أنكَ لا تقرأ «البرافدا»!

إنَّ الذي يأخذُ الحقائقَ من الإعلامِ الرسمي، في دولِ الاستبدادِ خصوصاً،
يكونُ نصيبه في الغالبِ من الحقيقةِ كنصيبِ عاملِ المصنعِ في القصةِ أعلاه!

عندما هربَ نابليون من سجنه في جزيرةِ ألبا،
وعادَ بخطىً واثقة ليستعيد مُلكه من لويس الثامن عشر،
كتبتْ الصحيفةُ الرسميةُ للدولةِ الفرنسيةِ وقتذاك «المونيتر أونيفرسال» تقول:
إنَّ الفرنسيين يتشوقون لهفةً للدفاعِ عن الملكِ لويس،
ضد نابليون مُغتصب الوطن بقوةِ السلاح، والمأجور،
والخارج عن القانون، وزعيم قطاع الطرق!
ولكن نابليون تابعَ زحفه، ووصلَ إلى العاصمة، فهربَ الملكُ،
وأحكمَ نابليون يده على مقاليدِ الحُكم مجدداً!
في صبيحةِ اليومِ التالي كتبتْ الصحيفةُ ذاتها تقول:
أحدثَ خبر دخول نابليون السعيد إلى العاصمةِ ابتهاجاً،
والجميعُ يتبادلون العناق، وهتافاتُ يحيا الإمبراطور تملأُ الأجواء!

طبعاً لستُ أنادي بصحافةٍ قائمةٍ على الردح، لا تعرف إلا الهجاء،
فهذا لا يقل سوءاً وقُبحاً عن التطبيل،
كلُّ الذي أُنادي به صحافة تكتبُ الحقيقةَ فقط كما هي،
وكانَ اللّه في عونِ الحقيقة، الجميعُ يدَّعون أنهم يكتبون عنها،
وهي تشعرُ باليُتم، ومن قبل قالَ شاعرنا:

وكلٌّ يدَّعي وصلاً بليلى وليلى لا تُقر لهم بذاكا!

175

في كتاب حلية الأولياء لأبي نعِيم الأصفهاني:
قال أبو داود: دخلتُ على كِرز الحارثيّ فوجدته يبكي،
فقلتُ له: ما يُبكيك؟
فقال: لم أقرأ البارحة حزبي من القرآن،
ما أظنُّ ذلك إلا بذنبٍ قد فعلته!
من كان قلبه معلقاً بالطاعات أبكاه فواتها،
تجد من اعتاد على صيام التطوع حزيناً إذا مرضَ،
ومن اعتاد على قيام الليل حزيناً إن هو فاته،
ومن اعتاد على ركعتي الضحى يومه ناقص بدونها،
ومِنْ قبلُ كان الصحابة يبكيهم أن يفوتهم الجهاد لفقرهم،
هي حرب وقتال، سيوف ورماح، موت وأشلاء،
ويبكيهم أن يمضيَ الجيش بدونهم!
وتأمل قول ربك:
﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾

176

في كتابِ «مرآة الجِنان» لليافعي،
أن سُفيان الثوري كانَ شديد الإنكار على أبي جعفر المنصور لِمَا أحدثَ في أمرِ الخِلافةِ،
فأهدرَ المنصور دمه، وجعلَ يطلبه ليقتله!
فهربَ سُفيان الثوري إلى اليمن مُبتعداً بنفسه،
وما زالَ يتنقلُ من قريةٍ إلى قرية، يُحدِّثهم بحديثِ النبيِّ ﷺ،
ويُعلِّمُهُم أمور دينهم، فيُكرموا وفادته وهُم لا يعرفونه!
ولمَّا آوى إلى بعضِ القُرى ذات ليلة سُرِقَ فيها لبعضِ الناسِ شيء،
فاتَّهموه لأنه غريب، وأتوا به إلى مَعَن بن زائدة،
وكانَ والياً للمنصور على اليمن، وقالوا: إنَّ هذا سرقَ متاعنا وأنكرَ!
فقالَ له مَعَن: ما تقول؟
فقال: ما أخذتُ لهم شيئاً.
ورأى مَعَن بن زائدة بفراستِهِ المعروفةِ أنَّ هذا الوجه ليس بوجهِ سارق، فقالَ لمن حوله: قوموا عني فليَ معه كلام!
فلمَّا قاموا قالَ له: من أنتَ؟
قال: عبد اللّٰه.
فقال له: ابن من؟
فقال: ابن عبد اللّٰه.
فقال له مَعِن: كُلُّنا عباد اللّٰه، أولاد عباد اللّٰه، ما اسمك؟
فقالَ له: سُفيان بن سعيد الثوري!
فقالَ له مَعَن: أنتَ الذي يطلبُكَ أمير المؤمنين؟
فقال: نعم!

فصمتَ مَعَن لحظة، ثم قالَ له: مثلُكَ لا أُسلِّمه أنا، اِذهبْ حيثُ شئتَ!

الشركةُ التي فيها ظُلم لستَ مطالباً بتركها،
ولكنكَ مُطالَب ألا تشترك في الظلم، وألا تكون ذراعاً فيه!
والوظائفُ العامةُ للناسِ جميعاً، لستَ مسؤولاً إن لم يكُنْ الحاكم خليفة راشداً،
أنتَ مسؤولٌ أن تكونَ راشداً في نفسك، ثم أمر الناس إلى اللّه!
كُلُّنا نعجزُ عن إصلاحِ أشياء كثيرة في الواقعِ الذي نعيشه،
ولكننا جميعنا نعرفُ أنه يُمكنُ لنا أن نكون مستقيمين في واقعٍ أعوج!
الحياةُ تحتاجُ إلى تسديدٍ ومُقاربة، إلى أن نتقي اللّه ما استطعنا،
إلى أن ننأى بأنفسنا عن الظُلم والخطأ،
فلا أحد منا سيُسأل عن دينِ الناس وعدلهم،
ولكننا جميعنا سنُسأل عن ديننا وعدلنا نحن! فسدِّدوا وقاربوا!

ثم كُنْ لمَّاحاً، بعض الأشياء ليستْ كما تبدو،
وبعض البشر وراءهم حكايات كثيرة، لا ترَ من المشهدِ إلَّا ما تراه عيناك،
اُنظُرْ بعقلك، وتأمَّل، شيءٌ من التدبُّرِ في الأمور،
قليلٌ من الفراسة، اِتبعْ إحساسكَ أحياناً تَصِلْ إلى الحقيقة!

177

روى «اليافعيُّ» في «مرآة الجِنان»،
أنه لما ماتَ الوليدُ بن عبد الملك، وتولَّى الخلافة أخوه سليمان،
عزلَ يزيد بن أبي مسلم، واستحضره بين يديه،
فرآه دميم الوجه، كبير البطن، فقالَ له: لعنَ اللّهُ من أشركَكَ في أمره!
فقالَ له يزيد: يا أمير المؤمنين لا تَقُلْ هذا،
فإنكَ رأيتني والأمور مدبرة عني، ولو رأيتني وهي مُقبلة عليَّ،
لاستعظمتَ ما استصغرتَ، ولاستجللتَ ما احتقرتَ!
فقالَ له سُليمان: قاتلكَ اللّه، ما أشد عقلكَ، وما أعذب لسانكَ!
ثم قالَ له: يا يزيد، أترى صاحبكَ الحجاج يهوي بعد في النار، أم استقرَّ في قعرها!
فقالَ له: لا تَقُلْ هذا يا أمير المؤمنين،
إنَّ الحجاج عادى عدوّكم، ووالى وليكم، وبذلَ مُهجته لكم،
فهو يوم القيامة عن يمينِ أبيك، ويسارِ أخيك، فاجعله حيث أحببتَ!
فقالَ له: قاتلكَ اللّه، ما أوفاكَ لصاحبكَ!
ثم إنَّ سُليمان كشفَ عنه، فلم يجدْ له خيانة في درهمٍ ولا في دينار،
فأرادَ أن يستعمله مُجدداً!
فقالَ له عُمر بن عبد العزيز: أُعيذُكَ باللّه أن تستخدمه فتُحيي ذِكر الحجاج،
فقد كانَ من خواصِ رجاله!
فقالَ له سُليمان: ولكنه لم يَخُنْ في درهمٍ ولا في دينار!

فقالَ له عُمر: وكذلكَ إبليس لم يخُنّ في درهمٍ ولا في دينار، ولكنَّه أهلكَ الناس!

على عِظَمِ جُرمِ الاختلاسِ من المالِ العامِ لمن يتولَّى أمر الناسِ،
فهو برأيي أخف الجرائم التي تُرتكب!
لأنَّ القضية باختصار: رجلٌ لصٌّ أرادَ الثراءَ لنفسِهِ على حسابِ الناس،
فلا هدمَ لهم دِيناً، ولا ثلمَ لهم عقيدةً، ولا أفسدَ عليهم فطرةً،
وأقل الضرر ما كانَ في خسارةِ المال!
أمَّا الآفة الكبرى، وأم المصائب، ومقتل الأُمم فهو في سلبها روحها، وهويتها،
في قلبِ الحقِ باطلاً لها، وفي تزيينِ المُنكرِ في أعيُنِها،
فيخرجُ لنا جيلٌ من بعد لا يستقيم إلا بشقِّ الأنفس،
ولا يعود إلى جادةِ الصوابِ إلا بألمٍ كنزعِ الرُّوح!
ثمة جرائم أفدح من السرقة، إنَّها إعمال معول الهدمِ في العقيدة،
وزعزعة الثوابت، وبث الشبهات، ومُهاجمة الصالحين
على طريقةِ فرعون ﴿إِنِّى أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى الْأَرْضِ الْفَسَادَ!﴾

كُلُّ البلادِ التي قامتْ فيها ثورات كانَ بعدها بناء الأوطان،
لم يتم فيها تنحية الظالم، وإنما أعوانه أيضاً،

أولئك السحرة الذين طالما بَهروا أعيُنَ الناسِ له،
تلك الطُبول التي كانتْ تُسبِّحُ بحمدِه، وتتسابقُ في إذلالِ الناسِ إرضاءً له!
إبليسُ ليسَ له ثروة نهبها من المالِ العام، ولا يأخذ الرِّشا، ولكنه يُفسدُ في الأرض، يُفسدُ فقط!

178

في كتابه قصص الدراويش يحكي «إدريس شاه» قصةً جميلةً مفادها:

كانَ عند تاجرٍ طيرٌ في قفص، وكان التاجرُ يعتزمُ السفرَ إلى الهند، البلد الذي جاءَ منه الطير، فسأله إن كان يريدُ أن يُحْضِرَ له شيئاً من بلاده!

فقالَ له الطائر: أُريدُ حريتي!

فرفضَ التاجرُ هذا الطلب رفضاً قاطعاً!

عندها قالَ له الطائر: زُرْ الغابة حيث موطني، وأعلِمْ أقاربي عني!

ذهبَ التاجرُ إلى الهند، وعندما أنهى عمله زارَ الغابة، وأعلمَ الطيورَ عن قريبها السجينِ عنده، فوقعَ طائرٌ ميتاً من شدةِ الخبر!

وعندما عادَ إلى وطنه سأله الطائرُ عمَّا إذا قد جاءه بأخبارٍ طيبةٍ من الهند.

فقالَ التاجر: كلا، وأخشى أن تكونَ أخباري سيئة، فقد سقطَ أحدُ أقاربك ميتاً عندما ذكرتك أمامهم!

وما إن سمعَ الطائرُ كلامَ التاجرِ حتى سقطَ ميتاً هو الآخر!

فقال التاجر: لقد قتلتُ عصفورين!

وقامَ بإخراج طائره من القفص، ووضعه على الشرفة.

عندها قفزَ الطائرُ بسرعة، وطارَ إلى شجرةٍ قريبة، وقالَ للتاجر: إنكَ تعلمُ الآن أنَّ ما ظَنَنْتَهُ كارثة كانَ خبراً طيباً لي.

وكيف وصلتني الرسالة من قريبي أنَّني بهذه الطريقة أستطيعُ أن أُحررَ نفسي!

هذه القصة تُضرَبُ في ذكاءِ الرسائل، والشيءُ بالشيءِ يُذكر،
عَشقَ توبة بن الحميَّر ليلى الأخيلية عشقاً تحدثتْ به العرب،
وقد ضاقَ إخوتها به ذرعاً، فعزموا على قتله حين يأتي لرؤيتها،
وأرادتْ أن تُحذِّرَهُ قبل أن يصلَ إليها، فلما علمتْ بقدومه،
صعدتْ أعلى الجبل، وكشفتْ عن وجهها،
وكان من عادتها أنهما إذا التقيا تُبقي على خِمارها ولا تنزعه،
فلما رأى توبة هذا المشهد، عرفَ أن خطباً ما قد حدث،
وأنها تُريدُ منه أن يرجع، وخلَّدَ توبة هذه الحادثة ببيته الشهير:
وكنتُ إذا ما جئتُ ليلى تبرقعتْ
لقد رابني منها الغَداة سُفورها

ومن ذكاءِ الرسائلِ أيضاً، كانَ في مدينة حلب أمير ذكي شجاع هو «علي بن منقذ»،
وكان تابعاً للملكِ «محمود مرداس»، وحدثتْ خُصومة بين الملكِ والأمير،
وعزمَ الملكُ على قتلِ الأمير،
وأمرَ كاتبه أن يكتبَ رسالةً بالأمانِ إلى الأميرِ ليُغريه بالحضورِ ثم يقتله!
وكانَ كاتبُ الملك صديقاً لعلي بن منقذ، وأرادَ أن يحذِّره بطريقةٍ ذكيةٍ،
خصوصاً أن الملك سيقرأُ الرسالة ويَمهرها بختمه!
فكتب الكاتب رسالة عادية جداً وختمها بقوله: إنَّ شاء اللّه تعالى.

ولمَّا قرأَ علي بن منقذ الرسالة، وقفَ على: «إنَّ» مطولاً، لأنه يعرفُ أن صديقه لا يُخطئ في مثل هذا،

فقال إنه يُحذرني، لقد أرادَ أن يقولَ لي:

«إنَّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك»

ومن هذه القصة جرى المثل الشائع، الذي يُضربُ لكلِّ مسألةٍ فيها شك وغموض:

المسألة فيها إنَّ!

179

في سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي:
جاء في ترجمة شقيق البلخي:
أنه قال لزوجته: لو كان أهل بلخٍ كلهم معي وأنتِ ضدي،
ما استطعتُ أن أُقيمَ أمر ديني!
كل شيءٍ يبدأُ في البيت وينتهي فيه،
إذا كان البيت جحيماً فلن ينفع جمال العالم في الخارج،
وكل قسوة الدنيا يداويها بيت ممتلئ باللطف والحُب،
ولستُ أُبالغ إذ أقول إن سبعين بالمئة من سعادتنا أو شقائنا،
مرتبط ارتباطاً وثيقاً ومباشراً بشريك العمر!
نعم كانت آسيا مؤمنة رغم كفر فرعون،
وكان نوح ولوط عليهما السلام نبيين رغم كفر زوجتيهما،
ولكن دون شك إنها بيوت لم تكن كالبيت الذي كان فيه خديجة بنت خويلد،
ثمة فرق شاسع بين أن يشعر المرء أنه وحده،
وبين أن يشعر أن له كتفاً وسنداً!

180

استعملَ معاويةُ بن أبي سُفيان، عبدَ الرحمن بن خالد بن الوليد على الجيشِ،
وقد جمعتِ الرومُ جيشها لِقتالِ المُسلمين، وكتبَ له عهداً،
ثم قالَ له: ما تصنعُ بعهدي هذا؟
فقال: أتخذه إماماً فلا أتجاوزه.
فقالَ له معاوية: رُدَّ إليَّ عهدي. وقامَ بعزله!
ثم بعثَ إلى سُفيان بن عوف الغامدي، وقالَ له:
لقد وليتُكَ إمارة الجيش، وهذا عهدي، فما أنتَ صانع به؟
فقال: أتخذه إماماً ما وافقَ الحزم، فإن خالفه خالفته، وأعملتُ رأيي!
فقالَ له مُعاوية: أنتَ لها!

إنَّ الذي كانَ يبحثُ عنه مُعاوية في الرجالِ الذين يستخدمهم، هو أحد مبادئ الإدارةِ الحديثةِ اليوم، ألا وهو مبدأ التفويض!
بمعنى أن رئيس الحكومة يُكلفُ وزيراً لحقيبةٍ وزارية، ليرى واقع الحال،
ويتخذ القراراتِ بناءً على ما رأى، لا أن يرجعَ إليه في كلِّ صغيرةٍ وكبيرة!
فما الحاجة إلى شخصٍ عاجزٍ عن اتخاذِ أي قرار!
ومبدأُ التفويض في الإدارةِ، كان أول من أرساه في الإسلامِ هو

الخليفة الأول،
وصدِّيق هذه الأُمة سيدنا أبو بكر، فقد كانَ يُولي الرجلَ أمراً،
ويضعُ له المبادئ العامة، ثم يتركُ له التفاصيل، يُعمِلُ بها رأيه،
لأنَّ الذي يشهدُ الحدث أبصر من الذي لم يشهده،
والذي يعيشُ الواقع أعلم به من الغائبِ عنه!
وعلى هذا سارَ عُمر بن الخطاب، فعندما فتحَ أبو عُبيدة بن الجراح أنطاكية،
أرسلَ إليه يستأذنه في عدمِ الإقامةِ فيها، ومُواصلةِ القِتال.
فأرسلَ إليه الفاروق يقول: أَنتَ الشاهدُ وأنا الغائب،
والشاهدُ يرى ما لا يرى الغائب، وأنتَ بحضرةِ عدوك، وعيونكَ يأتونكَ بالأخبار،
فإن رأيتَ أن الدخولَ إلى الرَّوب، ـوهي مدينة قريبة من معسكرِ الجيشِـ صواباً،
فأرسِلْ سراياكَ على بركةِ اللّه!

والتفويضُ ليس للإداراتِ العامة، ولا للجيوشِ فقط!
إنه ينفعُ في البيوتِ كذلك، البيتُ الذي تأخذُ الزوجةُ فرصتها في إدارةِ شؤونه الداخلية،
في تفاصيلَ حياتيةٍ يوميةٍ هو بيتٌ ناجح، فارفعوا أيديكم قليلاً!
الزوجُ الذي يُريدُ أن يتدخلَ في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ،
حتى في مكانِ الكَنبةِ والمزهرية، غثيثٌ وممل!

181

قالَ المأمون: قالَ لي «بختيشوع بن جبريل» الطبيب:
إنَّ الذُّبابَ إذا دُلِكَ به موضع لسعة الزنبورِ سكن.
فلسعني زنبور، فحككتُ على موضعه أكثر من عشرين ذبابة،
فما سكنَ إلا في قدرِ الزمانِ الذي كانَ يسكنُ فيه من غيرِ علاج،
فلم يبقَ إلا أن يقولَ بختيشوع: كانَ هذا الزنبور حتماً قاضياً، ولولا
هذا العلاج لقتلك!
وكذلكَ الأطباء، إذا سقوا دواءً فضرَّ، أو قطعوا عِرقاً فضرَّ،
قالوا: أنتَ مع هذا العلاج الصواب تجدُ ما تجد،
فلولا ذلك العلاج كنتَ الساعة في نارِ جهنم!

يبدو أنَّ بعضَ الأشياءِ لا تتغيَّر على ظهرِ هذا الكوكب،
والحالُ أيام المأمون كالحالِ أيامنا،
ويبدو أنه كانَ كذلكَ مُذ عرفتْ البشريةُ الأطباءَ!
تذهبُ إلى أحدهم فيصِفُ لكَ علاجاً، فإذا لم يُجْدِ، وجئتَ تُراجعه،
قالَ لكَ: احمد الله، لولا هذا العلاج الذي وصفتُهُ لكَ لكانتْ الأمور
أكثر سوءاً!
وإذا سئمتَ من طبيبٍ وذهبتَ إلى آخر مُصطَحِباً معكَ كل
الفُحوصات،
وصور الأشعة، ووصفات الدواء، وقدمتها إليه وأنتَ تشرحُ حالتكَ،
ألقاها جانباً، وقالَ لكَ: حكي فاضي، سنبدأُ من جديد!

طبعاً أحترمُ الطبيبَ الذي لا يصف علاجاً،
إلا بعد أن يُجري فحوصات ليكون على بينةٍ من الحالة،
ولكن التصرف على أنكَ آخر ما تبقى من ابن سينا وأبُقراط أمر غثيث جداً!

أما عن خطِّ بعض الأطباء في الوصفاتِ العلاجيةِ فحدِّثْ ولا حرج،
طلاسمٌ لا يكاد الصيادلة يفُكُّون شِيفرتها إلا بشقِّ الأنفس،
وقد يضطرون إلى مراجعةِ الطبيبِ ليتأكدوا،
أنهم نجحوا فعلاً في فكِّ رموزِ هذه الوصفةِ السحرية.
بالمناسبة فإن سبعة آلاف شخص سنوياً يموتون بسببِ هذه الطلاسم!
أحترمُ مهنةَ الطب كثيراً،
وأَنظُرُ بعينِ الإجلالِ للأطباء ولا شيء عندي ضدهم،
وثقتي بهم كبيرة، وأزورُهم حين أمرض،
ولكن ثمة تصرفات كثيرة لا تُعجبني هذه بعضها، ولا أجد لها مبرراً!
ما المانع إذا قصدكَ مريضٌ لستَ مختصاً في حالته أن ترشدَهُ إلى غيرك،
بدل أن تجعلَ منه حقل تجارب؟
وما المانع إذا فشلتَ في معالجةِ مريضٍ أن تعترف؟
وما المانع أن يكون خطك مقروءاً؟
هذه وصفةٌ طبيةٌ وليستْ حجاباً كتبه مُشعوذ!

182

يروي «لافونتين» في كتابه «خُرافات منتقاة» قصةَ حيواناتٍ أُصيبتْ بالطاعون،
وهي القصة التي حوّلها «أحمد شوقي» فيما بعد إلى قصيدةٍ رائعةٍ:
والقصةُ باختصار أن حيواناتِ الغابةِ قد أُصيبتْ بالطاعون،
فجمعَ الأسدُ كلَّ الحيواناتِ وأخبرَهُمْ أن كُتبَ الأولين تقولُ:
إن هذا المرض لا ينزل بالحيوانات إلا بسببِ ارتكابِهم للذنوب،
وعلى كل واحدٍ أن يذكر أفعاله، ليعرفوا من هو الجاني، الذي جلبَ الوباء للغابة!
قالَ الأسدُ: لقد افترسْتُ غزلاناً كثيرة،
وهجمتُ على حظائر فيها البقر، فهل ترون أني مُذنب؟
فقالَ له الثعلبُ: لقد خُلِقْتَ للافتراسِ يا سيدي، أنتَ ملكٌ عظيمٌ، ومرهفُ الحسِّ، تحسبُ أنك السبب، والحقيقةُ أنك أجمل من في الغابة!
وهكذا تقدمتْ الحيوانات المفترسة واحداً تلو الآخر،
كل يتحدثُ عن هجومه على الحيواناتِ الأُخرى،
ثم يسألُ: هل أنا مُذنب؟
فيُسارِعُ الثعلبُ للثناءِ عليه، ويُخبِرُهُ أن عمله بسيط وطبيعي،
وليس سبباً في الطاعونِ أبداً!
وعندما جاءَ دورُ الحمارِ، أخبرهم أنه لا يذكر ذنباً قد اقترفه،
ولكن في أحدِ الأيامِ استبدَّ به الجوع، ومرَّ من جانبِ الدَّيرِ،
فرأى عُشباً قد نبتَ قربَ جدارِه، فنازعتْهُ نفسه أيأكل منه أم لا،

ثم إنه تحت وطأةِ الجوعِ قررَ أن يأكل!
عندها قالَ له الثعلب: جاءَ في كتبِ الأوائلِ أنَّ عشبَ الدَّيرِ حرام،
أنتَ لا شك سبب هذا الوباء!
فأصدرَ الأسدُ حكمَه بتعليقِ الحمارِ في حبلِ المشنقةِ، قُرباناً للشفاء،
وليكون عبرةً لمن يُفكرُ في استباحةِ المُحرَّمات!

حُجَّةُ القوي قويةٌ ولو كانتْ باطلة، وحجةُ الضعيفِ ضعيفةٌ ولو كانتْ حقاً!
هذا ما دأبَ عليه الناسُ منذ فجرِ التاريخ!
جِيءَ للإسكندرِ المقدوني بلصٍّ من لصوصِ البحر،
فقالَ له: كيف تسرق أموال الآخرين؟!
فقالَ له: أنا أسرقُ أموال الآخرين بسفينةٍ صغيرةٍ فيُسمُّونني لِصاً،
وأنتَ تسرقُ أموالَ الآخرين بأسطولٍ كبيرٍ فيُسمونك فاتحاً!

جميعنا شاهدْنا في أفلامِ هوليوود بطولة جنودِ المارينز ضد الفيتناميين الأشرار،
ولكن الحقيقة أن فيتنام كانتْ مُحتلَّة من قِبل أمريكا،
وأن الفيتناميين كانوا أبطالاً يُدافعون عن أرضِهِم.
وكما يقولُ المثل الإفريقي:
سيبقى الذئبُ بطل الحكايةِ حتى يتسنَّى للخرافِ من يسمع حكايتها.

183

قال المقريزي: ماتتْ زوجتي وهي شابة،
وكنتُ أستغفِرُ لها كثيراً، فرأيتها في المنام،
فقلتُ لها: يا أم محمد، الذي أُرسله إليك يصل؟
فقالت: نعم، في كل يوم تصلُ هديتك إليَّ،
ثم بكتْ وقالتْ: قد علمتُ أني عاجزة عن مكافأتكِ!
فقلتُ لها: لا عليكِ، عما قليل نلتقي!
لا تنسوا أحبابكم إذا ما ماتوا،
أهيلوا التراب على أجسادهم فقط،
أما أرواحهم فتشبثوا بها بقوة،
تذكروهم في الدعاء، وفي السجود، وفي الصَّدقات،
أرسلوا لهم الهدايا،
القبور موحشة، وأهلها في غربة،
واسوهم وهم هناك!

184

وقفَ أحمد بن عُروة بين يدي المأمون لمَّا عزله عن الأهواز،
فقالَ له: أخربتَ البلاد، لأفعلنَّ بكَ وأصنعنَّ!
فقالَ له: يا أمير المؤمنين، ما تُحبُّ أن يفعله اللّه بكَ،
إذا وقفتَ بين يديه وقد قرَّعكَ بذنوبك؟
فقالَ المأمون: العفو والصفح!
فقالَ له: فافعلْ بعبدكَ ما تُحبُّ أن يفعله اللّهُ بكَ!
فقالَ له المأمون: قد فعلتُ، اِرجعْ إلى عملكَ، وأحسِنْ فيه،
فوالٍ مُستعطِف خيرٌ من والٍ مُستأنف!

من يقرأ سيرة المأمون، يخلصُ إلى أنَّ الرجلَ قد رزقه اللّهُ قدراً من الحِلم،
قلَّ نظيره في الناس، هو فوق الحِلم كانَ مُحِباً للعلمِ والثقافة،
ولا يمنعُ مُخالفتنا إياه في بدعةِ خلقِ القُرآن من إنصافه،
فهذا من تمامِ العدلِ الذي أُمرنا به!
وهذا الموقف منه تجاه أحمد بن عروة،
ما هو إلا حلقة في سلسلةِ ما أُثِرَ عنه في الحِلم!
غير أني وإن كنتُ أرى أن هذا الموقف من مواقفِ الحِلم،
إلا أنه حِلم في غير موضعه!
ليس لأني ضد أن يُعطى الناس فرصة ثانية ليُصلحوا ما أفسدوه،
ولكن لأنَّ المناصبَ العامةَ يختلفُ التعاطي فيها،

عمَّا هو الحال عليه بين الناسِ أنفسهم!
فأنا أغفرُ لصديقٍ زلَّته، وأرى هذا من مكارمِ الأخلاق،
ولكني لو كنتُ حاكماً فإني أعزلُ الوالي المُسيء ولو اعتذر،
لأنَّ فساده طالَ الناس، أما ندمه وتوبته فبينه وبين ربه!

تُعجبني جداً سياسة عُمر بن الخطاب في التعاملِ مع الوُلاة،
حيثُ كانَ يعزلُهُم عند أولِ شُبهة، لأنه كان يكرهُ الشقاقَ بين الوالي والرعية،
لهذا عزلَ سعدَ بن أبي وقاص من الكوفة،
ليس عن تُهمةٍ وإلا ما رشَّحه لاحقاً ممن يكونُ منهم الخليفة بعده،
ومقامُ الخِلافةِ أعلى من مقام الولاية!
وكانَ عُمر كثيراً ما يقول: أن أعزلَ كل يوم والياً عادلاً،
خيرٌ من أن أُبقي على ظالمٍ يوماً واحداً!

في المناصبِ العامةِ يُمتحنُ المرءُ مرة، فإن أساءَ عُزِلَ إلى غيرِ رجعة،
أمَّا بين الناس فالصفح، والتغافل، والتغاضي لا بُد منه لتستمر الحياة!

185

قالَ رجلٌ لجعفر الصادق: ما الدليلُ على اللّه؟
ولا تذكر لي ما يقولُ الفقهاء والفلاسفة فإني أعرفه كله!
فقالَ له جعفر: هل ركبتَ البحر؟
قال: نعم.
فقالَ له: فهل عصفتْ بكم الريح حتى خِفتم الغرق؟
قال: نعم.
فقالَ له: فهل انقطعَ رجاؤك من المركبِ والملاحين؟
قال: نعم.
فقالَ له: فهل أحسستَ أنّ ثَمَّ من يُنجيكَ؟
قال: نعم.
فقالَ له: فإنَّ ذاكَ هو اللّه!

يا لفهمِ البشرِ السقيم إذا احتاجَ العقلُ دليلاً على وجودِ اللّه!
يكفي أن ينظرَ الإنسانُ إلى نفسه ليعرفَ اللّه!
جاءَ الرازي يوماً إلى نيسابور فتراكضَ له الناس،
فقالتْ امرأةٌ عجوز: من هذا؟
فقيلَ لها: هذا الرازيُّ الذي يعرفُ ألفَ دليلٍ على وجودِ اللّه!
فقالت: لو لم يكُن في قلبه ألف شك ما احتاجَ إلى ألفِ دليل!
فلمَّا بلغه قولها، قال: اللهمَّ إيماناً كإيمانِ العجائز!
على أنّ الرازي لم يكُنْ في قلبه ألف شك،

وإنما كانَ يُحاجِجُ الملاحدةَ والمُشكِّكين، فكانَ لا بُدَّ من الحجةِ والبيانِ والنقاش!

ولكن العجوز لم ترضَ أن يناقشَ أحدٌ في وجودِ اللّٰه!

يا للعلمِ ما أقبحه إذا خلا من الإيمانِ ولبسَ عباءةَ الجحود!

يا لقبحِ المشهد حين يعبدُ رائدُ فضاءٍ بقرة،

وحين يُنكرُ جراحُ أعصابٍ أن وراءَ هذا الإتقان خالقاً!

وما أجمل الإمام الذهبي حين ختمَ ترجمته للمُلحد «ابن الريوندي» بقوله:

كانَ من أذكياء الدنيا، ولعنَ اللّٰهُ الذكاء بلا إيمان، ورضيَ عن البلادةِ مع التقوى!

186

قالَ حمَّاد بن زيد: كنتُ مع أبي فأخذتُ من حائطٍ تِبنة،
فقالَ لي: لِمَ أخذتَ؟
فقلتُ: إنَّما هي تِبنة.
فقال: لو أنَّ الناس أخذوا تِبنة تِبنة، فهل يبقى في الحائطِ من تِبن؟!

إذا أردتَ أن يتغيَّرَ العالم من حولك، فابدأْ بنفسكَ أولاً!
لو كل واحد منا جعلَ من نفسِهِ ميدانه، قاتلَ فيه بشراسةٍ لصلاحِ قلبه،
وسلوكه، وأخلاقه، لتغيَّرَ الحالُ الذي نشكو منه جميعاً!
لأن هذا الواقع لم يصنعْ نفسه، لقد صنعناه نحن، أنا، وأنتَ، وهو، وهي!
أعجبني صديقٌ لي مرةً كنتُ وإياه نمارسُ رياضةَ المشي،
ففرغتْ قارورة الماءِ التي كانتْ معه،
فبقيَ يحملُها حتى مررنا على حاوياتِ القمامةِ في الشارع،
وهناك كانَ المشهدُ مزرياً،
القمامةُ ملُقاةٌ على الأرضِ بشكلٍ مقززٍ رغمَ وجودِ الحاويات،
إلا أنَّ صديقي تخطَّى القمامةَ الملقاةَ على الأرضِ،
حتى وصلَ إلى حاويةٍ ورمى قارورته الفارغة فيها،
ثم قالَ لي مُعَقِّباً: أعرفُ أن قارورتي لم تكُنْ لتزيد المكان سوءاً لو ألقيتُها على الأرضِ،

ولكني شخص أبدأُ بنفسي!

كُلُّكُم تعرفون قصة زوجة الملكِ التي أُصِيبتْ بمرضٍ جلدي،
فعاينها الأطباء ثم قالوا: لا علاجَ لها إلا أن تملأَ لها المسبح،
الذي في باحةِ القصرِ حليباً، وتسبحُ به كل يوم صباحاً!
استشارَ الملكُ وزيرَهَ كيف عساه يُوَفِّرُ هذه الكمية الكبيرة من الحليب.
فقالَ له الوزير: الأمرُ بسيطٌ يا سيدي الملك،
أَصْدِرْ أمراً للرُّعيانِ أن يأتيَ كل واحدٍ منهم ليلاً بسطلِ حليب،
ويُلقيه في المسبح، وهكذا يمتلئُ كل يوم، حتى تشفى جلالةُ الملكة!
أُعجِبَ الملكُ بالفكرة، وأصدرَ أمره الملكي بهذا،
ولكن كل واحدٍ من الرُّعيانِ قالَ في نفسه:
ماذا لو أفرغتُ سطلَ ماءٍ بدلَ الحليب، لن يكتشفَ أحدٌ الأمر،
لا شك أنه سيضيعُ بين هذه الكميةِ الهائلةِ من الحليب!
وعندما استفاقَ الملكُ صباحاً وجدَ المسبح مملوءاً ماء عن آخره!

187

في كتاب بهجة المجالس لابن البر:
يُروى أن داود قال لابنه سليمان عليهما السلام:
يا بُني، إن المرأة الصالحة كالتاج على رأس الملك،
والمرأة السوء كالحمل الثقيل على ظهر الشيخ الكبير!
الزوجة الصالحة من النِّعم التي،
يُعددها اللّه تعالى على عبده يوم القيامة،
في صحيح ابن حيان أن النبيَّ ﷺ قال:
يلقيَنَّ أحدكم ربَّه يوم القيامة فيقول له:
ألمْ أُسخِّر لكَ الخيل والإبل؟
ألمْ أذركَ ترأس وتتربع؟
ألم أُزوِّجكَ فلانة، خطبها الخُطَّاب فمنعتهم وزوَّجتك؟!

188

يروي الأوروبيون في حكاياتهم الشعبيَّة:
إنَّ سيدةً عجوز قالت لأحفادها يوماً: أنا لم أركبْ قطاراً طوال حياتي!
ولأنهم رأوا رغبة جدتهم في ركوب القطار،
اشتروا لها تذكرة على الفور، إلى مدينة قريبة كي تزور صديقتها.
ركبت الجدةُ القطارَ، فلاحظت أن أحد المقاعد في المقصورة ممزقٌ غطاؤه،
فحملتْ أغراضها بغضب، وقصدت مقصورة أُخرى،
وفي المقصورة الجديدة أزعجتها رسومات على جلود المقاعد،
فقامت مرَّةً أخرى بتغيير المقصورة.
في الحقيقة إن الجدة بقيت تنتقل من مقصورة إلى أخرى طوال الرحلة،
وما إن جلست أخيراً لأن الخيارات قد ضاقت عليها،
لاحظت جمال الريف حيث يمر القطار بين المدينتين،
وما كادت تستمتع بهذاالمنظر الخلاب،
حتى أعلن سائق القطار عن قرب نزول الجدة في محطتها المنشودة!
قالت الجدة في نفسها: لو كنتُ أعلم أن الرحلة قصيرة جداً،
ما قضيتُ هذا الوقت أشكو وأتذمر، وكنتُ
استمتعتُ بجمال الطبيعة!

إنَّ رحلة الحياة من الميلاد إلى الموت، تُشبه إلى حدٍّ بعيدٍ رحلة العجوز بين المدينتين!

الرحلة لا تخلو من المنغصات أبداً، ولكن الأشياء الجميلة ماثلة للعيان،

ولكن للأسف إننا نشيحُ نظرنا عنها،

ونركز فقط في المنغصات، فيضيعُ علينا جَمال الرحلة!

وظيفتُكَ شاقة أعرف، ولكن غيرِكَ عاطل عن العمل،

فهلا تأملتَ معنى أن يكفيك اللّٰه تعالى الحاجة إلى الناس!

زوجكِ فيه شيءٌ من العصبيَّة، لا يخلو إنسان من طبع،

ولكنه شهمٌ وكريم ويغارُ عليكِ،

لماذا عليكِ أن تنظري إلى النقطة السوداء في الصفحة البيضاء، بينما الأصل أن تفهمي طبعه، وتتصرفي على أساسه، وهذا من ذكاء العِشرة؟!

بيتُكَ صغيرٌ وبالكاد يتَّسعُ لكَ وللأولاد، ولكن لكَ مكان تأوي إليه، وصدر حنونٌ تضعُ رأسكَ عليه من وعثاء يومكَ،

وفي الدنيا ملايين ممن لا بيوت تأويهم، ولا زوجات يؤنسونهم في ليلهم الطويل!

أولادكِ أشقياءٌ، بالكاد ترتبين البيت حتى يعيثوا فيه فساداً،

ملابسهم تتسخ بسرعة، ويأكلون في اليوم عشر مرات!

الوضع مُتعبٌ، وعمل البيت يطحنُ العظم،

ولكن هلاَّ سألتِ نفسكِ: كم امرأةً حُرمت الولد؟!

وكم أُماً لديها ولد عنده إعاقة، كانت تتمنى لو أنه يهدمُ البيتَ كل يومٍ،

ولا تراه على هذه الحالة؟!

أولادكِ ينبشون البيت لأنهم أصحاء! ويأكلون لأنَّ فيهم عافية،

ويلعبون ويوسخون ثيابهم لأن فيهم الكثير من النشاط!

سرُّ الحياة يكمن في النظرةِ إليها، في العين التي ترى لا في المشهد الذي يُرى،

وفي الحمد على نصف الكأس الممتلئ بدل الندب على نصفه الفارغ،

لأن المحروم من الرضى محرومٌ من السَّكينة!

189

عن عبد الله ابن أختِ مُسلم بن سعد أنه قال:
أردتُ الحجَّ فأعطاني خالي مسلمٌ عشرة آلاف درهم،
وقال: إذا قدمتَ المدينةَ فانظُرْ أفقرَ بيتٍ بالمدينةِ فأعطهم إياها.
فلمَّا دخلتُ سألتُ عن أفقر بيتٍ في المدينة، فدُلِلْتُ على أهلِ بيتٍ،
فطرقتُ الباب، فأجابتني امرأة: من أنت؟
قلتُ: أنا رجلٌ من أهلِ بغداد، أُودِعْتُ عشرة آلاف درهم،
وأُمِرْتُ أن أُعطيَها إلى أفقرِ بيتٍ في المدينة، وقد دُلِلْتُ عليكم، فخُذوها!
فقالت: إنَّ صاحبك اشترطَ أفقر بيتٍ في المدينة، وجيراننا أفقر منا!
فتركتُهُم، وأتيتُ جيرانهم، فأجابَتْني امرأة بما أجابتني به تلكَ المرأة ودلَّتني على جارتها!
فقلتُ لها: لقد قالتْ مثل مقالتكِ، ودلَّتني عليكِ!
فقالت: نحن في الفقرِ سواء، فإن لم يكُنْ من بُد، فاقسمها بيننا!

الجوعُ الحقيقي في النفسِ لا في المعدة، والشبعُ الحقيقي في العينِ لا في البطن!
من كانتْ نفسه جائعة، وعينه فارغة، فلن يشبعَ ولو أُعطِيَ الدُنيا كلها،
سيبقى ينظرُ إلى ما في أيدي الناس!

ومن شبعتْ نفسه، وامتلأتْ عينه، تجده قد امتلأَ بالرضا،
فلا ينظر إلى لقمةِ غيره، ولا يحسد أحداً على نعمة،
يسأل الله الخيرَ للناس، وهو أفقرهم إليه!
كنتُ شاهداً على حوادث جعلتني أؤمنُ بما أقولُهُ عن جُوعِ العين،
وجَشَعِ النفس!
رأيتُ بعيني فُقراء حُمِلتْ إليهم المُساعدات،
فكانوا يُرشِدون على من يظنون أنه أفقر منهم حالاً، رغم أنَّهم واللهِ
فُقراء!
وبعضُ الذين كانَ من المُفترضِ أن يقوموا هم بمساعدةِ الناس،
كانوا يُقيمون الدُنيا ولا يُقعِدونها، لأجلِ ربطةِ خبزٍ وكيسِ حليب،
أُعطِيَ لفقيرٍ ولم يُعطَ إليهم!
جمعوا المذماتِ كلها، البخل، والجشع، وسوء الجوار، واتهام الناس
في أمانتهم!
فاللهمَّ قلباً قانعاً، وعيناً ممتلئةً، ونفساً مُستغنية!

190

مرَّ عبدُ اللّه بن مسعود ذات يومٍ بالكوفة، فإذا فتيان قد اجتمعوا يشربون الخمر،
ولهم مُغَنٍّ يُقالُ له «زاذان» يُغني، وكانَ حسن الصوت!
فقالَ عبدُ اللّه بن مسعود: ما أحسن هذا الصوت لو كانَ في القرآن!
وجعلَ رداءَهُ على رأسه ومضى، فسمعَهُ «زاذان»، وقال: من هذا؟
فقِيلَ له: عبدُ اللّه بن مسعود صاحب رسول اللّه ﷺ!
فكسرَ «زاذان» العود، وجعلَ يركضُ حتى أدركَ ابن مسعود، وتابَ،
ولازمه حتى تعلَّمَ منه القُرآن، وصارَ إماماً في العِلم،
وروى الحديثَ عن جمعٍ من الصحابةِ منهم ابن مسعود وسلمان الفارسي!

ما أحسن هذا الصوت لو كانَ في القُرآن!
كلمةٌ حُلوةٌ حانيةٌ نقلتْ «زاذان» من الطربِ إلى القُرآن،
ومن العُودِ إلى كتبِ الحديث، ومن الطبلةِ والمزمارِ إلى حِلَقِ الفِقه!
لا تستهينوا بالكلمات، إنها تصنعُ بشراً آخرين، تُغيرُهم جذرياً،
وتقلبُهُم رأساً على عقب!
كانَ البُخاري في أول شبابه يحضرُ مجلسَ إسحاق بن راهويه،
فقالَ إسحاق: من ينشطُ منكم لجمعِ الصحيح؟!
فوقعتْ مقولة إسحاق في قلبِ البُخاري، فشمَّرَ عن ساعديه،

وكتبَ لنا أصح كتابٍ بعد القُرآن الكريم،
ليكون كل هذا في ميزانِ ابنِ راهويه بكلمةٍ قالها!
وكانَ الشافعيُّ في أول شبابه مُقبلاً على الشِّعر،
فقالَ بيتاً عذباً عند كاتب مُصعب الزبيري،
فأعجبه ذلكَ من الشافعي ورأى فيه ذكاءً وفهماً،
فقالَ له: أين أنتَ من الفِقه يا شافعي؟!
فوقعَ ذلكَ في قلبِ الشافعي، فشمَّرَ عن ساعديه، وملأَ الأرضَ علماً وفقهاً،
ليكون كل هذا في ميزانِ كاتبٍ قالَ كلمةً طيبةً!
وكانَ الذهبيُّ في أولِ شبابه يدرسُ عند الإمام البرزالي،
فطلبَ منه البرزالي أن يكتبَ له رسالة، فلمَّا قرأها،
قالَ له: يا شمس الدين الذهبي إن خطَّكَ يُشبهُ خطَّ المُحدِّثين!
فوقعَ ذلكَ في قلبِ الذهبي، فشمَّرَ عن ساعديه،
حتى صار إمام المسلمين في الجرح والتعديل،
ثم أخرجَ لنا سير أعلام النبلاء، ليكون كل ذلك في ميزانِ البرزالي بكلمةٍ واحدةٍ قالها!
وجِّهوا الطاقات، وضَعوا الأقدام على أولِ الطُّرُق،
فقد يمشي أحدٌ ما طريقاً في خيرٍ لا ينقطع حتى يوم القيامة،
وتجني أجرَ كل هذا الخير، بكلمةٍ واحدةٍ تقولُها!

191

روى الشَّعبيُّ، أنَّ عمرو بن معديكرب خرجَ في الجاهليةِ للسلب، فانتهى به المطاف إلى غديرٍ عنده فرس مشدودة، ورمح مركوز، وصاحبها يقضي حاجته.

فقالَ له عمرو: خُذْ حِذركَ فإني قاتلكَ!

فقال: ومن أنتَ؟

فقالَ له: عمرو بن معديكرب.

قال: يا أبا ثورٍ ما أنصفتني، أنتَ على ظهرِ فرسكَ، وأنا راجل، فأعطني عهداً أنك لا تقتلني حتى أركب فرسي وآخذ حِذري.

فقالَ له: لكَ هذا!

فمشى الرجلُ وجلسَ تحت شجرة!

فقالَ له: ما هذا؟

قال: ما أنا براكبٍ فرسي، ولا مقاتلك، فإن أردتَ أن تنكثَ عهداً قطعته فأنتَ وما ترى!

فقالَ له: ما كنتُ ناكثاً عهدي!

فتركه ومضى!

الحُرُّ تربطه كلمته، والنذلُ لا تربطه عقود العالم كلها!

ورحمَ اللّه زماناً كانَ الرجلُ فيه إذا قالَ كلمةً، أو أعطى عهداً، أنفذه ولو على قطعِ رقبته، فلا شيء أقبح من الغدر، كرهه العربُ في الجاهليةِ لأنه من عارِ الأخلاق، وكرهه الإسلامُ

لأنه دين الأخلاق!

فقالَ سيدنا ﷺ: لكل غادرٍ لواء يوم القيامة، يُقال: هذه غدرة فلان!

كانتْ العربُ في الجاهلية تقعدُ عن الحربِ في الأشهر الحُرُم،
ولو رأى الرجلُ قاتلَ أبيه لا يقربه،
وكانتْ العربُ إذا جاءتْ إلى الحجِّ وضعتْ أسلحتها عند عبد اللّٰه بن جدعان،
وكانَ رجلاً ذا مروءة، فإذا أتمَّتْ حجها أخذتْ أسلحتها وانصرفت!
ودارتْ حربُ الفِجار بين كِنانة وهوازن،
وفي موسمِ الحجِّ وضعتْ هوازن سلاحها عندَ عبد اللّٰه بن جدعان،
فجاءه حرب بن أُمية سيد كِنانة، وقالَ له: اِحتبِسْ سلاح هوازن!
فقالَ له عبد اللّٰه بن جدعان: أبالغدرِ تأمرني يا حرب؟
واللّٰهِ لو أعلمُ أنه لا يبقى منها سيف إلا ضُرِبْتُ به، أو رمح إلا طُعِنْتُ به، ما أمسكتُ منها شيئاً!

يا للوفاءِ يا عبد اللّٰه بن جدعان، هوازن أعداؤه،
وستستخدمُ هذا السلاح ضده في المعركةِ القادمة،
ويأبى إلا أن يفيَ بعهده، ويُؤدي أمانته!
هذه أخلاقُ العربِ في الجاهلية، فكيف يجب أن تكونَ أخلاقنا في الإسلام؟!

192

في كتاب البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيديّ:
قال المدائني: قرأتُ على قبرٍ بدمشق،
نِعم المسكنُ لمن أحسَنَ!
لو قيل لي: أعطِ القبور اسماً آخر،
لأسميتُها صناديق الأعمال!
هذا المكان الصغير، الضَّيق، الموحشُ، المخيف، فيما يبدو لنا،
قد يكون روضةً من رياض الجنّة لصاحبه،
نحن نبكي عليه في أول ليلةٍ باتَ فيه،
وهو يضحكُ ملءَ قلبه أنه نجا من دُنيانا،
القبور مظلمة فأضيئوها بالقرآن والصلاة،
موحشة فآنسوها بالصدقات،
ضيقة فوسعوها بجبر الخواطر،
لن تأخذ معكَ إلى القبر شيئاً مما أخذته في الدنيا،
لن تأخذ معكَ إلا ما أعطيتَ!

193

قالَ محمد بن يحيى المروزي: كنتُ آكلُ مع هارون الرشيد يوماً، فرفعَ رأسه، ونادى على خادم له، وكلَّمَه بالفارسية.
فقلتُ له: يا أمير المؤمنين، إن كُنْتَ تُريدُ أن تُسِرَّ إليه شيئاً فإني أفهمُ الفارسية.
فاستحسنَ الرشيدُ ذلكَ مني، وقالَ لي: يا أبا بكر، إنَّ هذا مِنَ المُروءة!

من المروءةِ ألا تستمع إلى حديثٍ لا يخصك، وأن لا تسعى لمعرفةِ ما لا يعنيك،
وأن لا ترفع الغطاءَ عن أيِّ شيءٍ مستورٍ ليسَ لكَ في كشفِهِ إلا الفُضُول!
في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيَّان التوحيدي أن عمرو بن العاص قال:
أعجبتني كلمة من جارية، معها طبقٌ مستور،
قلتُ لها: ما في الطبقِ يا جارية؟
فقالتْ: فَلِمَ غطَّيناه إذاً؟!

محادثاتُ الواتسآب بين زوجتكَ وأمها ليستْ لكَ،
وليس من المروءةِ أن تطَّلِعَ عليها دون إذنها،

دَع الطبقَ مستوراً، النساء يُفَضْفِضْنَ لأمهاتهنَّ، هذا طبعهنَّ،
إنَّهن لا يشكوننا، ولا يُرِدْنَ تغيير شيء، فَلِمَ تنزعُ
غطاءً قد يُزعجُكَ ما تحته؟!
ولِمَ تعرفُ سراً ليسَ من حقِكَ أن تعرفه؟!
بين الصَّديقات يُقال أشياء، هي أسرار النّاس،
وليست شأن زوجتك وحدها، فلا تتجسس!
وما يُقال له، يُقال لكِ أنتِ أيضاً!

فلانةٌ التي تركتْ خطيبها لها أسبابها، ما شأنكِ أنتِ بمعرفةِ هذه الأسباب،
أليسَ من حُسْنِ إسلامِ المرء تركه ما لا يعنيه؟!
والضيوفُ الذين زاروا جيرانكَ ما شأنكَ وشأنهم،
تُريدُ أن تعرفَ من هم، وماذا يُريدون، قاتلَ اللّه الفُضُول!

البيوتُ أسرارٌ فلا تَسْعَ لتهتكَ ستراً،
فمن تتبَّعَ عورات الناسِ تتبَّع اللّه عورته، ومن سترَ مسلماً ستره اللّه!
ما وصلَ إليكَ اكتمه، وما لم يصلْ إليكَ فلا تسعَ إليه،
بعضُ الجهلِ نعمة، وأحياناً يكونُ من المُوجعِ أن تعرف!

194

روى «التنوخي» في «المُستجاد»،
أنه كانَ «لسعيد بن العاص» جارٌ أصابته ضائقة،
فعرضَ داره للبيعِ بخمسينَ ألف درهم.
فلمَّا حضرَ المُشتري، واتَّفقَ معه، قالَ له الجارُ:
والآن، بكم تشتري جِوار سَعيد بن العاص؟
فقالَ له الرجل: وهل يُشترى جِوارٌ قط!
فقالَ له: وكيف لا يُشترى جِوار من إذا سألته أعطاك، وإذا سكَتَّ عنه ابتدأكَ،
وإن جافيته وصلكَ، وإن غبتَ عنه سألَ عنكَ، وإن أسأتَ إليه أحسنَ إليكَ!
فبلغَ ذلك سعيد بن العاص، فبعثَ إليه بمئةِ ألفِ درهم،
وقالَ له: أمسِكْ عليكَ داركَ، وأقِمْ في جِوارنا!

ليسَ من عبثٍ كُنا شهداءَ اللّه في الأرضِ على بعضنا!
فالمرءُ لا يُقيِّم نفسه، ولا يكتب بفخامةِ نفسه قصيدةَ مديح،
هذا هو شأنُ الآخرين لا شأننا!
لستَ أنتَ الذي تُقرر ما إذا كنتَ جاراً صالحاً،
رأي جاركَ فيكَ أهم من رأيك!
ولستِ أنتِ التي تُقررين إن كنتِ ابنةً بارَّة،
رأي أبويكِ فيكِ أهم من رأيكِ!

يمكنكَ أن تُخبرنا أنكَ زوج رائع،
ولكن الخبر اليقين عندَ زوجتكَ لا عندكَ!
ويُمكنكِ أن تُحدثينا مُطَوَّلاً أي أم أنتِ،
ولكن الحديث ليس مُعتبراً ما لمٍ يكُن من أبنائك!
نعم صحيح أننا لن نُرضي البعضَ مهما حاولنا، وأنَّ أنبياءً لم يُعجَبْ بهم الناس،
ولكني أتحدثُ عن القاعدةِ لا عن الشواذ، عن الأصلِ لا عن الفرع!
علينا أن نرى أنفسنا بعيونِ الآخرين!

195

جِيءَ إلى ابنِ النَّسوي برجلين قد اتُهِما بالسَّرقة، أحدهما مُذنب والآخر بريء،
فأقامهما بين يديه. ثمَّ نادى خادمه: يا غُلام، شربة ماء.
فأخذَ الكوب وجعلَ يشرب، ثم ألقاه عمداً من يدِهِ فانكسر.
فارتعدَ أحدُ الرجلين لانكساره، وثبتَ الآخر.
فقالَ للذي ارتعدَ وخاف: لستَ اللص، عُدْ إلى بيتكَ!
وقالَ للآخر: رُدَّ ما سرقتَ!
فقِيل له: من أين علمْتَ هذا؟
فقال: اللصُّ قويُّ القلبِ لا يرتعدُ، وهذا الذي ارتعدَ بريء،
لأنه لو تحرَّكَتْ في البيتِ فأرة لأخافته ومنعته أن يسرق!

يا للجُرأةِ وقوةِ القلبِ لو كانتْ في الحق!
يا لبأسِ قاطعِ الطريقِ لو جعلَ هذه الشجاعة جهاداً في سبيل اللّه، ودفاعاً عن شرعه، وإعلاءً لكلمته!
يا لبأسِ حسنِ الصوتِ يُريقه في الأغاني لو جعلَ هذا الصوت قرآناً يُتلى،
وسفيراً للرحمنِ في آذانِ خلقه!
يا لبأسِ الغنيِّ المُبذِّرِ لو جعلَ هذا صدقات،
لوجدَ لذةَ العطاءِ أجمل من لذةِ إشباعِ الشهوات، وكانَ مالاً باقياً يسبقه إلى قبره،
فإذا ما دخلَهُ وجدَهُ ينتظرُهُ هناك!

إنَّ مشكلةَ الناس ليس الافتقار إلى الطاقاتِ والإمكانات، وإنَّما وضعها في غيرِ موضعها!
لم يكُنْ أبو جهل تنقُصُه الشجاعة، ولكنها شجاعةٌ وُضِعَتْ في باطل!
ولم يكُنْ أُميَّة بن خلف ينقصُهُ المال، ولكنه مالٌ وُضِعَ في الصَّدِّ عن الحق!
ولم يكُنْ عُتبة بن ربيعة ينقصُهُ العقل والرأي،
ولكنه عقلٌ مشى على استحياء، ورأيٌ أهلكَ صاحبه!

يُسألُ المرءُ عما أُعطِيَ من قدرات، أين وضعها، وفيمَ استخدمها!
الشجاعة، والمال، والعلم، والعقل، والمرتبة الاجتماعية، والوظيفة،
فإن كانتْ في سبيلِ الله، فنِعمَ القُدرة ونِعمَ الاستثمار،
وإن كانتْ في سبيلِ الشيطانِ فبِئسَ الاستثمار!

196

روى أبو الحسن الأندلسي في كتابه الرائع «تاريخ قضاة الأندلس»،
أن روح بن حاتم الذي ولي إفريقيا لبني العباس لخمسة من الخلفاء،
هم السفاح، والمنصور، والمهدي، والهادي، والرشيد،
قد أرسل إلى الفقيه ابن فروخ ليوليه القضاء، فامتنع عن ذلك،
فهو على فقهه كان يخاف على دينه من المناصب، ومن أن
يُخطئَ في القضاء!
فأمر روح بن حاتم به أن يُربط، ويُصعد به إلى سقف الجامع،
وقال له: تقبل القضاء؟
فقال: لا!
فأُخِذَ ليُرمى من أعلى، فلما أحسَّ الجد من الوالي، قال له: قبلتُ!
فجلس في المسجد ليقضي، ومعه حرس، فجاءه خصمان،
فنظر إليهما وبكى طويلاً، ثم رفع رأسه وقال لهما:
سألتكما باللّه أن تعفياني من النظر في أمركما، ولا تُفسدا عليَّ
ديني!
فأشفقا عليه، وقاما من بين يديه!
فأعلم الحرسُ الوالي بذلك، فأحضره وقال له: فبمن تشير
علينا للقضاء؟
فقال له: بعبد اللّه بن غانم، فإنه شاب مغرم بأمر القضاء، متبَحِّر
فيه.
فقال له الوالي: بشرط أن يستشيرك بما أشكل عليه.
فقبلَ ابن فروخٍ ذلك على مضض.

وكان عبد اللّه بن غانم يستشيره كثيراً، فقال له ابن فروخ:
يا ابن أخي إني لم أقبل القضاء أميراً، أفأقبله وزيراً؟
وخرج إلى مصر هارباً من ذلك كله، ومات هناك رحمه اللّه!

شيء لم تقبل أن تكون فيه رأساً، فلا ترضَ بعد ذلك أن تكون به ذيلاً!
هذا إذا ما تعلَّقَ الأمر بالدنيا، أما إذا تعلَّقَ بالآخرة، فليس للحق آخر،
وأن يكون المرءُ ذيلاً في الحق أفضل من أن يكون رأساً في الباطل،
ثم إنه من منن اللّه على المرء أن يدله على الحق،
لا والناس مقبلة عليه وإنما وهي خارجة منه،
فأولئك مُحِّصوا وما ثبتوا، وهو جيء به ليخلف الذين تولوا!

وبالعودة إلى القصة، فإن الورع فيها رهيب! والسياسة فيها أرهب!
فإن كان يُحسب لابن فروخٍ الفقيه ورعه،
وتمنعه عن القضاء خشيةً أن يقع في ظُلم أحدٍ
فكذلك يُحسب للوالي محاولته حمل ابن فروخ على القضاء بالقوة والإكراه،
فبحث الولاة عن المساعدين والوزراء الأكفاء من فطنتهم،
وورع ابن فروخٍ لنفسه أما فقهه وعلمه فللناس.
والشيء بالشيء يُذكر،

كما أن السَّعي لتولية الصالحين المناصب العامة هو عبادة، فإن منع الظالمين من هذه المناصب أعظم أجراً لأنه من إماطة الأذى عن الناس!

197

خرجَ سُفيان بن عُيينة إلى أصحابِ الحديثِ وهو ضَجِر،
فقال: أليسَ من الشقاءِ أن أكونَ جالستُ ضمرة بن سعيد، وجالسَ ضمرة أبا سعيدٍ الخدري؟!
وجالستُ عمرو بن دينار، وجالسَ عمرو جابرَ بن عبد اللّه؟!
وجالستُ عبد اللّه بن دينار، وجالسَ عبدُ اللّه ابنَ عمر؟!
وجالستُ الزهري، وجالسَ الزهريُّ أنسَ بن مالك، ثم أنا أُجالسكم!
فقالَ له فتى صغير في المجلس: اِنتصِفْ يا أبا محمد!
فقال: وما ذاك؟
فقال: واللّهِ لشقاءِ من جالسَ أصحاب رسول اللّه ﷺ بكَ أشدَّ من شقائِكَ بنا!
فقالَ له: صدقتَ!
ثم سأل: من الفتى؟
فقالوا: يَحيى بن أكثم.
فقال: سيكونُ لهذا الفتى شأن!

قالتِ العربُ في مَثَلِها الشهير: لِكُلِّ جوادٍ كَبوة!
والمثلُ يُضربُ في البارعِ في أمرٍ ما ثم تخونُه براعته في موقف ما، وهذه القصة كبوة الجوادِ الأصيلِ سُفيان بن عُيينة،
فالرجلُ كانَ من أهلِ اللّهِ في الأرض، ونجماً من نجوم هذا الدين، ومشعلاً يُستضاءُ به، ملأَ الأرضَ علماً وفقهاً وحديثاً.

ولكنَّنا نهاية المطافِ نحن بشر، نضجرُ ونغضبُ، نجبنُ ونبخلُ،
ويأتي أحدنا في موقفٍ، ما لم يكُنْ ليفعله أبداً، هذا أنَّ الكمال للّه،
ولا عصمة إلا لنبي!

تحسَّرَ سُفيان بن عُيينة أنه كانَ يجالسُ من جالسوا أصحاب النبيِّ ﷺ،
ثم هو يُجالِسُ هؤلاء الناس.
فقالَ له يحيى بن أكثم أنَّ مصيبته فيهم أقل من مُصيبةِ أولئكَ فيه،
فَهُمْ بعد أن جالسوا أصحاب النبيِّ ﷺ يُجَالِسُونه!
وهذا الردُّ يجب أن يُدوَّنَ في فنونِ الرد!
على أنه يُحسبُ لسُفيان بن عُيينة أنه رجعَ سريعاً إلى نُبله المعهود،
وخُلُقه الرفيع، فقد قَبِلَ الحق رغم أنه جاءه من فتى صغير،
بل وأثنى عليه وتنبَّأَ له بمُستقبلٍ مُشرقٍ، وهكذا كان!

الفكرةُ من هذا كله أنكَ إذا تزوجتَ بعد موتِ زوجتكَ، فليسَ من
الأدبِ أن تُقارِنَها بها،
فهذا يُؤذي الحي ولا يُنصف الميت،
ما مضى قد مضى، ونحنُ أبناءُ اليوم!
وكذلكَ التي ماتَ عنها زوجها وتزوجتْ غيره فليس
من الخُلُقِ أن تذكرَهُ أمامه،
وتُقارنَهُ به، فهذا مُؤذٍ وجارح،
احتفظوا بذكرياتكم، وترحَّموا على أمواتكم، ولكن إيذاءَ الأحياءِ
ليسَ من الأخلاق!

198

قالَ «الذهبيُّ» في ترجمته للإمامِ «علي بن أبي الطيِّب»:
إنه حُمِلَ إلى السُلطانِ «محمود بن سبكتكين» ليسمعَ وعظه،
فلمَّا دخلَ جلسَ بلا إذن، وأخذَ في روايةِ حديثٍ بلا أمر،
فغضبَ السُلطان، وأمرَ غُلاماً له فلكمَ الإمام لكمةً قوية!
فأخبرَهُ بعض الحاضرين منزلة الإمام في العِلم والفِقه.
فاعتذرَ إليه السُلطان، وأمرَ له بمالٍ، فلَمْ يقبلْهُ منه.
فقالَ له السُلطان: يا شيخ، إنَّ للسُلطانِ صولة، وهو مُحتاج إلى السياسة،
ورأيتُ أنَّكَ تعدَّيْتَ الواجب، فاجعلْني من حِلٍّ!
فقالَ له الإمام: اللّٰه بيننا بالمِرصاد، وإنَّما أحضرْتَني للوعظ،
وسماعِ أحاديثِ النبيِّ ﷺ، وللخشوع، لا لإقامةِ
قوانينِ الرئاسة!
فخجلَ السُلطانُ من فِعلته، وقامَ وقبَّلَ رأسه، واعتذرَ إليه!

وقالَ «الذهبيُّ» مُعَلِّقاً على القصة:
رُتبة «محمود بن سبكتكين» في الجهادِ رفيعة، ولهُ في الهندِ فُتوحات مليحة،
ولهُ هنَّات وسقطات، هذه منها، وقد ندمَ واعتذرَ، فنعوذُ باللّٰهِ من كُلِّ متكبِّرٍ جبَّار!

يحدثُ للإنسانِ أن يخونَهُ نُبله مرةً وما أجمل قول علي بن الجهم:

ومن ذا الذي تُرضى سجاياه كلها كفى المرءُ نُبلاً أن تُعدَّ معايبه

يحدثُ أن يتصرَّفَ الإنسانُ مرةً على غيرِ ما هو عليه فعلاً،
فيقولُ كلمةً ما كانَ بالعادةِ يقولها، أو أن يتصرَّفَ تصرُّفاً لم يعهدْهُ هو من نفسه،
ومن العدلِ أن نُقِيلَ للكريم عثرته،
ومن أُصُولِ الفِقهِ أنه إذا كَثُرَ الماءُ لم يعُدْ يحتملُ الخبثَ!
على أنَّ النُبلاءَ يعتذرون، والخُبثاء يستكبرون!
حين غضبَ مُوسى عليه السلام، وألقى الألواح،
كانَ أول ما فعله عندما ذهبتْ عنه سَوْرَةُ الغضبِ أنه أخذَ الألواح!
وحين وكزَ النبيُّ ﷺ سواد بن غزية،
وهو يُسوِّي الصفوفَ للمعركة، شكا إليه سواد أنَّه قد أوجعه،
ناولَهُ العود الذي كانَ في يده، وكشفَ عن بطنه، وقالَ له: استقِدْ يا سواد!
مَن أخطأَ فعادَ كانَ فيه شيء من آدم عليه السلام، فعندما أخطأَ عادَ واسترجع،
ومَن أصرَّ كانَ فيه شيء من إبليس، فعندما أخطأَ تولَّى واستكبر!

199

روى «أحمد بن يوسف الكاتب» في كتابه «المكافأة وحُسن العُقبى»،
أنَّ «هارون بن ملُّول» ورثَ عن أبيه مالاً،
فجعل يُسرِفُ في إنفاقه يمنةً ويسرةً، بلا حسابٍ ولا عدٍّ!
ودخل عليه ذات يوم صديق أبيه «إسحاق بن تميم»،
فلما رأى حاله قال له: لقد سرَّني حُسن لباسك،
وإقبالك على الدنيا،
فبارك اللّٰه لكَ بما ورثتَ عن أبيك!
ثم قام وخرج من عنده، ولما كان المساء،
أرسل خادمه إلى هارون يقول له: إنَّ عندي الليلة أصدقاء أبيك،
وهم في شوقٍ إلى رؤياك، فتعالَ إلي نواسيكَ فقده،
ونتواسى بكَ فقدَ صديقنا القديم!
فلما دخل هارون إلى المجلس، وجد كل أصدقاء أبيه،
فأشار إسحاق إلى خدمه بيده، فوثبوا على هارون وقيدوه،
وصاح به قائلاً: يا جاهل، تتوهم أنَّ أباكَ مضى واسترحتَ من رقابته،
ولا تعلم أن أباكَ تركَ لكَ هؤلاء جميعاً وكلهم لك أب، يردُّونكَ عن الخطأ بأليم العقوبة؟!
وقاموا إليه جميعاً يوبخونه، وما تركوه حتى تعهد لهم،
أن يحفظ مال أبيه، ولا ينفقه إلا بحقه!
فانصلح حال هارون، وكان كلما لقي صديقاً لأبيه حيَّاه قائلاً:
مرحباً بأبي بعد أبي!

الحُبُّ والصُّحبةُ لا يموتان بموت من كنا نحبه ونصاحبه،
فهذا من خوارم الحُب، وسوء الصحبة!
وانظروا لأصدقاء الأب كيف أخذوا على يد ابنه بعد أن مات،
وقالوا له: كلنا لكَ أب!
تفقدوا من ترك أحبابكم وأصحابكم وراء ظهورهم،
فالحب والصحبة لا تطويهما أطباق التراب!

لقيَ عبد اللّه بن عمر أعرابياً، فأجزل له في العطاء،
فقيل له: يرحمُكَ اللّه، هؤلاء الأعراب يكفيهم القليل!
فقال لهم: إن أبا هذا كان وداً لعمر بن الخطاب!
يا للنبل والوفاء يا ابن عمر، يُكرمُ ابناً لرجلٍ كان بينه وبين أبيه ود!

وكان النبيُّ ﷺ قد جاوز الستين حين لقي نسوةً عجائز،
فخلع رداءه وأجلسهنَّ عليه، ونظر لمن حوله يُبدد دهشتهم،
قائلاً: هؤلاء صويحبات خديجة!
يا للحُب يا رسول اللّه، يا للحُب! لأجل عين خديجة ألف عينٍ تكرمُ!
وما أنبله من نبيٍّ حين قال: إنَّ حُسن العهد من الإيمان!

200

في كتابِ «الصمت» لابنِ أبي الدنيا:
قالَ مُجاهد بن جبر: كانَ لي صديق من قُريش، فقلتُ له:
تعالَ حتى أواضعكَ الرَّأي، فانظُرْ أين تقعُ من رأيي، وأين أقعُ من رأيك!
فقالَ لي: لا تفعلْ ودعِ الوُدَّ كما هو!
فغَلَبَني القُرشيُّ بقوله!

الجدالُ نوعان: جدالٌ محمودٌ، وجدالٌ مذمومٌ!
فأما الجدال المحمود فهو ما كانَ تِبياناً للحق،
وهو دأبُ الأنبياءِ عليهم السلام في دعوتهم،
وفي القُرآن: ﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرتَ جدالنا﴾،
وهو دأبُ الصالحين من بعدهم، وقد استطاعَ عبدُ الله بن عباس،
أن يُعيدَ إلى الحقِ ثلاثة آلاف رجل من الخوارجِ بعدما ناظرهم!
وما زالتِ الشُّبُهاتُ يبثها أصحاب الأهواء والقلوبِ المريضة،
فيتصدَّى لها أهلُ الاختصاصِ من أتباعِ هذا الدين،
وهذا ثغرٌ عظيمٌ يجبُ أن يُحرس، وعقيدةٌ يجبُ أن تُصان!

وأما الجدال المذموم فهو ما كانَ استعراضاً لعضلاتِ العقل،
وإبراز مفاتنِ المعرفة، وكميةِ الثقافة!

وبسببِ هذا الجدال حُرِمنا من تحديدِ ليلةِ القدر،
روى البُخاري عن عُبادة بن الصامت أنه قال:
خرجَ النبيُّ ﷺ ليُخبرنا بليلةِ القدر،
فتلاحى/تخاصم رجلان من المُسلمين فيها.
فقالَ النبيُّ ﷺ: خرجتُ لأُخبركم بليلةِ القدر،
فتلاحى فُلان وفُلان فرُفِعَتْ!
وعسى أن يكونَ خيراً، فالتمسوها في التاسعة، والسابعة، والخامسة!

وكانَ دأبُ الصالحين من كلِّ أُمةٍ أن ينهوا عن الجدال والمراء:
قالَ سُليمان عليه السلام لابنه: دعِ المراء، فإنَّ نفعه قليل،
وهو يُهيِّجُ العداوةَ بين الإخوان!
وقالَ ابنُ عباس: كفى بكَ إثماً ألا تزال مُمَارِياً!
وقالَ الأوزاعي: إذا أرادَ اللّه بقومٍ شراً ألزمهم الجدل ومنعهم العمل!
وقيلَ لعبد اللّه بن الحسن بن الحُسين: ما تقولُ في المراء؟
فقال: يُفسِدُ الصداقةَ القديمة، ويحلُّ العقدةَ الوثيقة،
وأقل ما فيه أن يكونَ دريئة للمُغالبة، والمُغالبةُ أمتنُ أسبابِ القطيعة!
وقالَ الشافعي: المراء في الدين يُقسي القلب، ويُورِثُ الضغائن!
وقِيلَ قديماً: لا تُمارِ حليماً ولا سفيهاً، فإنَّ الحليم يغلبك، والسفيه يؤذيك!

201

سألَ رجلٌ حاتمَ الطائي: هل غلبكَ أحدٌ في الكرم؟
قال: نعم، غلامٌ يتيمٌ من طيء، نزلتُ بفنائه،
وكانتْ له عشرة رؤوس من الغنم، فعمدَ إلى واحدٍ فذبحه،
وأصلحَ لحمه،
وقدَّمه إليَّ، وكانَ ممَّا قدَّم الدماغ، فأكلتُ منه، واستطبْتُه!
وقلتُ: طيِّب واللّٰه.
فخرجَ من بين يديَّ، وجعلَ يذبحُ رأساً رأساً، ويُقدمُ إليَّ الدماغ،
وأنا لا أعلم،
فلما خرجتُ لأرحل، وجدتُ حول البيت دماً عظيماً، وإذا به قد ذبحَ الغنم كله!
فقلتُ له: لم فعلتَ هذا؟
فقال: كيف تستطيب نفسُكَ شيئاً أملكه، وأبخلُ به عليكَ، إنَّ ذلك لسُبَّة عند العرب!
فعوضته عن ذلك ثلاثمئة ناقة حمراء!
فقالَ الرجل: أنتَ إذاً أكرم منه.
فقال: بل هو أكرم، لأنه جادَ بكلِّ ما يملكه، وأنا جُدْتُ بقليلٍ من كثير!

وأجملُ من هذه القصة ما رواه فقيه الأندلس «ابن حزم» في كتابه «المحلى»،

من حديثِ أبي هُريرة، أنَّ رسولَ اللّه ﷺ،
قال: سَبَقَ دِرهمٌ مئةَ ألف درهم!
قالوا: كيف؟
فقال: كانَ لرجلٍ درهمان، تصدَّقَ بأحدهما، وانطلقَ رجلٌ إلى عُرضِ ماله،
فأخذَ مئة ألف درهم، فتصدَّقَ بها!
بمعنى أن الذي يملكُ درهمين، قد تصدَّقَ بنصفِ ماله حين تصدَّقَ بدرهم واحد،
أما الذي تصدَّقَ بمئةِ ألفِ درهم فكانَ يملكُ المليارات! الأمرُ بالنسبة!
وهذا لا يعني أن يتوقفَ الأغنياءُ عن الصدقة،
وإنَّما المقصود أن لا يستقلَّ الإنسان صدقته إن كانَ فقيراً!
فإن رغيفاً لا تملك غيره تقسمه بينك وبين جارٍ جائع،
يُكتبُ لكَ عند اللّه أنكَ تصدَّقْتَ بنصفِ ثروتكَ! وعليه قِسْ!
أما معشر الأغنياء فحسبكم النيشان النبوي،
الذي تقلَّدَهُ عُثمان بن عفان يوم جهَّزَ جيش العُسرة: ما ضرَّ عُثمان ما فعلَ بعد اليوم!

202

استطاعَ «كورما ديزن» أن يجمعَ ثروةً كبيرةً،
من إتقانه صنع الشاي الياباني حتى صارَ أُسطورة فيه.
وعَلِمَ «ديزن» أن صديقه «شينو سويمون» قد استدانَ،
مبلغاً كبيراً من المالِ ليُسدد دَين قريب له.
وكان «ديزن» يعلمُ أن صديقه «سويمون» قد وقعَ في ورطة،
فأرادَ أن يُساعده ولكن بطريقةٍ غير جارحة،
لِما كان يعلمُ من عِزَّةِ نفسه، فكان لا بُدَّ من الحيلة!
زارَ «ديزن» صديقه في بيته،
وأخذَ يمتدحُ لوحةً بسيطةً على الجدار كأنها الموناليزا،
وعلى وقعِ المديحِ الهائلِ نزعَ «سويمون» اللوحةَ عن الجدار،
وأهداها «لديزن» الذي قَبِلَها بكثيرٍ من الترحاب.
وفي اليوم التالي أرسلَ «ديزن» إلى «سويمون» مزهريةً فيها رسالة يقولُ فيه:
أردتُ أن أشكركَ على كرمك البارحة معي، تقبَّلْ مني هذه الهدية،
هذه مزهريةٌ قيمةٌ من صُنع الفنان «صن نوركيو»،
وعليها كتابات بخطِ يدِ الإمبراطور العظيم «هيديوشي»،
فإن لم تكُنْ مُهتماً بهذا النوع من التُحف، يُمكنك بيعها إلى «كاواشا سانيمون»
إنه يسعى منذ سنوات لامتلاكها.
وكان «كاواشا» هو صاحب الدَّيْن.
ذهبَ «سويمون» إلى «كاواشا» بالمزهريةِ فذهلَ بها،

وعرضَ عليه أن يشتريها مقابل الدين الذي عليه،
بل ويُعطيه فوق ذلك مبلغاً إضافياً،
وهكذا تمتّ الصفقة، وقُضي الدَّيْن بلا حرج!

أحياناً يكونُ العطاءُ المُباشرُ جارحاً،
فلا بُدَّ من خطةٍ تُرمِّمُ الكبرياءَ ولا تُريق ماء الوجه!
الناسُ قبل أن يكون لديهم حاجات لديهم كرامات،
وأن تتركَ إنساناً لحاجته أفضل من أن تقضيها له وتهدر له كرامته!
كانَ جابر بن عبد اللّه فقيراً، وصادفَ أن تزوَّج،
فأراد النبيُّ ﷺ أن يُساعدَه بشيء، وكانا عائدين من غزوة،
فقالَ له: يا جابر بِعْني جملك؟
فقال له جابر: هو لك!
فقال له النبيُّ ﷺ: آخذه بكذا وكذا.
فلمَّا وصلا إلى المدينة، قالَ النبيُّ ﷺ لبلال
بن رباح:
أعطِ جابراً ثمن جمله.
فقامَ بلال فأعطاه، ولما أرادَ جابر أن ينصرفَ،
قال له النبيُّ ﷺ: خُذْ جملكَ معكَ!
لكل شيءٍ في هذه الدنيا أدب، وأدبُ العطاءِ حفظُ الكرامات!